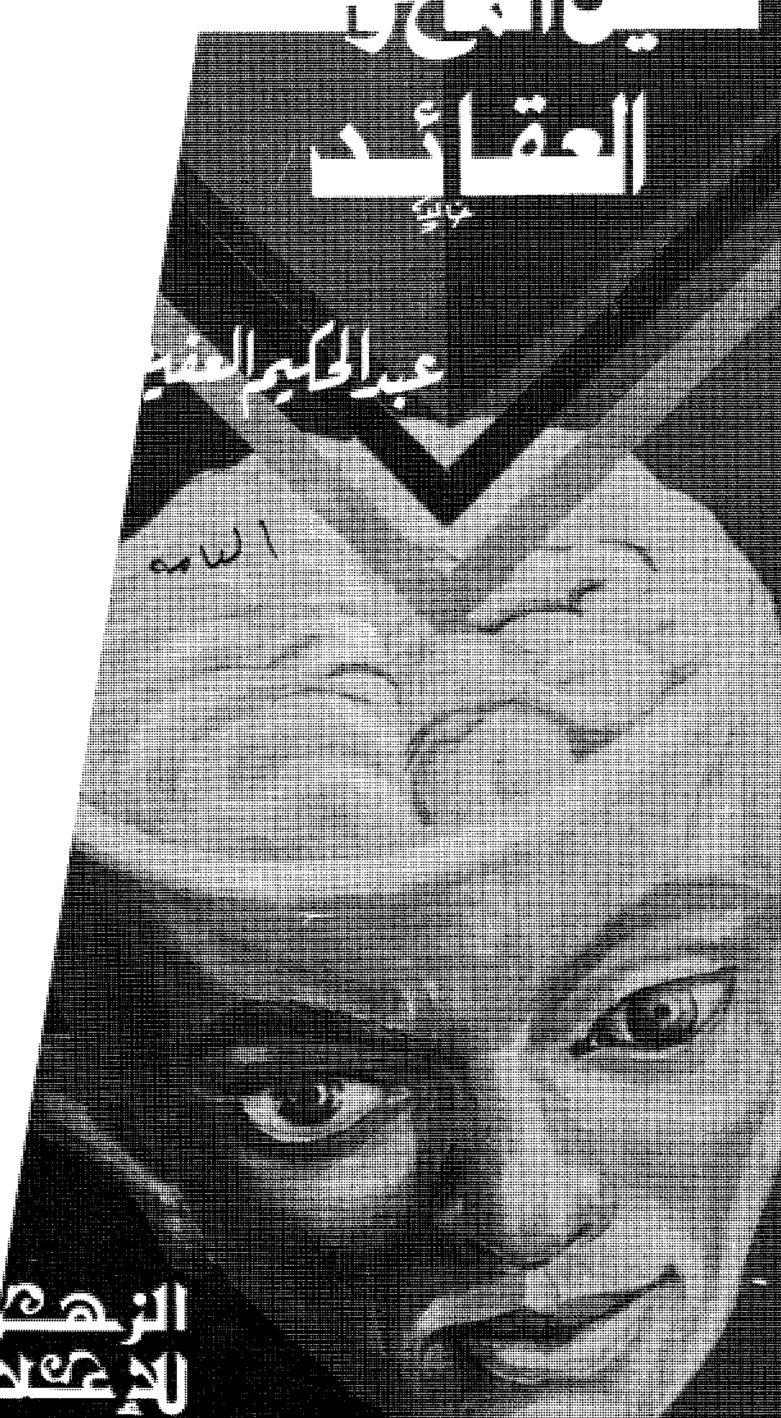

العقائد
رواية
عبد الحكيم العف

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ ــ ١٩٩٣ م

يناير ١٩٩٣

الجمع التصويري والتجهيز

بالزهراء للإعلام العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربي
قســـم النشــر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زاهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يوإن فاكس ٢٦١٨٢٤٠
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U .N fax 2618240

لما كان الهدف الأساسي لعلم النفس الاجتماعي هو دراسة سلوك الإنسان العقلي والوجداني في المجتمعات البشرية ، فإن « غسيل المخ » مصطلح يدخل حتمًا ضمن اهتمام الباحثين الاجتماعيين وعلماء النفس المتخصصين في دراسة مسلك الفرد في المجتمع .

فالطفل منذ يوم مولده يعيش عقليًا ووجدانيًا في إطار جماعة صغيرة يعلم ويتعلم فيما بعد أنها تسمى الأسرة .. وفيها يدرك حدوده العقلية وحدود الآخرين ، ويتم تشكيل جميع أفكاره الأساسية عن الحياة الإنسانية بأفراحها وآلامها ، ويدرك معنى الحب ومعنى الكراهية . ويتعلم كيف يسلك في المواقف الاجتماعية التي تصادفه في مختلف الظروف .

ومع ذلك فالأسرة في المجتمع الحديث لا تتشكل من تلقاء نفسها بل هي تتشكل اجتماعيًا وسلوكيًا وفق الإطار الثقافي العام الذي يغلف المجتمع الواسع الذي تتواجد فيه سواء أكان مجتمعًا ريفيًا أم حضريًا .

وعلاقة المجتمع بالأسرة علاقة ترابطية عالمية الوجود .. فلا مجتمع بدون أسر ، ولا أسر بدون مجتمع . ومن هنا تلعب الجغرافيا دورًا لا إنكار له في تشكيل المجتمعات سواء أكانت بدائية أم متحضرة ، كذلك يلعب التراث الاجتماعي دورًا هاماً لتشكيل ثقافة المجتمعات البشرية مما يجعل حتمية التنوع والاختلاف واضحة بين المجتمعات البشرية .

ولهذا الاختلاف الثقافي بين المجتمعات البشرية ، نشأت تضاربات وصراعات من أجل الحصول على الثروات الطبيعية ، صاحبها بالضرورة صراعات بين الثقافات ذاتها ، وظهور التعصب الثقافي ضد الثقافات المغايرة مما شكل حاجة دائمة لكل

مجتمع بشري في بناء صرح عقلي وفكري له يستطيع أن يقف صامدًا أمام الصروح العقلية والفكرية للمجتمعات الأخرى وخاصة المعادية .

وأصبحت العقيدة هي أقوى سلاح للدفاع عن الحقوق المشروعة ، كما أصبحت أقوى سلاح تستخدمه المجتمعات التي تتصف بالعدوانية تجاه المجتمعات الأضعف .

وإذا ما تشكلت عقيدة قوية تدعمها النزعة الخيرة لدى بعض البشر فلنا أن ندرك دائماً أن النزعة الشريرة لدى البعض الآخر من البشر سوف تقف وراء عقيدة يحاول أصحابها أن تكون قوية .

ومن هذا ، لنا أن نرى معركة عقائدية شرسة تدور بين المجتمع الخير والمجتمع الشرير . ونحن بطبيعة الحال على علم بأن النزعة العدوانية الشريرة في عقول بعض الناس ــ وهي نوع من الضعف البشري الأصيل ــ تنزع دائما إلى إسقاط ضعفها على الآخرين .. فالشخص القوي الذي لايتصف بالشر لايعتدي لأنه ليس بحاجة إلى العدوان مع أنه في ذات الوقت لايخشى أن يعتدى عليه لأنه قادر ــ بوسائله الخاصة ــ على الدفاع عن نفسه إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك .. ولهذا فإن العدواني هو الشخص الذي به من الضعف ما يجعله يعتدي حتى إذا ما بدا لنا من الناحية المادية المجردة قوياً .. وذلك لأن الضعف الداخلي أقوى وأبدى من القوة الظاهرة .

وهذا ما يجعلنا نرى أن المعركة الشرسة التي تدور بين المجتمع الخير والمجتمع الشرير تبدأ دائماً باعتداء الثاني على الأول . فالخير دائماً معتدى عليه .. والشجرة المثمرة هي الشجرة التي دائماً ما تقذف بالحجارة ، وإذا ما رجعنا لكتب الأديان السماوية فسوف نرى كيف كان الأشرار يعتدون على رسل وأنبياء الله وهم خير البشر وأكثرهم علوًا ، وأرفعهم شأنًا .

ولكن أليس كلمة مثل « الخير » كلمة بدون حدود ؟ أوليس كل مجتمع من المجتمعات البشرية يؤمن بأنه أكثر المجتمعات البشرية حبًا في الخير وعملاً للخير ومثلاً للخير ؟ إن الأمريكيين يؤمنون إيمانًا راسخًا أن بلادهم هي خير البلاد وأكثرها ثراء

وعلمًا وبالتالي فإن الأمريكيين يتمتعون بكل ما في الدنيا من مظاهر الثراء والسعادة . ومثلما الحال مع الأمريكيين نجد أن الشعب الروسي (والفرنسي والزائيري والكمبودي والبرازيلي والجاميكي ... الخ) يؤمن مثل غيره بأن بلده هو خير البلاد وأجملها وأكثرها حباً للإنسان . فكيف يتفق كل هذا مع الحقيقة المسلم بها في علم النفس وهي وجود ظواهر الخير والشر لدى البشر .. وكيف يتفق هذا مع العداوات التي سادت حياة كل المجتمعات البشرية ؟

لتعريف الخير تعريفاً يريحنا من كل هذا التشويش يجب علينا أن نعود بالكلمة إلى معناها الحقيقي ، ونقول إن كل المجتمعات خيرة وفقا لتراثها الثقافي المعروف لها .. ولكن هل التراث الثقافي هذا أصيل أم مختلق ؟ إذا كان مختلقاً فهو يحمل بذور الشر بداخله ، وبالتالي نزعات العدوان والكراهية .. أما إذا كان أصيلاً فهو خير لايبغي عداوة ولايحمل بداخله شراً .

والعقيدة الخيرة الأصيلة هي العقيدة التي ترتكز أساساً على تعاليم الله .. ولما كان المؤمنون بالله إيمانا حقيقياً أقل من غير المؤمنين فإن الشر أكثر مع أنه ليس بالضرورة أقوى .. ولهذا فكلما ارتبطت عقيدة مجتمع بتعاليم الخالق استوثقنا أن هذا المجتمع لايحمل عداوة ولابغضاء ولاشرورا ولا كراهية .. وكلما استوثقنا كذلك بكثرة أعدائه من حوله وعلى مدى العصور .

ولأن الأعداء لايعترفون بمنطق – لسيطرة نزعة العدوان لديهم – فإنهم يحاولون النيل من عقيدة المجتمع الخير ، لأنها هي أساس قوته ورسوخه وقدرته على الصمود ، فإذا ما فصلوا المجتمع الخير عن عقيدته سقط وسقطت ثرواته وإمكاناته وتراثه الأخلاقي .

وإذا ما كان العدوان صفة واضحة كل الوضوح لمن لايحترم عقيدة الله ، فإن هذا يدلنا على مدى التخبط والضياع الذي عاش فيه الكثير من الناس ألوفاً ممتدة من السنين .

وقد تسببت تلك النزعة العدوانية في أن يقتل الأشرار الأخيار على مر العصور

وفي كل الأمصار والبلدان . والتاريخ البشري إذا ما دون تدويناً أخلاقياً فإنه تاريخ دموي لاتنقطع أحداث جرائمه ، ولاتحصى جثث ضحاياه ، ولا يختفي السفاحون فيه .

ومع ذلك فيبدو أنه لا جديد قد تعلمه الإنسان في العصر الحديث من تاريخ ملطخ بالدماء مفعم بالمآسي ، وكأنه لايسمع تردد أصوات المصروعين ولايرى أشباح الموتى ولاييجل استشهاد الشهداء .

وبعد كل مذبحة يرتكبها الأشرار ضد بني جنسهم فإنهم يفوقون لبعض الوقت ليروا ماذا صنعت أيديهم ، فيبدون كما لو أنهم قد استيقظت ضمائرهم وأن عدوانيتهم قد ولت .. ولكن ليس هذا هو حال الإنسان الشرير .. فهو يتوقف بعد جريمته لكي يستعد لارتكاب جريمة أخرى ربما تفوق ما ارتكبه في الماضي .

ويبدو ــ كما نرى ــ أن في طبيعة الإنسان شيئا من الغموض .. شيئا مستورا وراء حجاب ، وهذا الغموض يشبه إلى حد ما الغموض الذي نراه أحيانا في سلوك الطفل الذي يعتدي على شقيقه الأصغر فيعاقبه ضميره على عدوانيته من ناحية ، ويعاقبه والداه على عدم حبه لأخيه من ناحية أخرى ، فيبكي لأنه اعتدى على شقيقه ، ويبكي لأنه عوقب .. ثم لايلبث بعد مضي بعض الوقت أن يعتدي على أطفال الجيران .. ليعاقبه ضميره ويعاقبه والداه مرة أخرى ، وهكذا .

فالطفل العدواني يعتدي لأنه غيور ، وهو غيور لأنه ناقص ، وهو ناقص لأنه لايعلم حدود بشريته ولايريد فيما يبدو حتى عندما يكبر أن يعلمها ، لأن في علمها كشفاً لحجاب نقصه الذي يتناقض مع كبريائه وغروره الشيطاني .. ولهذا فهو يستمر في العدوان ، وإن اختلفت صور عدوانه أو تباينت شخصيات ضحاياه .

ولقد وقفت عدوانية البشر كما نلاحظها في التاريخ بكل مراحله خلف كل الحروب وكل المعارك الشريرة وكل المذابح ، ووقفت كذلك وراء رسم أفكار وأيديولوجيات واسعة النطاق وعميقة الجذور في الثقافة البشرية .

ولما كانت كل صنوف الشر تسعى للالتقاء معاً لأنها من مادة واحدة .. فإن كل الأشرار نراهم يتحدون في الهدف النهائي حتى وإن بدا لنا أن بينهم من صور التباين ما يناقض ذلك .

فالملوك الذين يودون الاستمرار في نهب ثمرات عمل الكادحين اتحدوا مع الكهنة منذ البدايات الأولى لظهور المجتمعات البشرية لكي يساعدهم هؤلاء في حكم الفقراء الكادحين . فارتفعت مكانة الكهنة وعلا شأنهم في تلك المجتمعات القديمة لأنهم خلقوا الأكاذيب بوجود الآلهة التي تعاقب كل مخالف للنواميس التي يسنها السلاطين والملوك . والمطلع على تاريخ الحضارة المصرية القديمة والحضارة الصينية وكذلك الإغريقية والفارسية والرومانية يستطيع إدراك كيف اتحدت عناصر الشر جميعاً لإفهام المستضعفين أن الآلهة تغضب وتلعن وتعذب كل من يخالف تعاليم الملوك والكهنة ، فخضع الناس أجيالاً وراء أجيال وهم على ثقة أكيدة بأن الملك هو (إله) أو أن له علاقة به لاتنفصم .

ولو كانت الحروب المدمرة هي الشر الوحيد لدى من يتصفون بالعدوانية ، لهان الأمر وتمكن الخيرون من مجابهته بوسيلة أو بأخرى .. ولكن الشر الأكبر لدى العدوانيين هو في استخدامهم ما لديهم من نفوذ وسلطان ووسائل لكي يطبعوا بالعنف والقسر والإجبار عقول الناس على الإيمان بما يريدون من أفكار وقيم وممارسات تكون في نهاية المطاف في صالح استمرارية حكمهم وبطشهم وديكتاتوريتهم ، وهذا هو بالفعل ما نشر العداوة والبغضاء بين الناس قديماً وحديثاً .

وإذا كانت الحروب لايمكن تجنبها إلا بالقضاء على ما يختزنه العالم من أسلحة الدمار والتقتيل والتشريد فإن القضاء على أفعال تحطيم العقائد لايمكن وقفه إلا باعتراف الإنسان بعدوانيته وحبه للتسلط وميله للاستحواذ وفرض النفوذ ، وهذا مالم يتم التوصل إليه بعد في كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة ، وهذا يدعونا نحن العرب المسلمين إلى الحيطة والحذر ومعرفة كيف يحاربنا الأعداء بالكلمة والفكرة والمعتقد .

إن فكرة هذا الكتاب تدور حول تعريف القارئ وخاصة من هو في سن الشباب – بطبيعة عمليات غسيل المخ ، وكيف يستخدمها الأعداء ضد بعضهم البعض وضد من يخالفهم في المعتقد . وما هي الوسائل التي يقومون بتطبيقها لإنجاح أغراضهم وتحطيم إرادة وعقيدة من يريدون السيطرة عليه سواء أكان من الداخل أو من الخارج . وهذا ما سيجده القارئ في الفصل الأول من الكتاب .

أما الفصل الثاني فيدور حول التاريخ الحديث لغسيل المخ ، ومن مارسه بدءاً من المستعمرين الأوروبيين الذين سكنوا في الأراضي المستكشفة حديثاً في أمريكا ضد الزنوج الذين جلبوا كعبيد للعمل تحت ظروف غاية في السوء والشدة ، واستمرار الأمريكيين في استعباد الزنوج للأسف حتى بعد صدر الدستور الأمريكي عام 1776 الذي كان ينادي بأن جميع بني البشر قد خلقوا متساوين في الحقوق . كذلك سيجد القارئ معلومات عن غسيل المخ الذي كان يجري في الاتحاد السوفيتي إبان عصر جوزيف ستالين والمجازر التي راح ضحيتها الملايين من البشر وكيف تسنى لهذا الحاكم أن يسدل ستاراً حديدياً حول البلاد السوفيتية لكي يطبق النظرية الماركسية بدون حريات سياسية تذكر للمواطنين . ثم يتعرض الفصل نفسه لعمليات غسيل المخ التي مارسها الصينيون ضد أعدائهم غير الشيوعيين سواء من الداخل أم ضد الأجانب (من الأوربيين والأمريكيين) الذين وقعوا في الأسر .

أما الفصل الثالث من الكتاب فهو يناقش موضوع وسائل الإعلام وأثرها على الوطن العربي في العصر الحديث ، وكيف يستطيع أعداؤنا التسلل لعقولنا وأفكارنا عبر وسائل الإعلام ، وما هي الوسائل التي تمكننا من إضعاف أثر تلك الوسائل الأجنبية المعادية لنا .

ويناقش الفصل الرابع كيف يستطيع الإنسان المرور بتجربة غسيل مخ متوسطة المستوى – إذا ما هو وقع في أسر الأعداء – دون أن تتحطم قواه العقائدية ، وكيف يتمكن المجتمع من الحفاظ على قوى مواطنيه الدينية والثقافية والعقائدية إذا ما تعرض لحملات عدائية تشنها وسائل إعلام شريرة تبغي إضعاف الجبهة الداخلية عن طريق

بث الإشاعات والتشويش والبلبلة الفكرية .

أما الفصل الخامس والأخير فهو يشمل خير ختام لموضوع كموضوع غسيل المخ وتحطيم العقائد ألا وهو رأي الإسلام وموقفه من العدوانية والقسوة التي تتسم بها الممارسات القمعية وأساليب غسيل المخ .

فالإسلام أوضح أن العدالة ، والديمقراطية ، والشورى ، والرحمة هي سياسات رشيدة بالغة النجاح للقضاء على الشر في المجتمع ، وجعل الإنسان يحترم أخاه الإنسان فلا يحطم عقيدته ولايقسو عليه ولا يسومه العذاب .

والله ولي التوفيق

عبد الحكيم العفيفي

الفصل الأول

ما غسيل المخ ؟ وكيف يستخدم؟

- معنى غسيل المخ
- السادية والنزعة للسيطرة
- غسيل المخ عبر التاريخ
- كيف يستخدم غسيل المخ في العصر الحديث ؟

أ - نظرية التعلم بالترابط
ب - التنويم المغناطيسي
جـ - العقاب البدني
د - العقاب النفسي
هـ - الإشعار بالذنب

معنى غسيل المخ :

ظهر مصطلح غسيل المخ Brainwashing في العصر الحديث بعد اندلاع أحداث كبرى في العالم مثل الثورة الروسية وقيام الحرب العالمية الثانية وتحول الصين إلى دولة شيوعية .

ومع ذلك فإن أهم المراجع العالمية تشير بوضوح إلى أن المصطلح قد ظهر في الصين « حيث أخذ الصينيون في نهج برنامج يسمى الإصلاح الفكري الشيوعي الصيني أو إعادة التأهيل الأيديولوجي : (تسوهسينج كاى تساو = Szu Hsing Kai Tsao) . حيث اعتقد الصينيون بأن الأفراد الذين لم يتعلموا في مجمع شيوعي لديهم اتجاهات وأفكار بورجوازية غير صحيحة ويجب إعادة تعليمهم قبل أن يأخذوا مكانهم في ذلك المجتمع »[1] .

« ولقد قام بترجمة مصطلح غسيل المخ في اللغة الصينية وهو (Hsi Nao = هسى ناو) صحفي أمريكي يدعى إدوارد هنتر Edward Hunter في كتابه : غسيل المخ في الصين الحمراء ، والذي نشر بالولايات المتحدة عام 1953 وشرح فيه الطرق التي استخدمت في الصين لإحلال قيم الماركسية محل القيم السياسية الأقدم »[2] .

وبالرغم من ظهور هذا المصطلح لأول مرة بعد نشر كتاب (هنتر) عام 1953 ، إلا أن « عملية » غسيل المخ في حد ذاتها قد « لفتت الانتباه في خلال الثلاثينات من القرن العشرين مع حالات التطهير الذائعة الصيت التي قام بها

Encyclopaedia Britanica - VOL.4 - 1972 - Printed In U.S.A .(1)

the American peoples Encyclopaedia - Vol.3 - 1966 Printed In U.S.A . (2)

النظام السوفيتي »[1] .

ويعني غسيل المخ حرفياً في معظم المراجع الغربية « تطبيق الأسلوب أو العملية التي استخدمت في الدول الشيوعية لتحقيق هدف أو هدفين أساسيين : الأول وهو إجبار شخص ما على الإقرار الواضح بأنه قد ارتكب جرائم خطيرة ضد (الشعب) والدولة . والثاني العمل على إعادة تشكيل وبناء أفكار الفرد السياسية واستبعاد أفكاره السابقة حتى يصبح مدافعاً عن الشيوعية . وكلا الهدفين وإن بدوا غير متشابهين إلا أنهما يحاولان جعل الفرد يقبل كحقيقة ما كان في السابق يعتبره غير حقيقي ، وأن يرى كذب ما كان يعتقد أنه حقيقي »[2] .

ومع ذلك فإن ربط عملية غسيل المخ بالفكر السياسي والأيديولوجي فقط يبدو أنه تعريف غير كامل ، ولهذا فإن التعريف الأكمل والأشمل يمكن أن يكون كما يلي : « استخدام أي طريقة من شأنها التحكم في الفكر الإنساني ضد رغبة وإرادة وعلم شخص ما »[3] .

وعلى هذا فإن كل تحكم أو سيطرة ، على فكر فرد أو جماعة أو مجتمع من المجتمعات ضد إرادتهم ورغبتهم وعلمهم يعتبر نوعاً من غسيل المخ .. سواء بغرض سياسي أو عقائدي أو ثقافي أو أخلاقي .

إذن فغسيل المخ محاولة تتسم بالعدوانية السافرة والموجهة من شخص أو جماعة ضد شخص (أو مجموعة من الأشخاص أو حتى المجتمع ككيان بشري متكامل) .

ومع ذلك فيجب التنبيه على ضرورة ملاحظة أهمية عدم الخلط بين غسيل

---

(1) Encyclopedia International Vol. 15 - 1976 - By Grolier Incorporated - Printed In U.S.A .

(2) International Encyclopaedia of the Social Science Vol.2 - 1968 - the Macmillan Company & the Free Press . Printed In U.S.A .

(3) The Encyclopaedia Americana - Interternational Edition Vol.4 - 1976 - Printed In U.S.A .

المخ وبين عمليات التربية والتعليم والتثقيف في البيت والمدرسة والجامعة .. فنحن يجب أن نميز بين الإيجابي والسلبي ، وبين الغث والسمين حتى لاتختلط علينا الأمور التي توصف بأنها تربوية إيجابية والأمور التي توصف بأنها محاولة لغسيل المخ .. إن غسيل المخ يأتي عادة من أعداء المجتمع ذاته أو أعدائه لدينه أو ثقافته ، وهو يتصف بالاستمرارية في النقد والتهجم على أهم القيم الراسخة في ذلك المجتمع . أما التربية والتثقيف فهي أمور يجب أن تتوافق مع المثل والقيم الدينية والأخلاقية والوطنية الراسخة والتي ليس عليها خلاف والتي تنبثق عنها العادات والتقاليد والمثل العليا والنظام الثقافي الإيجابي السائد في المجتمع .

إننا نربي أبناءنا وبناتنا على التمسك بقيم الدين ومعاني أركانه والحكمة منه ونربيهم على احترام القيم الفاضلة مثل الصراحة وعدم الكذب واحترام الحقوق والممتلكات العامة والخاصة والانتماء للوطن وعدم الرياء .. إلخ . أما غسيل المخ فهو محاولة لايكل أصحابها عن ترديد هجومهم سواء المباشر أو غير المباشر كي يغيروا من نظرتنا لقيمنا ومثلنا وتراثنا .. وهم إذا ما نجحوا في ذلك فإنهم بلا شك سيكونون في وضع يمكنهم من أن يحددوا لنا الطريق الذي يفضلون لنا أن نسلكه حتى يتحطم كياننا وتتبعثر وحدتنا وتتبدد أمجادنا .

السادية والنزعة للسيطرة

إذا كان غسيل المخ هو محاولة تحطيم الكيان الفكري للإنسان أو المجتمع ككل وخلق فكر جديد للإحلال محله .. فإن هذه المحاولة توصف في علم النفس الحديث بأنها نزعة تتسم بالعدوانية . وليس هناك عدوان إلا ويقف خلفه قدر أكبر منه من الكراهية ... فما هو الأساس النفسي لوجود الكراهية ؟ ومتى تنشأ الكراهية وتتضخم في الحياة العقلية للإنسان ؟ يجيب عن هذا السؤال العالم النفساني الكبير الدكتور وليم ستيكل[1] Wilhelm Stekl . وهو عالم نفس ألماني فيقول : « الإنسان

في بداية حياته كطفل لايحب إلا نفسه . ولكنه يأخذ تدريجياً في تعلم حب الأفراد الذين يحيطونه بسبل السعادة . إنه بالغريزة وحدها يكره كل الذين يقفون في طريق إشباع احتياجاته ، وهو يحس أن كل انتهاء أو اختفاء للسعادة إنما يعني ظهور الألم ، ولهذا فهو في سن مبكرة للغاية يتعلم أسلوب الإسقاط .. فهو يتمنى أن تصيب آلامه الآخرين ، وأن تكون السعادة له وحده .. وكأن لسان حاله يقول : (السعادة لي والألم لكم) .. أو بعبارة أخرى : (الحب لي والكراهية لكم) . ومن هنا يبدأ الطفل مواجهة العالم الخارجي بشعور الكراهية ، ويأخذ في تعلم أن كل شيء غريب عنه يجلب له الخوف ؛ ولهذا فكل شخص غريب يعتبر عدوا . إن القلق بالنسبة له هو الخوف الذي يسبب الألم الذي ربما يهدده به الشخص الغريب عنه . ولكن الطفل يجد السلوى في أمه .. فهي التي تباشر مراضاته ولذا فهو يعتبرها جزءا من ذاته وكيانه .. وهذا يفسر لنا لماذا يكون من الصعب على الطفل أن يعطي حبه لأبيه في هذه السن المبكرة للغاية . ولكن الأب سرعان ما يظهر حبه لطفله مستخدمًا عدة طرق لإظهار مشاعره مثل ملاعبة الطفل ومرجحته والغناء له ، فيقوم الطفل بضم الأب هو الآخر إلى ذاته ليصبح جزءًا آخر من كيانه . وبهذا الموقف تصبح الأسرة مدرسة الحب .

وبنمو الطفل فإنه يشاهد كيف تزعجه المؤثرات في البيئة الخارجية وتهدد سعادته .. إن هناك مثلاً تلك السيدة التي تنادي على أمه فتبعدها عن مخدعه .. كذلك فإن الأب نفسه يظهر كمزعج له لأنه يستأثر بأمه أو بأشقائه دونه .. وهنا يتصرف الطفل تماماً كما يتصرف الإنسان البدائي الذي يكره كل ما يتعارض مع

Sadism and Masochism - The psycoloogy of Hatred and Cruelty. Wilhelm Stekel,M.D. Authorized (1) English Version by : Louise Brink, Ph. D. Washington Square Press, Innc. New York. 1st printing 1948 - printed In U.S.A.

إرادته وسعيه للسعادة والسلطة . ومن هنا فإن الكراهية تصبح إرادة للقوة » .

هذا كان رأي علم النفس عن الأساس السيكولوجي لانبثاق الكراهية في نفوس بعض الناس ... فهي نزعة أنانية لا تعطي الحب إلا للذات أو لمن يساعد على سعادة الذات .. وهي تمتد لتشمل كل الذين يهددون الفرد أو يشكلون عنصرًا خطرًا على ذاته أو يشعر منهم أو معهم بأنه ليس سعيدًا ، وهي بالإضافة إلى ذلك ليست نزعة مؤقتة بل هي دائمة بدوام حياة الفرد إلا إذا استطاع دمج ما يخافه إلى ذاته والتصالح مع من لا يعرفه ولو عقليًا ... عندئذ يحدث الخلاص وتنتهي الكراهية .. إنها مثل شعور الطفل الذي يخشى الأشباح التي شاهد صورها في الأفلام ... فهو يحلم بها ويفزع من تذكرها ومع ذلك فهو لا يستطيع نسيانها ... وتدور الأيام عليه حتى تستطيع التوافق مع ما يخشاه بأن يصبح هو نفسه مثل الأشباح فيقلدها ويتمثل صفاتها ويؤدي أدوارها ويتشبه بحركاتها ... إنه الآن لا يخشى الأشباح .. لأنه – هكذا – أصبح واحدًا منها .

وهذا التفسير يمكن تعميمه على كل أوجه الحياة حتى السياسية منها .. فمثلاً لكي لاتكره البورجوازية يجب عليك أن تحيا – ولو بعض الأيام – في الحياة البورجوازية بقصورها وطعامها وشرابها وأفكارها .. ولكي لاتكره الشيوعية – هكذا اعتقد الشيوعيون كما ذكرت الكثير من المراجع الغربية – يجب عليك أن تعيش وتفكر كشيوعي .

ولما كان ذلك ليس ممكناً وليس سهلاً في كل الأحوال .. فإن الكراهية تدوم وتحطم وتخرج حممها ولهيبها على كل غريب .. ويبقى الإنسان المتصف بالكراهية هنا أو هناك ليهدد الآخرين وأمنهم وفكرهم وعقائدهم .

وإذا كان ذلك هو رأي علم النفس في أصول الكراهية بين البشر ، فإن هناك آراء أخرى ترى استمرار الكراهية كرجع الصدى لأحداث تاريخية مؤلمة سابقة .. فالكراهية التي تحدث اليوم ما هي إلا ترديد للكراهية التي حدثت بالأمس ... والتي

حدثت بالأمس ما هي إلا صورة أو أخرى لما كان يحدث منذ قرون عديدة مضت .

ومن الذين عبروا عن مثل هذا الرأي الدكتور (هيرشفيلد Hirschfeld) حيث قال : « إن المعاناة التي تعتبر الدافع المتسلط في التصوف المسيحي بكل أشكالها ودرجاتها من التواضع الروحاني وإنكار الذات إلى ممارسة الجلد لأغراض دينية إلى التقشف العقلي ... قد أعطت الفرص الكافية إلى الشخص السادي أو الماسوشي ، والتي بسببها وقعت الأحداث المفزعة لمحاكم التفتيش ، ومحاكات السحرة ، وحرق أجسام البشر فوق الحطب المشتعل في العصور الوسطى مما أدى إلى ظهور ذهان جماعي سادي يمكن مقارنته بانحرافات الإرهاب السياسي الذي مورس بواسطة الديكتاتوريات الحديثة »(1) .

وواضح هنا أن (هيرشفيلد) يضيف عنصر التكرار المتماثل لأحداث التاريخ فالنازيون – مثلاً – كانوا مملوئين بالكراهية المتعصبة ضد كل من لم يؤمن بفكرهم فأشعلوا حرباً دمرت مدناً وبلداناً بكاملها .. وهم لم يفعلوا ذلك إلا تشبها بما فعله رجال الدين المسيحي المتعصبون في العصور االوسطى حينما كانوا يعذبون حتى الموت الآلاف من المسيحيين الذين خيل إليهم أنهم قد خرجوا عن تعاليم الكنيسة لمجرد اختلافهم مع التسلط البابوي .. وسوف يتم شرح ذلك بصورة أكثر تفصيلاً في جزء قادم من هذا الفصل .

غسيل المخ عبر التاريخ :

لم يكن الإنسان في الحضارات الإنسانية القديمة لديه الوقت أو الخبرة العلمية

---

(1) - Sexual Behaviour . Dr . Eustace Chesser - Transworld Publishers - London - Corgi Edition 1964 Printed In Great Britain .

لكي يجري عمليات غسيل المخ بالطريقة التي تمارس في العصر الحديث ... فلم يكن الأعداء أو الأسرى يستحقون أن ـــ يُجرى لهم تغير في أفكارهم وعقائدهم وذلك لأن القتل السريع كان موجوداً وعلى نطاق واسع للتخلص من أي عدو .

ومع ذلك فيبدو أن وسائل تستخدم حديثاً لغسيل المخ كانت تستخدم كذلك في الأزمنة التاريخية القديمة .. ومن تلك الوسائل التنويم المغناطيسي ، والإيذاء البدني والإشعار بالذنب أو بالخطيئة .

كذلك يمكن القول بصفة عامة إن غسيل المخ الجماعي عن طريق التحكم في عقائد الناس كان يستخدم على نطاق واسع في كثير من المجتمعات القديمة والمتوسطة في العالم .

لقد بدأ المصريون القدماء كما نعلم كتابة أول الأسطر في تاريخ الحضارة البشرية . ولايمكن للباحث في التاريخ الذي يدرس ظواهر تاريخية بالغة القدم إلا أن يقف على عنصر بالغ الأهمية في التاريخ المصري القديم ألا وهو قوة الدين لدى المصريين القدماء لدرجة أن كل أوجه حضارتهم القديمة والتي امتدت لآلاف من السنين قد اعتمدت على قوة وأثر الدين في حياتهم .

لقد بزغ المجتمع المصري القديم فجأة منذ القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد وببزوغه بزغ معه عنصر الدين وسلطة الآلهة وقوة وهيمنة رجال الدين ؛ ولهذا فإذا كان هناك أي قدر من التأثير على عقول وفكر المصريين القدماء فإنه بلا شك يكون مرتبطا بالدين الفرعوني القديم .

فقد وجد المصري القديم أن قوة الدين أصبحت هي قوة الفرعون .. فكل فرعون (ملك) هو إله يملك كل ما في مصر من خيرات ، ومن أجله ومن أجل الآلهة تبذل كل الجهود .. فهل رضي المصري القديم بذلك طواعية أم أن سلطة الملك ورجاله وجهاز الدولة والسلطة اللامحدودة لرجال االدين (أو الكهنة) استطاعوا أن يقنعوا المصري القديم بمرور السنين لأن ما يقولونه له هو الصحيح ، وأن ما يطلب منه من أفعال وسلوكيات يجب عليه أن يقوم به دون تردد أو إبطاء .

لقد نجحت السلطة الدينية الكهنوتية في زرع الرضا في نفس المصري القديم

عن طريق إقناعه بأن هناك حياة أخرى (عند أوزوريس) أكثر بهجة وأوفر خيراً وأوسع رزقاً إذا ما هو أرضى الآلهة والفرعون في الحياة الدنيا وقام بكل ما هو مشرف معهم .

ويقول مؤلفو كتاب « تاريخ الحضارة » عن عقيدة المصريين القدماء : « إننا نعلم من كتاب الموتى وهو أهم وثيقة باقية من التاريخ المصري أن المتضرع أمام الإله أوزوريس وهو قاضي (إله) الموت يشرح كيف أنه لم يرتكب أي خطيئة على ظهر الأرض .. وهذه نماذج مما يقوله أمام أوزوريس : يأيها (الإله العظيم) إله الحق .. لقد جئت إليك يا (إلهي) ، ولقد أُحْضرت لكي أرى جمالك . إنني لم أرتكب أي خطيئة ضد الناس .. لم أفعل الشر في أرض الحقيقة ، لم أقم بأي ضرر ، ولم أفعل شيئا خبيثاً .. ولم أقم بشيء حظر (الإله) القيام به .. ولم أبلغ عن خطيئة خادم لسيده ، ولم أجعل أي شخص يجوع .. ولم أجعل أي شخص يبكي .. إنني لم أقتل ، ولم أخن زوجتي .. ولم أفسد نفسي في مدينة (الإله) .. إنني لم أنقص في موازين الغلال .. ولم أنزع اللبن من فم طفل .. ولم أخرج الماشية من مراعيها .. ولم أصطد دجاج الآلهة ولا سمكهم . ولم أمنع المياه من مجاريها ..»[1] .

هذا جانب مما جاء في كتاب تاريخ الحضارة عن عقيدة المصري القديم ، وهي تظهر لنا أن المصري يكرر ويؤكد على إخلاصه لما سنه الآلهة من قواعد ونظم .. وطالما هو ينفي ارتكابه لمثل هذه السلوكيات فقد كانت الآلهة تحظر الإتيان بها في الحياة .

إن هذا مجرد دليل على كيف كانت محاكمات الموتى تدور .. وكيف يقوم المصري العادي بالاعتراف ، وكيف كذلك يفصح عن قدر عال مما يمكن تسميته اليوم بالممارسات الأخلاقية التي لم يكن لها مثيل في الأمم والحضارات القديمة .

وهذا يدلنا على القدر الذي استطاع رجال الدين الوصول إليه حتى يحقنوا عقل الرجل المصري العادي بقدر كبير من الرضا بالواقع حتى يفوز برضا الآلهة وخيراتهم في الحياة الثانية بعد الموت (مع أوزوريس) .

A History of Civilization - Crane Brinton John . B . Christopher - Robert Lee Wolef - Volume (1) one - Second Edition - Englewood Cliffs, New Jersy - 1960 - Printed In U.S.A .

وربما يتفق إيمان المصري القديم هذا مع الاعتقاد القوي بأن عقيدة المصري القديم لم يطرأ عليها أي تغيير أساسي (ربما سوى العقيدة التوحيدية التي أتى بها إخناتون في الدولة الحديثة) .. فلو أن رضاه وقناعته بالقيم الدينية التي كان يعيش عليها لم يكونا بالقوة التي تجعله يديم التمسك بهما لكان قد قام بالتغيير تلو الآخر ليلبي احتياجاته العقلية والروحية والثقافية .. ولكن كل الأدلة تشير إلى أن المصري القديم كان مقتنعاً عن إيمان راسخ بالدين والآلهة التي كان يعيش في ظلالها على مدى عشرات من القرون بدون انقطاع . ومن خلال الدين الوضعي استطاع الملوك الفراعنة والكهنة تحقيق الأمجاد والثراء والسلطة والمعرفة التي كانوا يبغونها ، ولذلك كان الملوك يعيشون في قصور فاخرة ويمتلكون كل ما يأملون .. وكان الكهنة يسكنون المعابد الواسعة ويزيدون من ثرائهم ونفوذهم .. وبقي الشعب بعيداً عن الثراء والمعرفة والسلطة . ولهذا يمكن القول إن المصريين القدماء قد خضعوا على مر السنين لأول عملية تحكم كامل في العقول والفكر عن طريق الوعد الديني بأن الآلهة ستجازيهم خيراً في الحياة الأخرى بعد الموت .

وبالإضافة إلى هذا يكون من الصحيح القول إن أسلوب حياة المصريين القدماء هو أول أسلوب تم فيه تقسيم الناس إلى فئات .. كل فئة لها صفاتها التي تختلف عن صفات الفئة الأخرى .. مما طور فكرة تقسيم الناس فيما بعد لدى الدولة الإغريقية ليكون هناك طبقة كاملة من النبلاء وطبقة أكبر من السوقة والعبيد .

فقد أخذ الإغريق القدماء مجمل أفكارهم عن الحضارة المصرية القديمة .. و لم يشمل ذلك فقط أخذ نظام تعدد الآلهة .. بل شمل كذلك تقسيم الناس إلى درجات والمجتمع إلى وحدات اقتصادية .. « فلم يكن كل مواطني مدينة أثينا يشاركون في اختيار رجال الحكم كما ادعى بريكلس Pericles .. فالفلاحون مثلاً وجدوا صعوبة كبيرة في المشاركة ولهذا فقد استأثر رجال المدينة الذين يعملون أعمالاً مدنية بسلطة الحكم . كذلك لم يكن للنساء أية حقوق سياسية حيث كان مكانهن في المنازل لتجهيز الطعام وإنجاب وتربية الأطفال .. وبالإضافة إلى عدم إعطائهن أية حقوق سياسية فإن الرجال لم ينظروا إليهن على أنهن مساويات لهم في النواحي العقلية . و لم

يتمتع بحقوق المواطنة أي مقيم في أثينا لمجرد أنه يقيم فيها . أما طبقة العبيد فقد أحضرهم الأثينيون من آسيا الصغرى والأراضي الواقعة حول البحر الأسود عن طريق التجارة أو عمليات القرصنة .. حيث عومل الكثير منهم معاملة فظة ، وكانوا يرهقون بالأعمال وفقا لمقولة أرسطو نفسه بأن العبد ما هو إلا آلة بها حياة »[1] .

أما القانون الروماني « والذي أظهر سلطة الدولة وكذلك حقوق المواطنين فإنه رسَّخ وجود العبودية بالرغم من إعطائه الرقيق بعض الحقوق ضد الأسياد القساة »[2] .

ولم يختلف الوضع كثيراً في حضارات الشرق التي ظهرت أثناء أو بعد حضارات الشرق الأوسط القديمة ؛ ففي الصين ــ مثلاً ــ ظهرت الحضارة الصينية بظهور أول إمبراطور فيها ويدعى (يو YU) وذلك في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد .. ومثله مثل فراعنة مصر القدماء فقد اعتبر نفسه ــ وكذلك من أتى بعده في الحكم ــ من أبناء السماء !![3] .

أما في الهند وفي عام 560 قبل الميلاد فقد ولد (جوتاما بوذا Gautama Buddha) في شمال الهند لرجل بالغ الثراء .. وعندما بدأ بوذا يكبر في السن رأى ثلاثة رجال أثرت حالتهم فيه أثراً شديداً فقد كان الأول رجلا فقد عقله من كبر السن .. والثاني رجلا مشلولا ، والثالث كان ميتاً محمولاً في جنازة حزينة .. وقد دفعته هذه المشاهدات الثلاث إلى التفكير العميق فترك بيته وزوجته وابنه الصغير وأخذ يبحث عن طريقة لمساعدة الناس . وفي البداية أخذ يسلك في حياته أسلوباً متصوفاً مثل البراهمة الذين آمنوا بأن الإنسان يستطيع فقط أن يصل إلى الكمال إذا

(1) مرجع سابق . A History of Civilization - Englewood Cliffs, New Jersy

(2) (مرجع سابق) . A History of Civilization - Englewood Cliff's New Jersy

(3) 1000 Great Events - Edited By Lynne Sabel / and Philip Steele - The Hamlyn Publishing Group Limited - 5 th Impression 1981, Printed In Spaine .

ما أهمل احتياجات جسده وقام بالصيام المتواصل .. و لم يستطع بوذا السير على هذا الطريق القاسي إذ إنه أوشك على الهلاك .. فاستمر في بحثه حتى توصل إلى تأسيس عقيدة كانت على النقيض من الديانة البراهمية .. وقد كانت عقيدته تلك تقوم على أسس أخلاقية وإنسانية ولكنها فيما بعد أخذت تختلط بعبادة الأصنام ، ومع ذلك ولأنها كانت ديانة قامت ضد نظام الطبقات فإن سكان الهند غير الأريانيين قد اعتنقوها »[1]

وإذا ما انتقلنا للعصور الوسطى أو ما يطلق عليها العصور المظلمة في أوروبا فإننا نرى عودة إلى استغلال الدين في القمع وحقن عقول الناس بالأفكار التي يقرها رجال الدين الذين كانوا يعملون تحت سلطة البابوات التي لم يكن لها حدود أو روادع .

« فلقد ظهرت محاكم التفتيش لأول مرة في القرن الثالث عشر الميلادي بواسطة البابا جريجوري التاسع Pope Gregory IX في فرنسا ، وذلك بغرض قمع الهرطقة ، وأصبحت هذه المحاكم تحت نفوذ أعضاء النظام بسانت دومنيك St . Dominic وعقدت المحكمة الأولى للتفتيش في مدينة طولوز Toulouse واستخدم فيها التعذيب للأشخاص الذين اتهموا بالهرطقة .. أما الذين اعترفوا بممارستها ــ تحت استمرار التعذيب ــ فإنهم أحرقوا . وقد امتدت محاكم التفتيش فيما بعد من فرنسا إلى إيطاليا ، وأسبانيا ، وهولندا ، والبرتغال .. ثم فيما بعد للمستعمرات الكاثوليكية في العالم الجديد أمريكا الشمالية والجنوبية) . ووصلت محاكم التفتيش إلى قمة شراستها خلال القرن الخامس عشر في أسبانيا حيث كان يرأس محكمة التفتيش فيها مفتش عام ، وكان أشدهم قسوة الذي كان يدعى (توركيمادا Torquemada) حيث كان يقبض على المتهم ويلقي به في غرفة سرية دون أن يعلم السبب ثم يمارس عليه التعذيب بآلات رهيبة منها ما يسمى المشجب Rack (آلة تعذيب بمط الجسم) .. وكذلك

(1) (مرجع سابق) . 1000 Great Events - The Hamlyn publishing Groop Limited

المقصلة الحديدية Iron Maiden .. وذلك لاستخلاص (الحقيقة) منه »[1] .

« ولقد استمرت محكمة التفتيش في أسبانيا ــ وإن خفت حدتها خلال القرن السابع عشر ــ حتى عام 1835 عندما صدر مرسوم بإلغائها . أما في فرنسا فقد حظرها نابليون في عام 1808 »[2] .

ولقد كان الشكل الأساسي لمحاكم التفتيش في أسبانيا ومنذ بدايتها عام 1478 ملكياً أكثر منه بابوياً .. وكان الغرض منها فرض القومية الأسبانية بواسطة الكثلكة ، وأن يصبح كل من يعيش في أسبانيا مخلصاً للعرش وذلك عن طريق أن يصبح كل إنسان طفلاً مطيعاً للكنيسة . ولقد كان الهدفان الرئيسيان لهذه السياسة ـ سياسة محاكم التفتيش في أسبانيا ـ هما جماعات الأقلية اليهودية والإسلامية . فكلتا الجماعتين تمتعتا لوقت طويل بالتعايش مع الأسبان ، كان أفرادهما يمتلكان الأراضي والأعمال التجارية في أسبانيا .. ولقد لفت غناهما ، واستقلالهما وديناهما نظر الملكة (إيزابيلا Isabella) ، (والكاردينال زيمنز Ximenes[*] . وفي عام 1492 بدأ اضطهاد اليهود حينما خُيروا بين الدخول في الديانة الكاثوليكية أو الطرد من أسبانيا وفقد الممتلكات .. وبعد عشر سنوات على ذلك جاء دور المسلمين الذين لم يعطوا إلا خياراً واحداً وهو الدخول في الكاثوليكية .

وكان التعذيب والحرق يجري فوراً على الذين ارتدوا عن دينهم ودخلوا المسيحية شفاهة .. ويقول مؤلفو كتاب تاريخ الحضارة : إن إيزابيلا وزيمنز قد نجحا في فرض

---

(1) (مرجع سابق) . 1000 Great Events The Hamlyn Publishing Group Limited

(2) The Great Encyclopaedia of Universal Knowledge - Odhams Press Limited Long Acre, London, Copyright. Ts 144 Printed In Great Brtain .

(*) فرانشيسكو زيمنز دي شينيروز Francisco Ximenes de Cisneros وهو كاردينال أسباني ورجل دولة . حظي بثقة الملكة إيزابيلا ، وفي عام 1495 أصبح رئيسًا لأساقفة توليدو Toledo ، وفي عام 1507 عين كاردينالاً (انظر المرجع السابق للمزيد من التفاصيل) .

التوحد العقيدي .. ولكن على حساب قمع أكبر العناصر المنتجة في أسبانيا .. وفيما بعد فقد اتضح أن ذلك الأسلوب القمعي الذي هيأ لظهور القومية الأسبانية كان سبباً في ضعفها الذي حل فيما بعد »[1] . لقد استخدم الملوك ورجال الدين المسيحيون معًا سلطاتهم اللامحدودة في العصور الوسطى في مجمل دول أوروبا لإرهاب الشعوب وجعلها أسيرة المخاوف التي لاتنتهي بحجة الخروج على تعاليم البابوية .. ولم يكن هناك مفر أمام أي مواطن يعيش في ذلك الوقت إلا الموت أو التعذيب لكي يبقى دينه حياً لآخر لحظة من لحظات عمره .

إن هذا الإرهاب مكن من دوام سلطة رجال الكنيسة والتمتع بكل ما يعنيه ذلك من جبروت ونفوذ .. ومكن الملوك من زيادة ثرواتهم وامتداد حكمهم بلا خوف من عصيان أو تمرد أو ثورات .. ولكن كان ذلك كما رأينا على حساب تحطيم عقول وأفكار وقيم وعقائد بشرية أخرى أهدرت دماء الضحايا فيها تحت آلات التعذيب والإماتة . ومع ذلك فأين ديكتاتورية البابوات الآن ؟ لقد ولت مع شرورها لأن الضحايا والشهداء يسقطون الديكتاتورية .

ولكن ، وحتى لاينسى القارىء كم عانى المسلمون الذين عاشوا في ذلك الزمن (زمن محاكم التفتيش) ، وحتى لاينسى مظاهر الظلم وتحطيم الإرادة وغسيل المخ الإجباري الذي عاشوه فإنني سوف أعرض لمحات قليلة من الإجراءات التي اتخذت ضدهم لكي يرتدوا عن الإسلام .

« أورد للورنتي نص سلسلة من الأوامر التي أصدرها عاهلا أسبانيا ، نقلاً عن المجاميع الرسمية الملكية منها :

1 — في يوم الثلاثاء ، اليوم العشرين من شهر يوليو سنة 1501 الموافق 4 المحرم سنة 907هـ صدر أمر من الملكين بمنع وجود المسلمين في مملكة غرناطة ، وقد

(1) (مرجع سابق) . A History of Civilization . Englewood Cliff's New Jersy

اختارهما — أي الملكين — الله لتطهيرها من (الكفرة) . كما أنه يحظر عليهم — أي المسلمين — أن يتصلوا بغيرهم خشية أن يتأخر تنصيرهم ؛ ويحظر عليهم أيضاً الاتصال بمن تنصروا لئلا يفسد عليهم إيمانهم بمخالطتهم ، وكل من خالف تلك الأوامر فجزاؤه الموت وتصادر أملاكه[1] .

2 — في يوم الثلاثاء ، الثاني عشر من شهر فبراير سنة 1502 (13 رمضان 908 هـ) صدر أمر ملكي آخر يحتم على كل مسلم حر يبلغ الرابعة عشرة سنة من عمره إن كان ذكراً ، والثانية عشرة من سنها إن كانت أنثى أن يغادر مملكة غرناطة قبل أول شهر مايو التالي . على أنه يسمح لمن يريد الخروج أن يتصرف في ماله وأملاكه على ألا يكون الخروج إلى أفريقية التي كانت في حرب قائمة مع أسبانيا أيامئذ وليكن الخروج إلى بلاد أخرى . وكل مخالفة للأمر تجعل صاحبها عرضة للموت والمصادرة . ولوحظ أن كثيراً من متنصرة العرب ، وهم الذين تظاهروا باعتناق النصرانية كانوا يبيعون أملاكهم ويفرون إلى أفريقية فصدر أمر جديد[2] .

3 — في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر سنة 1502 (يوافق يوم 19 ربيع الأول سنة 909 هـ) صدر أمر ملكي يحظر على الناس التصرف في أملاكهم قبل مضي عامين ، كما يحظر عليهم أن يغادروا مملكة قشتالة إلا إلى مملكتي الأراجون والبرتغال[3] .

ويقول الدكتور علي مظهر في كتابه : (محاكم التفتيش) إنه : « يجب ألا يغرب عن بالنا تقرير حقيقة ما كان يبغيه الأحبار والقساوسة وملوك أسبانيا وما جاورها ، وهو أنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن المسلم (أو اليهودي) لايرضى بدينه

---

(1) محاكم التفتيش (بأسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها) تأليف الدكتور على مظهر مطبعة أنصار السنة المحمدية 1947 .

(2) المرجع السابق .

(3) المرجع السابق .

بديلاً ، فكانت سياستهم ترمي إلى الإبادة ومحو الأثر ، وقد أصدروا من الأوامر ما أصدروا وأقاموا المحاكم الفظيعة وصادروا ونهبوا وهتكوا الأعراض ، وأذلوا وخسفوا الأرض بمن عليها من غير معتنقي الكثلكة بشتى الطرق وضروب التفنن في التعذيب والنكال » .

« فقد أصدر مانريك الأوامر التالية :

إن كل مسلم تنصر يعد كأنه قد ارتد إلى الإسلام ، إذا ما مدح دين محمد أو قال : إن يسوع المسيح ليس بإله و لم يكن إلا رسولاً أو قال : بأن صفات مريم العذراء أو أن اسمها لايليق بأمه . وعلى هذا يجب على كل مسيحي أن يبلغ ما يعلم من تلك الأمور ، كما أنه يجب عليه أيضاً أن يبلغ ما يكون قد سمعه أو رآه من متنصرة المسلمين إذا هم زاولوا بعض العادات الإسلامية كأن يأكل اللحم يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح له ، أو إذا احتفل متنصر بيوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية ، أو أن يولي وجهه شطر الشرق قائلاً : بسم الله ، أو ختن أولاده ، أو سماهم أسماء عربية ، أو أعرب عن أمنيته في اتباع تلك السنة ، أو إذا قال : بأنه يجب ألا يعتقد إنسان إلا بأن الله واحد وأن محمداً عبده ورسوله ، أو إذا أقسم بما في القرآن أو إذا صام رمضان وتصدق خلاله ، وكان لايأكل ولايشرب إلا عند الغروب ، أو إذا تسحر ليلاً أو قام للوضوء ، أو إذا صلى وولى وجهه شطر المشرق ، أو إذا ركع أو سجد وتلا شيئاً من القرآن أو إذا تزوج وفقاً لما توجبه الشريعة الإسلامية ، أو إذا أنشد أغاني عربية ، أو أقام حفلات للرقص أو للموسيقى العربية ، إو إذا اتبع قواعد محمد (يريد الإسلام) الخمس ، أو إذا غسل الموتى وكفنهم في ثياب جديدة ، أو دفنهم في أرض بكر ، أو وضعهم في قبور من الحجر مضطجعين على جنوبهم وأسند رءوسهم إلى حجارة ، أو إذا غطى قبورهم بالغصون الخضراء أو استغاث بمحمد عند الحاجة ، وقال : إنه نبي ورسول الله (وليس ذلك من الإسلام ، فإن الاستغاثة لاتكون إلا بالله وحده) أو إذا قال بأن الكعبة هي أول بيت من بيوت الله . أو إذا قال : بأنه لم يتنصر وهو يؤمن بالدين المقدس

(المسيحية) أو قال بأن آباءه وأجداده قد فازوا برضا الله وقد ماتوا على الإسلام »[1] .

وقد انتقلت وسائل العقاب التي مورست بشكل واسع النطاق أيام محاكم التفتيش إلى التطبيق خارج محاكم التفتيش .. ومن أهم هذه الوسائل جاء العقاب بالجلد في المرتبة الأولى حيث مارسه فيما يبدو كثير من الشعوب والأمم بشكل مستمر . « فها هو ذا العصر الفيكتوري في بريطانيا يشهد ممارسة العقاب بالجلد لدرجة أن وصفه (إيفان بلوخ Ivan Bloch) بأنه الرذيلة الوطنية الإنجليزية حيث كان يمارس في المدارس والمنازل في جميع الأوساط . وذكر (هيرشفيلد) أن المؤرخين وعلماء الجنس قد أجمعوا على أن إنجلترا هي النموذج الراسخ لموطن ممارسة الجلد . وفي الحقيقة فإن الاتجاه لاستخدام السوط في العصور التاريخية السابقة لم يتطور إلى المستوى الصارخ الذي استخدم فيه في إنجلترا .. وقد ألفت كتب كثيرة ــ منها كتاب بلوخ ــ عن الجلد في إنجلترا واتضح من هذه المؤلفات أن الغرض الرئيس من ممارسة هذا النوع من العقاب (كان استخلاص الصفات السيئة من الضحايا) ، وهو اتجاه تحركه العواطف حول استخدام العقاب البدني كعنصر إصلاحي . ولكن يبدو أن هذا النوع من العقاب لم يمارس فقط بغرض تربوي .. بل مورس كذلك ــ كما يقول الدكتور (إيوستاس شيسر Dr. Eustace Chesser) ــ في مدارس الكنائس حيث كان الأطفال يتعرضون لأشد أنواع العقاب .

لقد كانت آلات الجلد المختلفة جزءاً من مستلزمات البيت في إنجلترا .. وكانت المدارس تستخدم نوعاً من السياط يسمى باللغة الإنجليزي : The Birch (وهو نوع من أغصان الشجر المرنة المجدولة) حيث طبق استخدامها بصورة مستمرة . ومن هذا يبدو واضحاً أن تأثير ممارسة العقاب في الماضي قد عانى منه الكثيرون في إنجلترا ،

---

(1) انظر للمزيد من التفاصيل كتاب : محاكم التفتيش (بأسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها) تأليف الدكتور علي مظهر ــ المرجع السابق .

حيث كانت الفكرة وراء العقاب في المدراس والمنازل عن طريق الجلد مشابهة للتي كانت تجري في الأديرة الدينية من أن الجسد الذي ارتكب الخطيئة يجب أن يهان وأن تكبح غرائزه ، وأن الشر الذي يعيش في الجسد يمكن إخراجه منه عن طريق جلد صغار السن إلى درجة معينة »[1] .

ولم تتوقف ممارسات القمع ذات الدوافع الدينية المسيحية حتى القرن العشرين كما يقول الدكتور (إيوستاس شيسر) فالحالات لاتحصى والتي يقف خلفها حجة أن العقاب الجسدي يطهر الجسد المذنب . ففي عام 1902 جذبت ممارسات الراهبات في كنيسة نوتردام Notre Dame بفرنسا انتباه الصحف .. وفيما يلي وصف لما كن يمارسنه : (لقد كانت صنوف العقاب الذي تحدده الراهبات مشابهة لما كان يجرى في العصور الوسطى ومثال على ذلك : كانت الفتيات أحياناً يجبرن على تقبيل أقدام رفيقاتهن في المدرسة الكنسية .. أو كن يجبرن على رسم صلبان بألسنتهن فوق الأرضيات ، وكان ذلك يعني أنهن مذنبات ويستحققن العقاب .. وكانت عملية رسم الصلبان بالألسنة هذه تجري في قاعات تناول الطعام أو في المطابخ وأحياناً في دورات المياه . وإذا ما أصيبت فتاة مذنبة بالتعب من ممارستها فإن منفضة الأتربة كانت تدس في فمها . كذلك هناك ما يسمى بالرداء الضاغط (وهو رداء محكم يصعب على من يرتديه الانثناء بداخله) وكان هذا الرداء تلبسه المذنبات لا لمدة ساعات ولكن لعدة أيام متصلة . وكانت الفتيات اللاتي يُنفذ فيهن مثل هذه العقوبات يتناولن طعامهن في أوانٍ من الفخار ورءوسهن منحنية تجاهها فوق الأرض . ولقد قامت راهبة حملت اسم (مارى سانت روز Marie Sainte Rose) بتلطيخ أوجه المذنبات بالطين ، وأحياناً كانت تجبرهن على تمريغ رءوسهن وأوجهن في الوحل .. كذلك تمادت تلك الراهبة في ممارسة العقاب لدرجة أنها كانت تدفع بغائطهن في أفواههن !! وبالإضافة إلى ما سبق فقد كان هناك ما يسمى بالمحاكمة المائية والتي

---

(1) (مرجع سابق) . Sexual Behaviour - Dr. Eustace Chesser

فيها يتم الإمساك بالفتاة المذنبة من رأسها وهي ترتدي الرداء الضاغط وتغمر الرأس في حوض به ماء حتى يتحشرج صوتها . أما أشد أنواع العقاب فكان الوضع في حجرة الموت ... وهي حجرة رطبة موحشة توضع بداخلها الفتاة المذنبة مع توابيت الموتى بداخل الدير » [1] .

كيف يستخدم غسيل المخ في العصر الحديث :

لم يكن رجال السلطة والحكم الديكتاتوري في الحضارات البشرية القديمة في حاجة إلى القيام بغسيل المخ لفرد واحد أو مجموعة صغيرة من الأفراد ... إذ إن ذلك يعني بذل مجهود كانوا فيما يبدو في غنى عنه إذ إنهم كانوا يستطيعون أن يقتلوا فورًا أي شخص يهدد سلطتهم أو كيانهم أو نفوذهم أو ملكهم ... ولذلك ولكي يتمكنوا من الحفاظ على ما كانوا عليه من سلطان ، كانوا يقومون بفرض آرائهم وفكرهم بكل صنوف ومعاني القوة على من يحكمونهم من شعوب . وهم لذلك كما رأينا سابقًا سخروا قيم العقيدة الموضوعة بالدرجة الأولى لكي يسيطروا على فكر وحياة تلك الشعوب ... ومع ذلك فكانوا بين الحين والآخر يقومون بعمليات قمع لكي يظهروا للجموع المحكومة كيف تستطيع القوة أن تبطش في الوقت الذي يختارونه وبالوسيلة التي يفضلون نهجها . وبمرور السنين استطاع الحكام والكهنة توجيه حياة المجتمعات الوجهة التي يختارونها لتحقيق منافعهم وفرض نفوذهم الشخصي ... فساد الولاء من الأفراد كافة لحكامهم الذين يتخفون في صورة المدافعين عن العقائد الوضعية ، وذلك حباً في تلك العقائد وطاعة للآلهة واحتراماً لما احترمه وقدسه آباؤهم الأولون من قبلهم .

ولكن الإنسان دائماً يستخدم المتاح أمامه لتحقيق أهدافه ومطالبه ... وما كان مجهولاً بالأمس قد كشف عنه الحجاب اليوم ... وما كان لايستخدم البارحة ، أصبح

---

(1) المرجع السابق .

يستخدم على نطاق واسع في عصرنا هذا .

ولما كانت الحضارة الحديثة التي نحياها اليوم ، لم تخرج للإنسان المفيد فقط من النظريات والممارسات ، بل أخرجت كذلك الضار والغث والقبيح ، فلقد استخدم الإنسان الحديث كل ما أفرزته حضارته العلمية بغثه وسمينه من أجل تحقيق أهدافه .

إن أهداف الإنسان الحالي دائما ما ترتبط بأيديولوجيته التي آمن بها ويدافع عنها ... وهو في سبيل احتفاظه بها يستخدم كل ما هو متاح له ... من ترسانة الأسلحة دون اعتبار لقيم سامية أو موانع أخلاقية إذا ما كان مضطراً إلى ذلك في أي وقت وأية ظروف .

ويبدو أن أيديولوجيات العصر الحديث ماهي إلا أديان وضعية أخرى ، ولكنها ذات نزعات سياسية وقومية ... وهي لذلك تجد من المدافعين عنها حجة لحمايتها ورعايتها وتقويتها وانتشارها ... وبهذه الحجة يقوم حارسو العقائد السياسية الحديثة باستخدام كل الطرق التي كان يستخدمها الكهنة والبابوات والراهبات في العصور القديمة والوسطى من حياة البشر . بل إنهم يضيفون إليها ويزيدون عليها ، ولم لا والعلم بكل قوته وسطوته وفنونه يقف خلفهم ... ووسائل الإعلام ـــ التي لم يكن لها وجود قديماً ـــ تساندهم وتنشر فكرهم ... وجيوش جرارة مسلحة من المنفذين لأية أوامر أو وصايا جاهزة للبطش والقمع والإهلاك إذا ما دعت أي ضرورة لذلك .

ويبدو أن التاريخ البشري سوف يستمر يعايش بين الحين والآخر عمليات مقصودة للتأثير على الفكر والعقل والثقافة الإنسانية ... فما إن ينته عصر شهد مآسي وآلاما بشرية وأمل الناس بعده في عصر يسود فيه الوئام والحب والتفهم حتى يظهر عصر جديد مملوء بأساليب مستجدة قاهرة للبطش الجماعي أو الفردي حتى يتأكد أي ملاحظ لتاريخ البشر أنه لا أمل ولاجدوى من أية جهود خيرة لوقف القسوة بين البشر ووضع نهاية دائمة لآلام المعذبين .

ولكننا ، ولأننا بشر ، وطالما نعيش ، فإنه جدير بنا ، حتى في وسط أبشع العصور وأحلك الظلمات أن نستمر في المحاولات الجادة المستمرة التي تسعى لإفهام الناس

بأن اليوم أفضل من الأمس وأن الغد سيكون أفضل من اليوم ... إذ إن تسليمنا باليأس يعني نهاية المجد والكرامة والشرف العقلي الإنساني الذي أمده الله لنا ... ولذلك يجب علينا أن نستمر وأن نحيا على أمل التغيير إلى الأفضل ولاشك أن ذلك يتطلب جهوداً جبارة وتضحيات عظاما .

* * *

لقد اعتمد منفذو عمليات غسيل المخ في العصر الحديث على مجموعة كبيرة من الفنيات العلمية التي طورها العلم الحديث ووضعها في الصيغة والأسلوب المناسبين لكي تستخدم بأيسر الجهود ... وفيما يلي عرض تفصيلي لأهم الطرق التي يعتمد عليها غسيل المخ .

أولا : نظرية التعلم بالترابط :

لم يكن (إيفان بافلوف Ivan Pavlov) إلا باحثا في علم وظائف الأعضاء ، ولكنه في أواخر أيامه نال رضا واحترام (فلاديمير لينين) قائد الثورة الروسية عام 1917 .

ومن المؤكد أن هذا الرضا من الزعيم الثوري قد يكون لأن بافلوف قام بتجارب لاحصر لها على الجهاز العصبي للكلب ودراسة سلوكياته ، وطورها بعد الثورة الروسية لكي يمكن تطبيقها على الإنسان .

فقد قام (بافلوف) في بداية تجاربه بتقييد أحد الكلاب الخاصة بالتجارب فوق منضدة ، ووضع أنبوبا مطاطيا بداخل فم الكلب ... ثم قام بإضاءة مصباح ضوئي (فلاش) أعقبه مباشرة تقديم طعام شهي للكلب المقيد فوق المنضدة ، فتحرك الكلب الجائع إلى الأمام بجسمه تجاه الطعام ولكن القيود منعته وعندئذ أخذ لعابه يتجمع في الأنبوب المطاطي ويتساقط .

لم يعط الكلب بطبيعة الحال في البداية أي اهتمام منه لضوء المصباح ... ولكن بتكرار التجربة تعلم الكلب أن ظهور نور المصباح يتبعه دائماً تقديم الطعام ، ولهذا فقد تعلم الكلب هنا أن المصباح قد أصبح رمزاً للطعام بدليل أن (بافلوف) عندما كان يضيء المصباح للكلب ولا يقدم له طعاماً ، فإن لعاب الكلب كان يسيل من الأنبوب .

وكرر (بافلوف) تجربة المصباح ثم الطعام عدة مرات متتالية ، لدرجة أنه كان في كل مرة يضيء المصباح كان الكلب يفرز اللعاب ... وتكرار التجربة هذا يعني أن الكلب قد تعلم أن هناك علاقة قوية بين وميض المصباح وبين الطعام . وإذا ما كان أي كلب من الكلاب يسيل لعابه خارج غرف التجارب عند مشاهدته للطعام فإن سيل اللعاب هنا يسمى منعكساً فطرياً (أي مرتبطا بالفطرة والغريزة) Innate ... أما عندما يسيل لعاب كلب (بافلوف) التجريبى من رؤيته لنور المصباح الذي تعلم أن الطعام يقدم له بعده مباشرة ، فإن ضوء المصباح هنا الذي يُسيل لعاب الكلب يعتبر استجابة مكتسبة أو شرطية Conditioned .

هذه كانت واحدة من أهم تجارب بافلوف ... التي قام بها لكي يدرس سلوك الحيوان واستجاباته في المواقف المختلفة .

ويبدو أن أعداء الثورة الروسية من النظام القيصري كانوا بلا شك هم ضحايا تجارب (بافلوف) ... إذ إن الثورة قامت بتطبيق نظريات بافلوف الخاصة بسلوك الكلاب التجريبية على الإنسان !!

وتتلخص عمليات التطبيق تلك ، ليس بطبيعة الحال على سلوك الإنسان تجاه الطعام ، ولكن على سلوك الإنسان السياسي ... فكيف ذلك ؟

إذا ما كان كلب بافلوف التجريبي قد تعلم بواسطة التكرار أنه سوف يقدم له الطعام الشهي بعد كل إضاءة للمصباح الضوئي ... فإننا نقول هنا إن الكلب قد تعلم أن يسلك سلوكاً معيناً مخالفا لسلوكه الفطري . فهو إذا ما شاهد نور مصباح ضوئي مفاجئ ومشابه للذي رآه في غرفة تجارب بافلوف ، فإن ذلك سوف يجعله

يفرز اللعاب لأنه تعلم أن ضوء المصباح يعني الطعام .

ولذلك فإذا افترض أن هناك إنساناً ما تعلم عدة أفكار سلبية عن الشيوعية ، فإنه يمكن بإجراء تجارب تعليمية له أن يتحول لكي يغير أفكاره القديمة ويتعلم أفكاراً جديدة تجعله محباً للشيوعية .

إن كلاب بافلوف تعلمت في تجارب أخرى عديدة كيف وأين تنام كلما سمعت جرساً ... فهي إذن غيرت من عاداتها القديمة بعد أن اكتسبت وتعلمت عادات جديدة .

ولهذا فالإنسان ــ وفقاً لتعاليم بافلوف وتلامذته ــ يمكن أن يتعلم كيف يصبح مواطناً نافعاً « للنظام الشيوعي » في بلده ، إذا ما خضع لسلسلة من الخبرات التعليمية والتثقيفية الجديدة التي تنسيه ما كان قد تعود عليه في الماضي ... وبتكرار التعليم يصبح الإنسان مهيئاً من تلقاء نفسه أن يسلك المسلك الذي يتفق مع العقيدة الشيوعية .

وإذا ما كان الكلب في التجارب يتعلم عن طريق مثير يجذب انتباهه مثل المصباح الكهربائي أو رنين الجرس ... فإن الإنسان يمكن أن يحدث له نفس الشيء إذا ما تعرض لمثير أو مؤثر ينبهه إلى خطإ سلوكه المنبوذ ... فإذا ما كان إنسان يعترف بكرهه ونفوره من الشيوعية ، فإنه إذا ما تعرض في كل مرة يظهر كرهه هذا إلى صدمة كهربائية وبذلك فإنه يتألم ، فإنه سيعرف ويتعلم أنه ليس مصرحاً أو مسموحاً له بنقد العقيدة الشيوعية ... وبتكرار التجربة عدة مرات يصبح كرهه سلوكاً قديماً ويحقن عقله بفكر شيوعي مرغوب تعلمه من قبل السلطات هناك .

لقد آمن بافلوف بصورة أو بأخرى بأن هناك تماثلاً في الجهاز العصبي للكلب والجهاز العصبي للإنسان ... وأن سلوك الإنسان بالتالي ما هو إلا سلوك قائم على التعلم ... وأن الطفل الصغير الذي يولد في التو يكون مهيئاً لأي أنواع من التعليم يوجهه إليها أفراد أسرته أو مدرسته أو المجتمع الذي يعيش فيه ... وبالتالي فإذا كان كل ما يتعلمه الإنسان يعتبر شيئاً مكتسباً فإن هذا الشيء المكتسب يمكن أن

يتغير بسلوك آخر مقبول إذا ما رغبنا في ذلك . ألسنا نحب شيئاً أو شخصاً لبعض الوقت ثم نمر بتجربة ما تجعلنا نكره هذا الشيء أو هذا الإنسان ؟ ألسنا نغير من أفكارنا ومعلوماتنا التي تعلمناها في الصغر بحصولنا على تجارب ومعارف جديدة ؟ إذن الفكر الإنساني قابل لأن يحدث له أي نوع من التغيير المرغوب إذا ما توافرت النية لذلك واستكملت الإمكانيات لتحقيق ذلك .

وكما سبق القول فإن بافلوف نفسه كان باحثاً في علم وظائف الأعضاء ، بالرغم من أن نتائج أبحاثه أسست فيما بعد واحدة من أكبر مدارس علم النفس الحديث التي تستخدم نظرياته في تشخيص وعلاج العديد من العلل النفسية والسلوكية ... وكذلك في الميدان التربوي .

وبالرغم من أن نظرياته قد ساعدت — ربما بعد موته — على إعطاء الشيوعيين الأول في روسيا وسيلة قوية لتعليم ونشر الفكر الشيوعي في روسيا ما بعد الثورة ، إلا أن بافلوف قد نال جائزة نوبل عام 1904 — أي قبل الثورة الروسية — في الطب وعلم وظائف الأعضاء[1] . بالإضافة إلى أن نظرياته وأبحاثه الضخمة قد وجدت البيئة العلمية المشجعة في كل من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وحتى يومنا هذا .

وقد وصف البروفسور إيزنك Eysenck وهو واحد من كبار مطوري نظريات بافلوف في بريطانيا في أحد كتبه الهامة ، وصف بافلوف بأنه : « ربما يكون أعظم عالم نفساني في تاريخ علم النفس الحديث »[2] .

« وفي مصر فقد كان معاون ونائب بافلوف ، البروفسور (أنرب Anrep) يشغل كرسي الفيزوبولوجيا بكلية طب القاهرة فترة طويلة وهو الذي كان قد قام

---

(1) The World Almanac & Book of Facts - 1984 Newspaper Enterprise Association, INC - New York - Printed In U.S.A .

(2) Sense And Nonsense In Psychology - By H.J. Eysenck - Penguin Books - 1962 - Printed In Great Britain .

سنة 1927 بنشر ترجمة إنجليزية كاملة لمؤلف بافلوف الضخم »[1] .

ومن الناحية التاريخية ، فإن تجارب بافلوف لم تكن هي التي أظهرت كيف يتعلم الكلب (أو الإنسان) ، وكيف يتم تغيير سلوكه وإكسابه سلوكاً جديداً مفضلاً إذا ما أردنا له ذلك ... يعلق البروفسور إيزنك عالم النفس البريطاني الشهير على ذلك بالقول : « إن بعض الحقائق عن السلوك المكتسب أو الشرطي ، كانت موجودة بدون شك قبل ظهور بافلوف وتجاربه ... ويمكننا لإثبات ذلك الاستعانة بجزء من مسرحية الكاتب المسرحي الأسباني (لوب دي فيجا Lope De Vega) والتي كان قد كتبها حوالي عام 1615 تحت اسم (شعر العذارء El Capellan da la Virgen) وفيها تقول إحدى شخصيات المسرحية : إن القديس سان إلديفونسو Saint Ildefonso كان يعاقبني ويضربني مرات عديدة ... فقد كان مثلاً يجعلني أجلس فوق الأرض لكي أتناول طعامي أمام قطط الدير حيث كانت هذه القطط تصيبني بالكمد والغيظ لاختطافها أشهى ما آكله ... ولم تكن إشارتي لها بالابتعاد كافية لكي تكف ... ولكنني بالرغم من ذلك وجدت طريقة مناسبة لإبعاد القطط عن طعامي ليتسنى لي التمتع به . لقد أخذت القطط كلها ووضعتها في حقيبة واخترت ليلة حالكة الظلام وقمت بإخراج القطط في حجرة صغيرة ، ثم إنني كنت أكح بصوت عال تسمعه القطط وأعقب ذلك بالضرب المبرح فوق جميع القطط التي تألمت من ذلك غاية الألم . وكنت أتوقف عن ضربها لبعض الوقت ثم أقوم بالكح ثم أوالي ضربها ... ولقد لاحظت فيما بعد أن القطط كانت تكشر عن أنيابها في كل مرة أقوم بالكح أمامها ... ولهذا فعندما كنت أتناول طعامي فوق الأرض في أوقات العقاب كنت أراقب ببصري أية قطة تقترب مني ، وكان مجرد سماعها كحتي كفيلا بأن يجعلها تفر هاربة »[2] .

---

(1) A Short Encylopaedia of Bsychology And Psychiatry - By Dr. William El - Kholy - First Edition - 1976 - Dar Al - Maaref - Egypt .

(2) Sense And Nonsense In Psychology - (مرجع سابق)

هذه القصة جاءت في كتاب البروفسور إيزنك نقلاً عن كاتب مسرحي أسباني عاش في بداية القرن السابع عشر ... وهي تظهر كيف أن خادم الدير هذا استطاع تعليم القطط الجائعة الابتعاد عن طعامه لمجرد أنه حذرها باستخدامه الكحة ثم أعقب ذلك بضرب القطط ... لدرجة أن القطط تعلمت أن الكحة هي علامة وإنذار على الضرب ... فكلما سمعت القطط صوت الكحة عرفت أن هناك عقاباً سيتلو ذلك ... وهذه الحيلة التي استخدمها الخادم لاشك تبين قدرة الإنسان على استخدام العقل في سبيل محو سلوك سلبي أو إلغائه في كائن آخر .

ولهذا فإذا ما كان البشر قد عرفوا ما كان بافلوف يتوصل إليه ، فكيف يولي العلماء أهمية كبرى لنظريات وأبحاث بافلوف ؟

يجيب على هذا السؤال كذلك عالم النفس البريطاني إيزنك فيقول : « إن معرفتنا بتعاليم بافلوف قبل أن يقوم هو بها معملياً تماثل معرفتنا الفيزيقية عن أن كل شيء يعلق في الهواء ويترك فإنه يسقط ... ولكن الذي توصل إلى قانون الجاذبية هذا وهو نيوتن Newton قد أوضح لنا كيف نقيس هذه الجاذبية . وعلى ذلك فإن بافلوف قدم لنا كيف نقيس بالدقة العلمية كيفية تكون العادات ... إذن فالعلم يصف لنا ويفسر لنا كيف يحدث هذا الأمر »[1] .

ثانياً : التنويم المغناطيسي :

« يعتبر التنويم المغناطيسي وسيلة قديمة للعلاج الطبي . وقد استخدم بواسطة رجال الدين في اليونان القديمة للوصول إلى ما يمكن أن يسمى نوم المعبد Temple Sleep) . وفي القرن السابع عشر دُرس التنويم المغناطيسي بواسطة (كيرتشر Kircher) ، ولكن في القرن الثامن عشر طبق استخدام التنويم المغناطيسي بواسطة

(1) (مرجع سابق) Sense And Nonsense In Psycholohy - By : H.J. Eysenck .

(مسمر Mesmer) ، ومنه أخذ التنويم المغناطيسي اسم المسمرية Mesmerism . وفي القرن التاسع عشر قام كل من (شاركو Charcot) و(فرويد Freud) بأبحاث مستفيضة عن التنويم المغناطيسي وجد فيها فرويد معبراً لوضع أبحاثه في التحليل النفسي »[1] .

أما عن كيف يحدث التنويم المغناطيسي فيخبرنا إيزنك Eysenck : « أن هناك العديد من الطرق لإحداث التنويم المغناطيسي ... فكل منوم مغناطيسي مدرب يستطيع استخدام طرق تختلف بعض الشيء عن المنوم الآخر . وربما تكون أشهر الطرق لذلك هي التي يقوم فيها المنوم بطلب مساعدة المريض عن طريق إفهامه بقدرة التنويم المغناطيسي وفوائده ، وعلى ضرورة أن يفهم المريض أن التنويم قادر على علاج المرض العصبي إذا ما قام المريض بتذكر أحداث معينة وهو في حالة التنويم ... كذلك يقوم المنوم بطمأنة المريض على عدم وجود أية مخاطر قد تنجم عن الدخول في التنويم ، ويخبره كذلك أنه ليس من الضعف أن يمر المريض بتجربة التنويم ، بل أن ذلك يدل على ذكاء وقدرة المريض على التركيز . بعد ذلك يطلب المنوم من المريض الاستلقاء فوق كنبة أو أن يجلس فوق كرسي مريح . ويراعى أن تكون أية مثيرات خارجية غير مسموعة أو مؤثرة على المريض حتى لاتشتت تركيزه ، كذلك تسدل الستائر فوق النوافذ ثم يخبر المنوم المريض بأن يركز بصره على مصباح ضوئي منير وفوق مستوى بصره وبهذا يجبر المريض على أن ينظر إلى أعلى بصفة مستمرة . وهذه العملية تؤدي بسرعة إلى تعب في عضلات العينين الذي يعقبه سهولة تَقَبُّل الإيحاءات التي يكررها المنوم بأن المريض يشعر بالتعب وأن عينيه أخذتا تقفلان ، وهنا يأخذ المنوم في إلقاء إيحاءات مستمرة بصوت هامس للمريض بأنه يشعر بالدوخة والتعب وأن عينيه تنغلقان وأنه يدخل في نوم عميق وأنه لايستطيع أن يسمع أي صوت إلا صوت المنوم .. وهكذا .

ويلاحظ أنه في المرضى أو الأفراد الذين يتصفون بالشك ، فإن تكرار هذه

---

(1) The Family Medical Encyclopedia - Justus . J. Schifferes, Phd. Published By Pocket Books - New York. 33 rd Printing - 1974 - Printed In U.S.A .

العبارات عدة مرات تجعلهم يصلون إلى مرحلة خفيفة من السبات (القريب من النوم) ولهذا فإن المنوم يبدأ في تعميق درجة التنويم ولكي يختبر ردود فعل المريض فإنه يقوم بإعطائه إيحاءات معينة تزداد صعوبة تنفيذها تدريجياً مثل أن يطلب من المريض أن يضم يديه معاً وأن يخبره أنه من المستحيل عليه أن يفصلهما عن بعضهما مرة أخرى وهنا يحاول المريض بقدر جهده ولكن لدهشته فإنه لايستطيع فصل يديه عن بعضهما . إن مثل هذه الإيحاءات الناجحة تستخدم عادة لتعميق التنويم إلى درجة أنه في حالة الأشخاص النموذجيين فإن كل الظواهر التي سيأتي ذكرها الآن تحدث على أكمل صورة .

بعد أن نكون قد وضعنا المريض ــ أو أي شخص آخر ــ في حالة تنويم عميقة فما المظاهر التي نلاحظها على المريض ؟ إن أول وأهم مظهر هو قابلية المريض الشديدة لتقبل الإيحاء . إنه سيكون مستعداً لتنفيذ أي أمر يلقيه عليه المنوم مستغلاً كامل قدراته . يمكنك أن تخبره بأنه كلب وسترى أنه سوف يقوم ويسير على يديه وركبتيه مثل الكلب ... أخبره بأنه هتلر وستجده يحرك يده كما كان يفعل هتلر ويتكلم كما كان يتكلم الفوهرر . إن هذه القابلية الهائلة لتقبل الإيحاء أثناء التنويم تستغل أحياناً استغلالاً سيئاً لكي يقوم الناس بسلوكيات غير فاضلة . ومثل هذه الممارسات يجب ألا يتم تشجيعها لأنها تسير على النقيض من الكرامة الإنسانية وهي ليست الممارسات التي من أجلها يجب أن يمارس التنويم المغناطيسي . أما الظاهرة الثانية التي نشاهدها في المنومين مغناطيسياً فهي أن الشخص أثناء التنويم سوف يرى ويسمع ويحس بوجود أشياء ليست موجودة في الواقع ... قل للمريض بأن خطيبته قد حضرت وأنها تجلس فوق المقعد المجاور له وسوف نجده يقوم بتحيتها ويذهب إليها ويقبلها ويتصرف عموماً كما لو أنها حاضرة بالفعل . قل له إن أسداً قد دخل فجأة من النافذة وسوف تجد أنه يظهر كل مشاعر الخوف والذعر وربما يخرج مسرعاً هارباً من الغرفة . وعلى النقيض من هذه الظاهرة التي تسمى بالهلوسة الإيجابية Positive Hallucinations هناك ظاهرة أخرى تسمى بالهلوسات السلبية Negative ، وفيها يفشل المريض في أن يرى أو يشعر أو يسمع ظواهر أو أشخاصا موجودة بالفعل حوله .

قل للمريض بأنه والمنوم هما الشخصان الموجودان فقط بداخل الغرفة وسوف نجده لايلقي انتباهاً إلى أي أشخاص موجودين حوله بالفعل ، ويتصرف وفق هذا الوضع . قل له إنه لا يستطيع أن يحس أو يشعر بأي لمس لجلده ، أو إنه لايستطيع سماع صوت معين وستجد أنه بالفعل يتصرف كما لو أن ذلك صحيح[1] .

ولما كان الفرد تحت التنويم المغناطيسي مهيئا لتلقي أية إيحاءات أو أوامر أو نواه أو تجارب فإن القائمين بعمليات غسيل المخ قد استخدموا هذا الفن وطوروه إلى صورة متقدمة من الممارسات التي تمكنهم من تحقيق أغراضهم .. فإذا ما كان هناك سجين وقع في الأسر في قبضة الشيوعيين (مثلاً) وقاموا في البداية بمعرفة نواحي قوته ونواحي ضعفه وعلموا أن أفكاره عن الشيوعية إنما تتركز في بعض النقاط فإنهم باستخدامهم التنويم المغناطيسي العميق يمكنهم أن يجعلوه ينسى أفكاره تلك عن الشيوعية تدريجياً وتلقينه أفكاراً يرغبون في زرعها في عقله ... وبتكرار ذلك عدة مرات فإن هذا الأسير حتى في لحظات سجنه الانفرادي بينه وبين نفسه سيشعر أن نوعا من البلبلة العقلية أخذ يظهر في عقله وأن صراعاً بين أفكاره القديمة والحديثة قد أخذ يحدث ... وهو ربما لن يعلم من أين حدث التحول أو كيف بدأ في عقله ... لأن الذين قاموا بوضعه في التنويم المغناطيسي قد رددوا عليه (وجعلوه يردد) أن أفكاره القديمة عن الشيوعية ما هي إلا هراء باطل وأن الأفكار التي يلقنونها له الآن هي الصحيحة وهي التي يجب أن تتبع ... ثم إنهم يخبرونه ــ وهو تحت التنويم ــ أنه سوف ينسى أنه كان تحت التنويم المغناطيسي ولكن عليه فور إيقاظه أن يفهم أنه يحب الشيوعية ويتعاطف مع معتنقيها . وما إن يفق هذا الأسير من حالة سباته التنويمي إلا وينسى أنه كان منوماً ولكنه يجد بالفعل أن أفكاره تتصارع وتتبدل .

---

(1) مرجع سابق . Sense And Nonsense In Psychology - By H.J. Eysenck

سيجد القارئ في كتاب إيزنك معلومات بالغة الإثارة والأهمية عن التنويم المغناطيسي التي ربما لن يجدها في كتب كثيرة في علم النفس حتى كتب علم النفس الباثولوجي ذاتها .

ولكي يختبر القائمون بغسيل المخ مدى ولاء الأسير فإنهم يطلبون منه بعض الأمور التي توضح لهم أنه قد أخذ يتحول إلى التعاطف معهم ... كأن يقول لهم ماذا يجب أن يفعله كل شيوعي تجاه بلده أو تجاه أسرى الحرب المعادين للشيوعية ... أو يجعلونه يلقي محاضرة في صالح الفكر الشيوعي على أسرى وقعوا في الأسر حديثاً ... وهم يراقبونه عن كثب في كل كلمة يتفوه بها ويختبرون مدى صدق انفعاله في المواقف المختلفة .

كذلك يستخدم التنويم المغناطيسي العميق لمحاولة معرفة أسرار الخصم سواء السياسية أو الاقتصادية أو التي لها طابع أمني ... فالأسير يخفي في اليقظة كل أسرار بلده ولكنه تحت التنويم المغناطيسي غالباً مايكون فاقداً للسيطرة الشعورية التي تمنعه من الإقرار والاعتراف والاسترسال في ذكر وشرح الأسرار ... ومع ذلك فإن التنويم المغناطيسي يبدو أنه لايحقق النجاح الكامل في كل الحالات ... يقول إيزنك : « إن هناك قصة حقيقية حدثت مع عالم الأعصاب الفرنسي شاركو ... إذ كان ذات يوم يلقي محاضرة عن التنويم المغناطيسي كان يحضرها فرويد ــ مؤسس التحليل النفسي فيما بعد ــ وبينما هو يشرح أمام الحاضرين كيفية ممارسة التنويم المغناطيسي على فتاة فرنسية تبلغ الثامنة عشرة من عمرها إذا هو يُستدعى خارج القاعة لأمر هام . كانت الفتاة منومة مغناطيسياً لدرجة عميقة ، وجاء شاب يفتقر إلى الحنكة والدراية والجدية وهي صفات كان يجب أن تكون موجودة في طالب يدرس الطب مثله ... وأخبر الفتاة المنومة بأنه يتوجب عليها أن تقوم بخلع ملابسها ... وما إن ذكر ذلك أمامها حتى قامت الفتاة في الحال وقد استيقظت من تنويمها وصفعت هذا الشاب صفعة على وجهه ثم أسرعت خارجة من الغرفة .

ويعلق إيزنك على هذه القصة بالقول إن رفض الإيحاءات من بعض الأفراد وهم تحت تأثير التنويم ، ربما يعود إلى تضارب هذه الإيحاءات والأمور مع القيم الأخلاقية التي يؤمن بها الفرد بقوة .

وإذا ما كان بعض الأسرى يرفضون وهم تحت تأثير التنويم المغناطيسي الاعتراف بأسرار أوطانهم ، فإن وسائل أخرى تستخدم بجانب التنويم المغناطيسي يمكنها فيما يبدو جعل من ليسوا ذوي بأس شديد يعترفون . وإذا ما كان بعض الأفراد وهم تحت تأثير التنويم المغناطيسي يرفضون أوامر أو إيحاءات المنوم ، فإن ذلك ربما يعود إما إلى قوة عقائدهم وإما إلى ضعف درجة التنويم ذاتها التي لايستطيع منوموهم توصيلهم إليها ... وعلى كل الأحوال فإن وسائل أخرى فيما يبدو قد استخدمت على مر العصور وخاصة في العصر الحديث لإجبار المرتدين أو السحرة أو الأسرى أو المسجونين أو الأعداء على أن يقروا ويعترفوا بما يخفونه من عقولهم .

ثالثاً : العقاب البدني :

إن العقاب البدني ما هو إلا إيذاء الجسم البشري عن طريق استخدام أدوات أو وسائل معينة تظهر الألم بأي درجة من الدرجات .

وقد استخدمت آلات لاحصر لها لتنفيذ ذلك على مر العصور . وفي جميع المجتمعات البشرية أدوات لإيذاء أجسام الضحايا أو المذنبين . فقد استخدم المصريون القدماء أدوات خاصة لجدع الأنف ... واستخدم الهنود النار ... واستخدم الأوربيون السوط والتعليق من الأطراف ثم استخدم الأمريكيون الأول سلخ فروة رأس الهنود الحمر ، وقطع أطراف الزنوج الذين عوملوا كعبيد حتى القرن التاسع عشر .

وفي الحقيقة فإنه لايسعنا ذكر كل ما استخدم من أدوات لعدم إمكانية ذلك عملياً ولكن من المهم ذكر أن استخدام أي وسيلة للتعذيب البدني كان وراءها دافع قوي للسيطرة من منفذيها على الضحايا ، وذلك للعقاب أو لاستخلاص الاعتراف أو لطرد الأرواح الشريرة من أجساد المذنبين أو للسيطرة على سلوك المساجين أو الأسرى أو لضرب أمثلة لبقية الأفراد والجماعات في المجتمع حتى يتحولوا عن المطالبة بحقوقهم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية .

وكلما قويت النزعة السادية والدافع في عقول من ينفذون العقاب ، اشتدت

وقويت وتعددت وسائله وكثر ضحاياه ... ولكن مايهمنا في ذلك كله هو كيفية استخدام العقاب البدني على من يقع فريسة لغسيل المخ لتغيير فكره وتوجيه عقله الوجهة المطلوبة .

فما إن يتم الإمساك بالأسير أو المذنب إلا ويتم وضعه في غرفة موحشة مظلمة ليس بها أثاث أو مفروشات تعيش فيها الحشرات من كل نوع وتمضي الساعات تلو الساعات ولاطعام يقدم إليه ولا ماء ... فقد قصد السجانون تجويعه لغرض في أنفسهم وهو إنقاص وزنه وإضعاف بنيته لتهيئته فيما بعد للمراحل المتقدمة لغسيل مخه ومحو أفكاره القديمة وغرس أفكار أخرى يريدون منه الإيمان بها والعمل على نشرها . والمعروف أن الجسم البشري في حاجة إلى الإمداد بالعناصر الغذائية على فترات محددة حتى يحتفظ بتوازنه وقوته وحتى تستطيع أعضاؤه القيام بوظائفها الحيوية ... ولكن الذين يجرون عمليات غسيل المخ يريدون ضحيتهم ضعيفة أمامهم حتى يسهل لهم السيطرة عليها وفق ما يرغبون لها . إن المخ البشري فى حاجة إلى الطاقة التي يمنحه إياها الغذاء (وخاصة الجلوكوز) وهو عندما لايحصل على احتياجاته تبدأ وظائفه في الانهيار فتتشتت أفكاره وتقل قدرته على التركيز وتغشو العقل غمامة من عدم الإدراك لما يحدث ... فلا هو يستطيع أن يفكر أو يحلل أو يتذكر أو يدرس ما حوله كما كان يقدر على ذلك من قبل وقوعه في الأسر أو قبل ارتكابه الجريمة التي اتهم بها ... وباستمرار ذلك تنحدر الصحة إلى أدنى درجاتها ويكون الضحية معرضاً بالتدريج للاقتراب من الهاوية السحيقة للموت ... ولكن المسئولين عن الضحايا سرعان ما يعطون الأسير بعضاً من الوقود لكي يبقى حياً وتستمر تلك العملية أياماً أو ربما أسابيع إلى أن يستدعى الأسير للتحقيق معه وهو يطالب بأن يقف طوال الجلسة التي تمتد ساعات ، وعليه أن يجيب عن الأسئلة بالقدر والطريقة التي تريح المستجوب ... وهو في أثناء ذلك يتعرض للضرب المبرح ممن حوله لإجباره على الاعتراف بما لديه من أسرار أو جرائم (أو ذنوب) ... فإذا ما أبدى مقاومة فإنه يساق إلى غرف مخصصة للتعذيب لكي يتم إقناعه بأن ما من طريق أمامه إلا الاعتراف بما لديه .

ويعرف القائمون بالتعذيب أين نقاط القوة في كل أسير أو سجين يتعاملون معه وهم سرعان ما يركزون جهودهم ووسائل بطشهم فوق نقاط القوة هذه حتى يحطموها تحطيماً ويصبح الأسير تحت هيمنتهم تلك مباحاً لكل أنواع الإيلام والفتك .

رابعاً : العقاب النفسي :

والعقاب النفسي دائماً ما يستخدم جنباً إلى جنب مع العقاب البدني ... وكلاهما يبدو أنه يشدد من أثر الآخر ويقوي مفعوله وفتكه بالضحية . فالسجين أو الأسير أو المجرم السياسي يقذف به داخل غرفته الموحشة دون أن يعرف ما هو السبب فى اعتقاله أو دون أن يتهم بأية جريمة ... كذلك فهو لايعرف ما الذي سيحدث له في الأسر ... ولهذا فيبدأ عقله يتشوش وينتابه الخوف والقلق ... وهو لأيترك هكذا ليفكر كيف يمكنه الصمود ومقاومة الهواجس التي تلاحق عقله ولكنه يمنع من أي اتصال بالبيئة الخارجية فليس لأحد من معارفه أو أقربائه أن يزوره أو يخاطبه ولايسمح له بقراءة أي صحف تعود أن يقرأها أو يستمع لإذاعة تعود سماع برامجها ... بل إنه يعزل كلية عن البيئة الاجتماعية ويصبح كل ما حوله ليل نهار هو الأرجاء الأربعة لحجرته الموحشة . وبانقطاعه عن مصادر الأخبار فإن عقله يبدأ في الاضطراب ، وتتلاحق الأفكار السوداوية في رأسه تباعاً حتى تعييه فلا يكون قادراً على التفكير أو ربط الأمور أو الأحداث بعضها ببعض .

ولايسمح الحراس له بأن ينام ... فهو محظور عليه النوم ... لأنه مذنب أو مجرم أو عدو خطير ... وإذا ما انقطع الإنسان عن النوم لمدة يوم أو يومين فإن كل العمليات العقلية الأساسية تبدأ في الانحراف عن مسارها المعتاد ... وبازدياد الامتناع عن النوم يسير عقل الأسير نحو الخلط والهواجس ... والهزات العقلية . ويشبه الإنسان في تلك الحالة بحالة أي إنسان فاقد الحاسة العقلية السليمة ويصبح مستعداً لفعل أي شيء يطلب منه في سبيل إنقاذه مما يمر به من تحطيم لقواه العقلية وملكاته الإنسانية . إن الهدف من العقاب النفسي بأي صورة من صوره سواء بالإهانات أو

بالحرمان من النوم أو بالمنع من الذهاب لدورات المياه أو بقهر الضحية على التذلل في الحصول على الطعام أو الشراب أو النوم ... إن الهدف من كل ذلك هو تحطيم شخصية وذات الضحية من أساسها لكي يمكن فيما بعد إشعارها (بالذنب) الذي ارتكبته وطلب الصفح والغفران وإبداء الاستعداد لإصلاح الخطإ واكتساب شخصية جديدة مخالفة للأولى . إن الشخصية الإنسانية هي مجموعة الأفكار والقيم والسلوكيات والآراء التي اكتسبها الإنسان بخبرته وعلمه في الموطن الذي ولد وتربى فيه ، ولهذا فإنها تحمل الطابع القومي والعقيدة السياسية التي تطبق وتمارس في ذلك الوطن ... والوطنية تأخذ الكثير من الوقت والجهد والإرشاد في سبيل تنميتها بأصالة في النفس والعقل والوجدان ... ولهذا فلكي يتحطم ذلك كله فإن الأسير يتعرض لعمليات متواصلة من الإيذاء المعنوي والنفسي حتى يصبح غير قادر على الاستمرار ... فهو سجين مأسور وأصبح بدنياً وعقليا تحت بطش ونفوذ أعدائه الذين لايكفون عن ممارسة كل الوسائل التي يرونها مناسبة لتحطيم أركان شخصيته وكرامته وعواطفه الركن تلو الآخر ... وهو وسط هذا التحطيم المستمر قد لايجد عوناً ولا مساعدة من الذين دفعوه للقتال ... إن هذا اليأس الذي يصله المسجون يدفعه إذا ما استمرت وسائل العقاب العقلي وإذا لم تسعفه النجده من وطنه إلى الاستسلام طلباً للراحة وخلاصاً من موقف لم يستطع معه صبراً . ولكن غسيل المخ من الناحية السيكلوجية لايسعى فقط إلى اجتلاء الخفايا والأسرار من الضحية بقدر ما يسعى إلى تبديل الفكر والعقيدة الراسخة في العقل وغرس أخرى محلها ... ولذلك فإن أساليب العقاب النفسي تستمر مع الأساليب الأخرى حتى يحدث من الضحية الاستعداد العقلي للتخلص من فكرها القديم واستعدادها لتبني فكر وعقيدة ودور آخر .

خامسا : الإشعار بالذنب :

إن الذنب Guilt يحدث في سني الطفولة نتيجة لوم الكبار للطفل على ما ارتكبه ويرتكبه من خطإ ... وبتكرار تعريض الطفل للوم من الكبار يتكون عنده ما نسميه الحاسة الأخلاقية التي تتراوح ما بين التشديد على الذات إلى الفوضى في

المسلك والممارسات . إن الطفل إذن يمتص الأوامر والنواهي والتحذيرات ... كذلك فإنه يمتص المرغوب والمطلوب والمنصوح به ... وهو إزاء التحذيرات يسلك المسلك الذي يرضاه آباؤه أو مدرسوه إما لأنه يخشى عقابهم وإما لأنه يطمع في حبهم .

ومع أن هناك علاقة بين الإحساس بالذنب وبين القلق ، إلا أن المحللين النفسيين يفرقون بين الاثنين على أساس أن « القلق هو الشعور بالخوف من حدوث شيء معين في المستقبل ، بينما الشعور بالذنب له علاقة بشيء حدث في الماضي ... كذلك فإن الحيوانات والأطفال الصغار يشعرون بالقلق بينما لايشعرون بالذنب في حين أن الإنسان البالغ يشعر بكلا الشعورين »[1] .

وبناء على ذلك فإن الإنسان يشعر بالذنب لارتكابه خطأ أو سوء تصرف أو جريمة يعاقب عليها القانون ... وهو لشعوره بالذنب يعترف صراحة بذلك على صورة اعتذار أو إبلاغ السلطات بأنه ارتكب جريمة .

والشعور بالذنب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود ويقظة الضمير ... فطالما وجد الضمير الذي يمثل القوة الأخلاقية في عقل الإنسان والتي تحاسبه على أخطائه فتشعره بالذنب ، وكلما قوي الضمير قوي عقابه ، وكلما زاد العقاب زاد الشعور بالذنب .

ولما كان الشعور بالذنب يظهر الإنسان عندما يرتكب خطأ حتى إذا لم يعاقب من قبل السلطات القانونية ، فإن ذلك يدل على أن قوة الضمير بالتالي يمكن أن تمنع الإنسان من أن يرتكب الأفعال التي اتفق على أنها غير قانونية أو غير أخلاقية أو حتى مضادة للعرف والتقليد السائد في ذلك المجتمع .

ولما كانت المجتمعات تختلف باختلاف عقائدها وتقاليدها ... بل تختلف بتغير

---

(1) A Critical Dictionary of Psychoanalysis - Charles Rycroft - Penguin Books 1979 - Made and Printed In Great Britain .

أنظمة الحكم فيها في كثير من الأحيان فإن ما هو سائد اليوم من أعراف سياسية وأيديولوجية تحفز الإنسان العادي على الاحتراس واليقظة وبالتالي يحاول تغيير منطقه لكي يتقارب بالفهم مع التطورات التي تتفاعل وتستجد في المجتمع الذي يعيش فيه ، وإلا تعرض لعدم التكيف الاجتماعي (إذا كان يعيش في دولة ذات نظام ديمقراطي) أو تعرض للمساءلة أو العقاب أو حتى التعذيب (إذا ما كان يعيش في دولة ديكتاتورية) .

ومع ذلك فيبقى من الناس دائماً من هم لايتغيرون ولايتبدلون ، بل هم يحافظون على مبادئهم وعقيدتهم وأفكارهم التي اقتنعوا على مدى الأيام بصدقها وصوابها ... وأولئك هم من يتصادمون عادة مع أنظمة الحكم الديكتاتورية التي لاتبيح ولا تقبل تعدد الآراء بل تعتقد أن المجتمع يجب أن يكون أفراده على نمط فكري وعقائدي واحد . وإذا ما حدث التصادم ــ وهو حادث لا محالة ــ فإن سلطات القمع لاترحم هؤلاء الأفراد بل تستخدم معهم أساليب القهر التي تجعلهم يغيرون من أفكارهم وعقولهم ... وهي لاتتورع أبداً عن الضغط على سجناء الرأي هؤلاء حتى تشعرهم وتقنعهم أنهم ارتكبوا خطأً في حق (الدولة) أو حق (الشعب) ، وبالتالي فهي تتطلب منهم أن يحسوا ويشعروا بخطئهم وهي تنتظر منهم لذلك اعترافاً بأنهم اخطئوا وبحرصهم على أنهم يودون أن يكونوا مواطنين أخياراً .

إن الضغوط المتتالية التي يستخدم فيها كل أساليب القهر وتحطيم الذات ، توصل الضحية من هؤلاء إلى المستوى الذي يشعر فيه بالفعل أنه قد أذنب ، وأن ضميره السابق قد تبدل ، ووضع محله ضمير جديد يعاقبه على (الخطإ) الذي ارتكبه وبالتالي فهو يعترف بخطئه ، وهو أثناء ذلك يشعر أنه قد أخطأ ، وأن عليه إصلاح ما أخطأ فيه بأن يكون من المؤمنين بالأفكار والعقائد التي يبثها في عقله زبانية المعتقلات .

إن الإشعار بالذنب إذن أسلوب أساسي من أساليب غسيل المخ في العصر الحديث ... ومع أنه تطور أساساً من الفكر القمعي أثناء محاكمات السحرة

والساحرات في أوروبا العصور الوسطى ، إلا أن الأسلوب المتبع اليوم يعد أكثر تقنيناً وأشد فتكاً بالعقول ... وإذا ما استمر السجين مسجوناً في معتقلات أنظمة الحكم الفاشية أو النازية أو الستالينية فترة كافية ، فإنه لامحالة سينهار انهياراً لاعودة عنه ، ولا أمل في تعديله طالما عاش تحت هيمنة الحكم الديكتاتوري .

الفصل الثاني

اشهر من استخدم غسيل المخ في العصر الحديث

- غسيل المخ في امريكا
- غسيل المخ في الاتحاد السوفييتي
- غسيل المخ في الصين

في هذا الفصل الهام سوف نستعرض أهم الشعوب التي مارست غسيل المخ سواء بأسلوبه الفردي أو بأسلوبه الجماعي في العصر الحديث .

والمهم في هذا الفصل أننا سنلاحظ أن ممارسات غسيل المخ كانت واسعة النطاق حيث مورست من مجموعة أفراد لديهم السلطة والنفوذ والأيديولوجية والوسائل ضد مجموعة من الأفراد أو الجماعات الضخمة ، بغية تحطيم نفوذهم وجعلهم يتبعون ما يريده فرد أو مجموعة أفراد يتصفون بالديكتاتورية والتسلط في أبشع صورهما .

ولذلك يمكننا أن نرى في هذا الفصل أن أغلب الممارسات قد مورست في أغلب الأحوال إما ضد أفراد ينتمون إلى مجتمعات أجنبية وإما ضد أفراد أو مجموعات عرقية تنتمي إلى نفس المجتمع ، بمعنى أن المجتمع الواحد به جماعة تمارس غسيل المخ القهري ضد جماعة أخرى تنتمي إلى نفس ذلك المجتمع ... وسوف يتعجب القارئ أكثر عندما يعرف أن بعض هذه المجتمعات قد أصبحت اليوم قوى عظمى اقتصادياً وعلمياً وعسكرياً .

إن العصر الحديث ينظر له عادة على أنه صاحب ما سمي بالاكتشافات الجغرافية المذهلة التي حققها الأوروبيون منذ القرن السادس عشر حيث اكتشف الرحالة الأسبانيون والبرتغاليون ثم الإنجليز والفرنسيون وغيرهم ما أطلق عليه في ذلك الوقت بالعالم الجديد . ويقصد عموماً بالعالم الجديد تلك الأراضي الشاسعة البالغة الثراء الواقعة غرب المحيط الأطلنطي وهي أمريكا الشمالية والجنوبية .

ولهذا فسوف تبدأ دراستنا وفقاً لبداية هذه الاكتشافات ... وما حدث فيها من الإنسان إلى أخيه الإنسان صعوداً إلى ما حدث في القرن العشرين .

ويجب أن نتذكر ونحن نقرأ التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر أن غسيل المخ سواء أكان فردياً أم جماعياً قد مورس بوساطة البشر منذ أقدم العصور ولم يتوقف

على الإطلاق في أي حقبة زمنية عاشها البشر في التاريخ المسجل لهم . وتلك المأساة يجب أن تذكرنا وتنبهنا إلى أن الحضارة الحديثة ليست عاصماً للبشر من أن يرتكبوا مثل هذا العمل الفظيع في الوقت الذي يرونه مناسباً لتحقيق أهدافهم سواء بأساليب مباشرة أو بأساليب غير مباشرة ... بمعنى أننا يجب أن لانغتر بالحضارة الحديثة ونطمئن أنفسنا إلى أن غسيل المخ وتحطيم العقائد كان يمارس في الماضي فقط ... بل إن الحقيقة تذكرنا دائماً أنه حدث ويحدث حتى القرن العشرين وبدون انقطاع ... ولهذا فما الذي يجعلنا واثقين من أنه لن يحدث في المستقبل ؟ !

والواقع ــ كذلك ــ يجعلنا أكثر قلقاً لأن الشعوب التي مارسته في الماضى والحاضر هي شعوب مختلفة ، وهذا يدعم وجود القلق من أن تلك الظاهرة المؤلمة تمارسها كل جنسيات البشر الذين يعيشون في بقاع الأرض كافة . فإذا كان البشر جميعاً مارسوا غسيل المخ ويمارسونه ضد بعضهم بعضا فما الذي يمنع حدوث ذلك في الغد القريب أو البعيد ؟

وهناك بالإضافة إلى ما سبق الدافع وراء ممارسة غسيل المخ والقهر الجماعي للإرادات الحرة ... إن الدافع كان منذ أن بدأت تلك الممارسات في مجتمعات البشر الأولى وحتى وقتنا هذا يتلخص في السيطرة وفرض النفوذ بالقوة وتحطيم أي إرادات تقف عائقاً في سبيل تحقيق ذلك ... ألا يزيدنا هذا خوفاً وهلعاً من أن تعاد ممارسة هذا الأسلوب في الوقت الحالي أو في المستقبل ، وخاصة أن القوميات القوية في عالم اليوم مستعدة أن تفعل أي شيء في سبيل بقائها واستمرار طغيانها ونفوذها ؟

هذا ما يجول في خاطري وأنا أنظر لظاهرة غسيل المخ قديماً وحديثاً ... ومع ذلك فإن الأمل يجب أن لايفارقنا طالما بقينا على قيد الحياة ... فيه نستطيع أن نوجه طاقتنا إلى الخير وإلى البناء وإلى توصيل صوتنا واحتجاجنا إلى العالم كله حتى يعلم ضرورة وقف النزعات العدوانية لدى البشر ومنعها من الانتشار والاتساع . والآن لنرى ماذا فعل أشهر من مارسوا غسيل المخ في التاريخ ضد ضحاياهم .

أولاً : غسيل المخ في أمريكا :

لم تسم الولايات المتحدة الأمريكية باسمها الحديث هذا إلا بعد انتصارها على القوات الإنجليزية في القرن الثامن عشر وإعلان الاستقلال عام 1776 . فقبل هذا التاريخ لم يكن ما نسميه اليوم بالولايات المتحدة إلا ثلاث عشرة مستعمرة ثرية تخضع للإمبراطورية البريطانية تطل جميعها (أي المستعمرات) على المحيط الأطلنطي ... أما في الجنوب الشرقي والمنطقة الشاسعة الواقعة في حوض نهر المسيسبي حتى منطقة (كويبك) في كندا اليوم ، فإن الفرنسيين قد أسسوا مستعمرة فرنسية أخرى تخضع للتاج الفرنسي فى ذلك الوقت . أما الأسبان فقد سيطروا على مجمل الأراضي الواقعة في غرب حوض المسيسبي وجنوبه الشرقي (فلوريدا) .

وهكذا قسمت الدول الأوروبية القوية حينئذ الأراضي التي تتكون منها اليوم الولايات المتحدة الأمريكية .

ومن يعش لفترة كافية اليوم في الولايات المتحدة سيلاحظ الفروق في اللهجات والسلوك والثقافة وفن المعمار وأسماء المدن والشوارع في كل منطقة يذهب إليها ؛ ففي الشمال والشرق (حيث كانت المستعمرات البريطانية) سيجد تشابها مع الحضارة البريطانية ... ومن يذهب إلى مدن الجنوب وحوض نهر المسيسبي سيجد تشابهاً مع الحضارة والثقافة الفرنسية ... ومن يذهب إلى ولاية فلوريدا أو كاليفورنيا أو تكساس أو نيومكسيكو سيجد تشابهاً مع الثقافة والحضارة الأسبانية .

وفي الحقيقة فإن بناء الإمبراطورية الأمريكية التي نعرفها اليوم لم يكن نزهة سهلة ممتعة لمن اكتشفوها وعاشوا على أرضها بعد رحلات كولمبس الاستطلاعية الأربع في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ... بل الواقع — كما ورد في كتب ومعاجم ودوائر معارف التاريخ الأمريكي ذاتها — يشير إلى أن الثمن كان باهظاً للجميع .

لقد عرف الأوروبيون الذين استوطنوا الأراضي الواقعة في الشرق الأمريكي مدى ثراء تلك الأراضي والخيرات التي لم يرها الإنسان من قبل ... وعلموا أن

استثمار تلك الأراضي سيجعل من الفقير غنياً ، ومن التعيس مبتهجاً ومن الجاهل عالماً ... ولكنهم فطنوا في الوقت ذاته إلى أن الجهد لابد منه والتعب لا مفر عنه ... وسرعان ما توصلوا إلى حل سريع لمشكلتهم في استصلاح الأراضي وزراعتها وجني محاصيلها الوفيرة وبالتالي الوصول إلى الثراء السريع ... ألم يكونوا فقراء في بلادهم الأوروبية ... ألم يجدوا الفرصة حينئذ لكي يصبحوا أغنياء ... ثم ألم تقف خلفهم جيوش وأساطيل وبحارة محنكون يجوبون البحار ليل نهار ... إنهم عرفوا من سيقوم بالجهد ومن سيشقى في سبيل ثرائهم ... إنهم الرقيق الأسود الذين يجمعهم التجار من غرب أفريقيا السوداء .

وفي ذلك تقول دائرة معارف التاريخ الأمريكي : « إن الاستكشافات المنظمة لمنطقة غرب أفريقيا كمنطقة يؤخذ منها العبيد قد صاحبت الاستكشافات البحرية لكل من أسبانيا والبرتغال وهولندا وبريطانيا . ففي القرن الخامس عشر وما تلاه وضعت هذه الدول أسس تجارة الرقيق التي جلبت الزنوج المقيدين بالسلاسل إلى جنوب وشمال أمريكا وجزر الكاريبي »[1] .

وإذا كان هذا هو ما حدث بالفعل فإن السكان السود الذين كانوا يقطنون غربي أفريقيا لم يكونوا قبائل همجية كما قد يتصور البعض ... بل إن الواقع يؤكد على أنهم كانوا أصحاب حضارة مزدهرة أخذوها هي والكثير من رموزها وأسسها عن الحضارة الإسلامية ، وكذلك من تراثهم الأفريقي الخاص بهم فقد كتب أحد التجار الإنجليز ويسمى رتيشارد إدن Richard — كتب عن شعب دولة بينين في ذلك الوقت ما يلي : « إن التجار فيهم يتميزون بالنزاهة الفائقة ... فهم لايخسرون أوقية واحدة من الذهب ... وهم مهرة كذلك حيث يستخدمون الأوزان والمقاييس بدقة شديدة ... وأي شخص يعمل معهم بالتجارة يجب أن يكون أميناً فهم لن

Encyclopedia of American History - 1973 - Dushkin Publilshig Group, Inc - Guilford - Connecticut - (1) Printed In the U.S.A .

يستطيعوا أن يعملوا مع الرجال الذين يحاولون أن يخدعوهم »[1] .

ونحن نستطيع القول إنه ما من ازدهار للتجارة في مجتمع من المجتمعات إلا ودل ذلك على وجود الخيرات الوفيرة والرزق الواسع والحضارة النابضة بالفكر المتميز ... ويمكن معرفة ذلك بنوع خاص من المصنوعات الخشبية والعاجية والجلدية التي ملأت المتاحف الدولية في كثير من الدول والتي نهبت إبان عصر الاستعمار الأوروبي لأفريقيا ، وهي كلها تظهر أن غرب أفريقيا كانت منطقة مزدهرة بالحضارة وبالفكر .

ولكن ماذا كان مصير أهل هذه المنطقة ؟

يقول البروفسور (كران برينتون Crane Brinton) أستاذ التاريخ القديم والحديث بجامعة هارفارد وزميلاه في كتابهم المثير « تاريخ الحضارة » :

« إن الأوروبيين في توسعهم في الأراضي الأمريكية قد اكتشفوا تجارة الرقيق التي بدأها البرتغاليون ثم مارسها غيرهم من الأوروبيين وذلك بهدف جني الربح ، وهذه التجارة ما هي إلا سلسلة من الرعب والفظائع منذ أن يتم جمع الزنوج من قرى بلادهم في أفريقيا إلى ترحيلهم بداخل السفن عبر الأطلنطي إلى بيعهم في جزر الهند الغربية ... وما يحز في نفس الإنسان المتمدين الآن أن الأوروبيين كانوا يتقبلون فكرة هذه التجارة كما لو أن الزنوج كانوا تماماً كقطعان المواشي يفعل بها ما يشاء مالكها »[2] .

Inquiring About American History - Studies In History and Political Science - Allan . O . Kownslar - (1) William . R Fielder - Holt - Rinehart and Winston, Publishers - 1976 - Printed In The U. S. A .

A History of Civilization - By Crane Brinton - John . B . Christopher and Robert Lee Wolff - (2) Volume one - Second Edition - 1962 - Englewood Cliffs New Jersy - Prentice Hall - Inc - Printed In The U.S.A .

وربما كانت مشاهدة الأوروبيين للسود وهم يعملون في قراهم في حر الشمس بدون أن يظهر عليهم التعب والإجهاد دافعاً لهم لكي يدبروا لهم هذه المكيدة ... « ففي عام 1517 أرسل أسقف هايتي رسالة إلى أسبانيا يرى فيها أن الزنوج يمكنهم أن يحلوا مشكلة العمالة في العالم الجديد .

ومن هنا بدأت السفن على الفور رحلتها لجلب السود من أفريقيا وترحيلهم إلى العالم الجديد . ولم تكن الرحلة من أفريقيا إلى المستعمرات الأوروبية المكتشفة حديثاً في أمريكا إلا كابوساً للسود ... فقد كبل كل فرد منهم بالسلاسل ثم ربط كل اثنين منهم معاً من اليدين والقدمين ... وعبئت السفينة بأكبر عدد ممكن منهم ... وبالتالي فإن تكدسهم كان شديداً لدرجة أن أي فرد منهم لم يكن له فرصة لكي يتحرك وهو مرصوص بجانب الآخرين في صفوف بطول وعرض السفينة . لقد مات العديدون منهم بالطبع حتى قبل وصولهم للعالم الجديد ، والبعض استطاع بوسيلة أو بأخرى القفز من السفينة لتبتلعه مياه المحيط ... كذلك مات البعض منهم نتيجة انتقال الأمراض من فرد لآخر ، كما مات البعض كذلك وهم يحاولون فك السلاسل أو الاعتراض على سوء المعاملة »[1] .

وبوصول من بقي حياً من السود الذين جلبوا من قرى أفريقيا الغربية إلى العالم الجديد يكون العنصر الأول لغسيل المخ قد تحقق وهو العزل عن البيئة الاجتماعية التي كان يعيشها الضحية ... فها هو ذا الآن الإنسان الأسود قد اختفى عن موطنه الأصلي إلى الأبد وأُلقي به على أرض لم يرها من قبل ينتظر مستقبلاً مجهولاً ولكن عقله يخبره أن المعاملة السيئة التي عومل بها عند أسره وعند تقييده ورصه مع رفاقه في السفن طوال أسابيع الرحلة عبر الأطلنطي تبشره بأن مستقبله سوف يكون مظلما

---

(1) (مرجع سابق) . Inquiring About American History - Studies In History and Political Science

يقول (مايكل بانتون Michael Banton) وهو أحد المهتمين بدراسة العلاقات بين الأجناس : « إن من الصعب وضع تقرير دقيق عن عدد الزنوج الذين جلبوا إلى أمريكا عبر السفن من أفريقيا ، ولكن يمكن القول إن حوالى 15 مليوناً منهم قد تم شحنهم إلى العالم الجديد »(1) .

ويقول مؤلفو كتاب (في هذه الولايات المتحدة وكندا) إنه لما كان « العبد الأسود يباع في العالم الجديد فقد أصبح ملكاً لسيده ، إذ إن حياته ذاتها كانت تُشكل وفقاً لما يريد لها السيد المالك . فكان على العبيد إذن أن يعملوا وأن يقوموا بتنفيذ أية مهام يكلفون بها ، وكانت الأيدي العاملة منهم في الحقول تدفع للعمل منذ الفجر وحتى غروب الشمس . وكانت بيوتهم عبارة عن عشش حقيرة ، وطعامهم وملبسهم كان بالكاد يكفي لكي يستمروا على قيد الحياة وأن يعملوا . لقد كان النظام قاسياً ، فلكي يبقى العبيد تحت السيطرة من أسيادهم فإن وسائل معاملتهم كانت في منتهى الشدة ، فلم يسمح للعبيد بأن يتعلموا حيث إن قراءتهم للكتب والصحف كانت سوف تعلمهم أن لايقنعوا بالأعمال التي يقومون بها ... ولم يكن يصرح للعبيد بمغادرة المزارع بدون تصاريح عبور ، وكان رجال الفروسية يجوبون الطرق للقبض على أي هارب أو أي عبيد يجتمعون لمناقشة خطط سرية للقيام بانتفاضات »(2) .

ويقول مايكل بانتون : « وتحت نظام العبودية هذا فقد كان لأي فرد أبيض استغلال الأسود بأي صورة يرغبها طالما لاتتعارض مع النظام الاجتماعي القائم على السيادة البيضاء »(3) .

---

(1) Race Relations - Michael Banton - Basic Books, Inc Publishers - New York 1967 - Printed In The U.S.A .

(2) In These United States And Canada - Heath Social studies Series - Ralph.C. Preston - John Tottle - D.C. Heath And Con fany - Boston - Copyright 1965 - Printed In The U.S.A .

(3) (مرجع سابق) . Race Relations - By Michael Banton

والذي يقرأ كتب التاريخ الأمريكي اليوم أو حتى كتب الأدب القصصي المنشورة في الولايات المتحدة عن حقبة الرق يجد أن الأمريكيين الأُول عاملوا الزنوج بدون أي رحمة ؛ فقد كانت الإناث منهم يبعن بثمن أعلى — على سبيل المثال — لكي يستخدمن كوعاء للإنجاب المستمر ... ثم يباع أولادهن عندما يشتد حالهم إلى أسر بعيدة فلا تراهم أمهاتهم مرة أخرى حتى يمتن ... وكان الذكور يباعون وفقاً لقوتهم البدنية وقدرتهم على التحمل واحتمال الأعمال الشاقة ... وبالرغم من كل ذلك فلم يكن لأحد منهم الحق بأن يطالب بأي حق من الحقوق .

ولكي يتمكن الرجل الأوروبي ثم الأمريكي فيما بعد من أن يجد حجة قانونية وراء استرقاقه للزنوج فقد وجد تجار الرقيق العديد من الحجج منها على سبيل المثال ما أورده (وليام لورن William Loren) في كتابه الأقليات في التاريخ الأمريكي Minorities In American History : « إن الأفريقيين ما هم إلا شعوب همجية متخلفة ... ولكي يثبتوا ذلك — أي الأمريكيون الأول — فقد زوروا التاريخ والعلم والدين ؛ فالدكتور صمويل كارتريت من جامعة لويزيانا أصبح من الرواد في مسألة السود ... فنظرياته حاولت ترسيخ الحاجة إلى العبيد ... ولذلك فقد ادعى أن السود يستهلكون أوكسجيناً أقل من البيض ، ولهذا فيعتبر من باب الرحمة أن السود وجدوا من يقف رقيباً عليهم لكي يرعاهم ويحميهم . وأن السود — مثلهم في ذلك مثل البغال — لايمكن أن يجهدوا من كثرة العمل ولهذا فلايجب على البيض أن يقلقوا من هذه النقطة . وَلقد اكتشف الدكتور كارتريت كذلك نوعين من (الأمراض) التي تصيب السود ؛ النوع الأول وهو يصيب الذين يهربون من أسر العبودية فيصابون بمرض يسمى (درابتومانيا Draptomania) وهو مرض يجعل الزنجي يهرب بعيداً . أما المرض الثاني فهو يصيب الذين يتركون ويتفادون العمل الذي كلفوا به ويسمى (ديزيزيا إيتيوبيكا Dysthesia Aethiopica) حيث يتباطأ عقل وجسد الزنجي فيرفض العمل . وكان الحل الذي اقترحه الدكتور كارتريت لعلاج هذين المرضين هو استخدام الجلد لاستخراج الشيطان من أجساد الزنوج . ولقد أخذ سكان المستعمرات الجنوبية باكتشافات هذا الدكتور ... فطبعت ونشرت كلماته في صحف

وكتب مشهورة وذلك لشهرتها وقيمتها الطبية ! »[1] .

لقد هيأت مثل تلك الحجج الزائفة الطريق أمام البيض لإيقاع كل أنواع الأذى بالزنوج الذين جلبوا من أفريقيا ... فهم لم يبيدوهم مثلما فعلوا مع الهنود الحمر[*] ولكنهم أخضعوا عقلياً وجسدياً واجتماعياً لكي يعملوا في خدمة البيض .

ولم تكن الكنيسة في العالم الجديد بدون نفوذ في ذلك الوقت ... بل إنها شجعت على استعباد الزنوج بطرق عديدة لدرجة أن : « خمسة آلاف قسيس نظامي (ممن يتبعون تعاليم يحيى وشارلز وسلي) قد امتلكوا 219 ألف عبد زنجي . كما أن ستة آلاف وخمسمائة رجل دين معمودي (الذين يؤمنون بتغطيس الجسد في الماء حتى يكتمل دين الرجل المسيحي) قد امتلكوا 125 ألف عبد زنجي . وألف وأربعمائة رجل دين أسقفي (يتبعون الطريقة الإنجليزية) امتلكوا 88 ألف عبد زنجي . وهكذا نظر إلى نظام الرق كما لو أنه نظام سماوي يرضي الله الخالق كما يقول ونستون تشرشل في كتابه الحرب الأهلية الأمريكية »[2] .

وقد استمر هذا الحال حتى بدأت مظاهر الثورة الصناعية فبدأت المناطق الشمالية الشرقية تزدهر وحلت الآلات محل العبيد في الإنتاج ، وتدريجياً أخذ الشمال يستغني

Slavery To Civil War (1812 - 1865) . By : William Loen Katz - Minorities In American History - (1) Volume 2 .

(*) يقول (روبين ماى Robin May) : « إن سلخ فروة رءوس الهنود الحمر كان عملاً يمارسه البيض بانتظام في الغرب الأمريكي » راجع :

Facts And Feats of The Wild West . By Robin May - Copyright 1979 : The Hamlyn Publishing Group Limited . Printed In Great Britain .

The American Civil War - Winston, S, Crurchil Corgi Books - Transworld Publishers Ltd - (2) A National General Company Copyright 1958 By Cassel & Company Ltd . Printed In Great Britain .

عن العبيد فرحلوا إلى الجنوب حيث المزارع الضخمة المتخصصة في زراعة الدخان والقطن والقصب ، وعندما أعلن عن الاستقلال الأمريكي عن إنجلترا في 4 يوليو 1776 نص إعلان الاستقلال على أن : « جميع الأفراد قد خلقوا متساوين ، وإنهم أُعطوا من الخالق حقوقاً لايمكن الاستغناء عنها ؛ منها حق الحياة والحرية والبحث عن السعادة ... إلخ »[1] .

لقد وضع نص إعلان الاستقلال الأمريكي عن الإمبراطورية البريطانية هذا مجموعة كبيرة من صفوة الشعب الأمريكي ، الذين كانوا يسعون لفصل المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة عن سلطة التاج البريطاني ، وقد تحقق ذلك لهم بالفعل وخرجت الولايات المتحدة للوجود لأول مرة بهذا الاسم منذ هذا الإعلان ، وبسببه بدأت حرب الاستقلال حتى اعترفت إنجلترا في مارس 1782 باستقلال الولايات المتحدة .

ولكن ما إن ظهر إعلان الاستقلال هذا حتى عاش الزنوج في الولايات المتحدة أظلم حقبة عاشوها في تاريخهم .

يقول (وليام لورن كاتز William Loren Katz) : « إن اختراع آلة حلج القطن عام 1793 ربط الرق بشدة في الجنوب الأمريكي ... وأصبح الرق بذلك أساس ثروة الجنوب ؛ لأن تلك الآلة جعلت صناعة القطن تزدهر مما جعل الطلب على المصنوعات القطنية يزيد وبالتالي زادت الحاجة إلى زراعة المزيد من القطن . وبذلك أصبحت أسرة من كل أربع أسر في الجنوب تمتلك عبيداً ، وبالرغم من أن 30 ألف مالك فقط امتلكوا 50 عبداً فأكثر إلا أن هؤلاء الملاك سيطروا على الجنوب الأمريكي سيطرة كاملة ، ووجهوا سياسته نحو حماية ملكيتهم للسود . فقد سيطروا على رجال الدين ، والمدرسين ، والناشرين ، وأعضاء الكونجرس ، والعمد

(1) (مرجع سابق) . The World Almanac & Book of Facts 1984

والقضاة لكي يسلكوا الطرق التي تبعد خطر حظر الرق »[1] .

وبدأ الزنوج في الفرار التدريجي إلى ولايات الشمال التي حظرت الرق ... ولكن الكثيرين منهم كانوا يعادون أو يقتلون ... والذين عادوا نالوا من العذاب أشده ، والذين قتلوا كان موتهم بسبب الجوع أو البرد أو الغرق أو افتراس الحيوانات الضارية ... ومع ذلك فقد كان الأمل يدفع الكثيرين من العبيد للفرار بالرغم من المخاطر ، وبالرغم من معرفة ماذا سيحدث لهم لو أعيدوا لأسيادهم مرة أخرى . يقول بعضهم بعد فرارهم إلى الشمال : « لكي نهرب من الرق فقد عانينا الشعور بفقد كل شيء حولنا ، وخاطرنا كل المخاطر ، واجتزنا كل الصعاب ، بعضنا ترك الوالدين ، وبعضنا ترك الزوجات ، وبعضنا ترك أبناءه وبناته ، وبعضنا جرح بالأعيرة النارية ، وبعضنا عضته الكلاب الشرسة بينما يجرون ... »[2] وبارتفاع أصوات الشماليين الذين كانوا يحاولون تطبيق الدستور الأمريكي الذي نص على الحرية لجميع الناس والشعوب ، ازداد رفض الجنوبيين لمسألة إنهاء الرق . وبدأت المشاغبات بين الطرفين حول إنهاء العبودية في التصاعد وأصبح لامفر أمام الأمريكيين في الشمال والجنوب على حد سواء إلا خوض حرب أهلية شرسة راح ضحيتها كما يقول مؤلفو كتاب الجيب لتاريخ الولايات المتحدة مئات الألوف ، حيث خسر الشماليون 360 ألف قتيل بينما خسر الجنوبيون 258 ألف قتيل ، وقد استمرت الحرب أربعة أعوام متواصلة من عام 1861 إلى عام 1865 ، وعندما انتهت كان الجنوبيون قد دحروا ، وأعلن إنهاء الرق في الولايات المتحدة الأمريكية[3] وبهذا انتهى رسمياً لأول مرة

---

(1) (مرجع سابق). Slavery To Civil War (1812 - 1865) . By William Katz

(2) (مرجع سابق) . Slavery To Civil War (1812 - 1865) By William Loren Katz

(3) The Pocket History of The United States . By Allan Nevins And Henry Steele Commager - Pocket Books Inc - New York - Copyright 1942 - By Little, Brown & Company .

وجود الرق في الولايات المتحدة الأمريكية ... وبهذا أصبح الزنوج لايباعون ولايشترون ، ولا يُفصل الرجال عن زوجاتهم ، والأمهات عن أبنائهن ... ولكن هل تغيرت النظرة العقلية إلى الزنوج في أمريكا اليوم ؟ هل ينظر البيض إلى السود على أنهم كأبناء وطنهم ؟

من يذهب ليعيش اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية لفترة كافية سوف يلاحظ التفرقة العنصرية الموجودة هناك ضد الزنوج ... فلا زال الكثيرون من البيض يقللون من شأن السود ويعتبرونهم أقل منهم ذكاء وخبرة وعلماً وحكمة وسلوكاً ... إلخ . والواقع أن الزنوج لازالوا يعيشون في قاع المجتمع الأمريكي فيحصلون على أقل الأجور ، وأدنى مستويات السكن ، وأقل فرص التعليم والعلاج ... وقد انعكس ذلك على حياتهم العقلية والنفسية والاجتماعية ... فنسبة كبيرة من الزنوج مرضى نفسيون ونسبة كبيرة منهم مجرمون ، ونسبة كبيرة منهم مطلقون ، ونسبة كبيرة منهم فقراء وأميون .

وطبقاً لإحصائيات نشرت عام 1989 بمجلة تايم Time الأمريكية فإن « ثلث الأسر السوداء يزيد دخلها على 35 ألف دولار في حين أن 70 ٪ من الأسر البيضاء يزيد دخلها على هذا الرقم »[1] .

كذلك وطبقاً لإحصائيات نشرت عام 1987 بمجلة نيوزويك الأمريكية Newsweek فان « نسبة القتلى من الرجال السود تماثل ستة أمثال القتلى من الرجال البيض . ونسبة البطالة بين السود تزيد مرتين ونصف المرة عن البطالة بين البيض . ونسبة الأطفال الرضع الذين يموتون بين السود أكثر من مثيلتها بين الأطفال البيض . كذلك فإن متوسط عمر الأمريكي الأسود أقل من مثيله لدى الأبيض »[2] .

---

(1) Time (International) - March 13 - 1989 - Printed In U.S.A .

(2) Newsweek (International) March 23 - 1987 - Printed In U.S.A .

ويمكن في الحقيقة رصد إحصائيات أكثر من ذلك لكي يتبين لنا أن القمع العقلي والاجتماعي والقيمي من البيض ضد السود قد جعل من السود طائفة تعيش في قاع المجتمع الأمريكي .

يقول كل من طبيبي الأمراض العقلية (وليام جرير William Grier) و(بريس كوبس Price Cobbs) « إن هناك علاقة بين أن تكون أسود في أمريكا وبين الجرح النفسي الذي يحدث لك ، حيث تصل عملية سلخ الروح الإنسانية إلى ذروتها عن طريق إيذاء مشاعر السود ، وحيث عدم رغبة البيض في قبول السود كبشر مثلهم مما يجعل شعور الغضب يتجمع في نفوس السود فتحدث انفجارات شديدة . إن العملية النفسية لكره الذات ، والتقليل من شأنها ، تظهر في السود كما تظهرها الحالة التالية : جماعة من الأمهات السود الفقراء جئن للعلاج ولوحظ عليهن منذ الوهلة الأولى أنهن في الأربعينيات أو الخمسينيات من أعمارهن ... وبالرغم من ذلك فقد اتضح فيما بعد أنهن جميعاً في أواخر العشرينيات . فقد زادت هيئتهن الفقيرة ، وأحذيتهن القذرة وأسنانهن المهملة من أعمارهن لهذه الدرجة ، ولأنه من المستحيل لهن أن يصبحن بيضاوات (وبالتالي جذابات وجميلات) فقد استسلمت تلك المجموعة من السيدات لليأس تاركات الأنوثة جانباً ليتفرغن لأشياء أخرى أكثر أهمية لهن »(1) .

وإذا كانت القصة السابقة تظهر كيف أدى الاضطهاد الاجتماعي بمجموعة من السيدات الزنجيات إلى طلب العلاج النفسي وكيف أن فقرهن جعلهن يبدون أكبر في السن إلى هذه الدرجة ، فإن الفقر ليس هو السبب الرئيس لتعاسة الزنوج في الولايات المتحدة . فحتى الأغنياء من السود الأمريكيين لم يسلموا من الاضطهاد العنصري ، فها هو ذا ستانلي جرايسون وزوجته ، الزوج يعمل كنائب عمدة مدينة نيويورك ، وزوجته تعمل نائبة لرئيس الجمعية الطبية الوطنية ... يصل دخل

---

(1) American Racism - Exploration of The Nature of Prejudice . By : Roger Daniels & Harry H.L. Kitano - Prentice Hall, Inc, Englewood Cliffs , New Jersey 1971 - Printed In The U.S.A .

الزوجين سنوياً إلى حوالى مائتي ألف دولار ولكن الزوج يقول : بغض النظر عن ما أستطيع أن أحققه فسوف يحكم عليّ دائماً على أساس لوني . أما الزوجة فتقول : « إنه ليس من العدل أن يحاول الناس إشعار الأمريكيين السود الذين يحققون النجاح بالذنب والعار لمجرد أنهم ناجحون ... ولهذا فنحن السود لايحق لنا أن نتمتع بالأشياء التي جاهدنا بشدة في سبيل الحصول عليها »(1) .

* * *

كان هذا شرحاً موجزاً لأحوال الأمريكيين السود منذ بداية استرقاقهم بالقوة حتى يومنا هذا ... وإن كان هذا يعكس قدراً واضحاً من عدم الديمقراطية الاجتماعية في بلد بالغ الثراء يتشدق أهله كل يوم بأن لديهم الديمقراطية التي لانظير لها في العالم أجمع .

وفي الحقيقة فإن السود ليسوا هم الذين يعانون فقط في أمريكا ... فهناك أقليات دينية وعرقية كثيرة تعاني بعض أنواع التفرقة ، ولكن يظهر على السطح بين الحين والآخر ما يوضح بجلاء أن عمليات غسيل مخ فردية وجماعية تحدث من بعض الجماعات الدينية المتعصبة ضد أفراد يجبرون على الانضمام إلى تلك الجماعات ؛ تذكر دائرة المعارف البريطانية الجديدة أن « هناك أدلة على استخدام غسيل المخ من قبل جماعات دينية متعصبة أمريكية لدرجة أنها أثارت الاهتمام البالغ في الولايات المتحدة . وقد اتضح أن محو آثار غسيل المخ من خلال العلاج النفسي المركز قد أحرز نجاحاً إلى حد ما خاصة مع أعضاء الجماعات الدينية المتعصبة في الولايات المتحدة »(2) .

---

(1) Time (International) March 13 - 1989 - Printed In The U.S.A .

(2) The New Encyclopaedia Britanica - Vol 2 - Encyclopaedia Britanica, Inc, 1988 Printed In The U.S.A .

وقد قام البروفسور (فرانكلين مالسون Franklin. G. Maleson) بجامعة توماس جيفرسون بدراسة هذه الظاهرة المفزعة وقام بنشر بحث عنها في مجلة الطب العقلي الأمريكي The American Journal of Psychiatry حيث أوضح : « أن ظاهرة جنون التعصب الديني ظاهرة تستعصي على التعميم . حيث انخرط فيها خلال عقد السبعينيات أعداد كبيرة من المراهقين من المنتمين لأسر الطبقة المتوسطة . وبالرغم من ذلك فإن الدراسات التي قامت بإلقاء الضوء عليها كانت قليلة ولهذا فإن أطباء الأمراض العقلية ينقصهم الخبرة الكافية لعلاج المنخرطين في الجماعات الدينية المتعصبة »[1] ومع ذلك فإن البروفسور فرانكلين قد قام بدراسة حالات أربعة أفراد من المنضمين لهذه الجماعات ، وفيما يلي عرض لحالة من الحالات الأربع تلك وكيف تعامل معها : « إن الآنسة (ب) كانت بدون عمل حيث اضطرت إلى الانفصال عن الكلية التي كانت بها نتيجة إحساسها المؤلم بالعزلة ومشاكل قلقها الاجتماعي ... فهي تتصف بالانطوائية ، والتبلد . وعند بلوغها العشرين من العمر انضمت لجماعة روحية تطلق على نفسها اسم : إرسالية القبس الإلهي Divine Light Mission . وهي جماعة تعتنق بشدة تعاليم رجل دين يسمى (جورو Guru) وهي تعاليم تشدد على قمع الدوافع العدوانية والحسية معاً وعدد آخر من الممارسات التي تهدف إلى الوصول إلى ما يسمونه : (تلقي المعرفة) . وقد أخذت روح الانتماء لهذه الجماعة في الظهور لدى الآنسة (ب) بعد معرفتها بتلك الجماعة ، وهو ما كانت تفتقده ، فطلبت من المسئولين في الجماعة بعد ستة أشهر من دراستها لفلسفة تلك الجماعة بأن تكون عضوة كاملة العضوية بها . وبعد جلسة إعداد لها استمرت ثماني ساعات عرفت فيها تعاليم وممارسات الكنيسة ووفق على أن تنتقل للعيش في مركز القيادة لتلك الجماعة .

وبعد ثلاث سنوات من احتجاج والديها وقيامهما باستشارة العديد من المتخصصين في علاج ضحايا مثل هذه الجماعات ، قامت الآنسة (ب) بالاتفاق

(1) The American Journal of Psychiatry - July 1981 The Official Journal of The American Psychiatric Association. Washington .D.C. Printed In The U.S.A .

مع والديها على الذهاب لأحد المختصين لعلاجها ... ولكنها لم تلبث معهم غير ساعات قليلة فرت بعدها إلى مقر الجماعة . وبعد عام آخر حاول والداها مرة أخرى ولكن في هذه المرة كانا مدعمين بقرار من المحكمة يقضي بفرض سلطتهما عليها لمدة ثلاثين يوماً بحجة عدم كفاءتها وتشتت بصيرتها العقلية لتقرير شئون حياتها بشكل صحيح . ولقد استشارني الوالدان ــ الحديث للبروفسور فرانكلين مالسون ــ في ذاك الوقت ، ولكنني أنكرت وجود خبرة لي بممارسة إعادة التكيف لأعضاء مثل هذه الجماعات ، ومع ذلك فقد أشرت على الوالدين بأنني مستعد لتقديم خبرتي بالعلاج العقلي بعد إعادة التكيف لابنتهما من قبل اختصاصي معني »[1] .

« ولقد مضت الأيام الأولى في إعادة تكيفها بصعوبة إذ كانت عدوانية في حديثها ولكن فيما بعد فقد بدت أكثر قابلية لكي تعود مرة أخرى إلى مجرى الحياة الطبيعي الذي يعيشه أغلب الناس ... ومع ذلك فقد اتفقت الآراء على أن علاجها التكيفي لم يحرز تقدماً كبيراً ، ولهذا فقد اتفقت مع والديها على أن أراها أربع مرات في الأسبوع حيث لم يبق على الفترة التي حددتها المحكمة لتكون فيها تحت رعاية أبويها إلا أسبوعان ونصف .

ومنذ البداية فقد بدت لي الآنسة (ب) وقد تمسكت بشدة بمعتقدات الجماعة التي انضمت إليها ؛ ولهذا فقد تعاملت معي بدون ثقة وسرعان ما بدأت تصحح لي المصطلحات التي أستخدمها معها ، فمثلاً هي علقت على وصفي لجماعتها بأنها متعصبة بالقول بأنها ليست جماعة متعصبة بل جماعة إرسالية لها مهمة دينية ، كما صرحت لي بأنها تعودت في الجماعة لأن تكون متحفظة في الكلام ، ولكنها الآن ستكون متفتحة . وأوضحت أنها إنسان بناء وليست هدامة تحب الغير ، وليست أنانية . ووسط حديثها هذا لي شعرت بأن تبادل الحوار معها سيكون بلا فائدة ، ولكنها

---

(1) (مرجع سابق). The American Journal of Psychiatry July 1981

في الجلسة الثانية فاجأتني بأن قصت عليَّ حلماً يدور محتواه حول شعورها بالذنب من ظهور رغبات حسية لديها ، وغيرتها من شقيقتها التي تكبرها والتي تتصف بالجمال الباهر . وقد دل هذا الحلم على تيقظ وعيها بذاتها »[1] .

« ولقد تميزت جلسات الأسبوع الأول الأربع بتصارع مشاعرها تجاه الجماعة وتجاه المجتمع الخارجي ... فإذا ما فكرت بفكر يغاير فكر الجماعة فقد كانت تبدو ممتلئة بالنشاط والحيوية والحماس ، وتنظر إلى فكر الجماعة على أنه فكر له حدود . وعلى سبيل المثال (فالنظام الغذائي غير الصحيح كان يؤدي إلى الغضب) ... ومع ذلك فسرعان ما تشعر بالقلق وينتابها التناقض الوجداني فتعود إلى التفكير بمبادئ الجماعة مدافعة عن ممارساتها بأسلوب كئيب مستخدمة ضمير المتكلم الجمعي كأن تقول : (نحن نعتقد ...) . ولقد أدى تدخل الوالدين في سلوك وتصرفات ابنتهما إلى تعقيد العلاج ... وباقتراب الفترة التي حددتها المحكمة لرعاية الوالدين الإجبارية لابنتهما إلى نهايتها كانت الآنسة (ب) مذبذبة بين إرضاء رغبتين تتصارعان في عقلها ؛ الأولى وهي رغبتها في إرضاء والديها والثانية رغبتها في أن تشعر بالأمان وسط الجماعة الدينية التي تعتنق مبادئها ولقد كان واضحاً أنها لن تستغني كلية عن الجماعة ... أما والداها فقد رغبا في المزيد من جلسات إعادة التكيف ولكن تحت ضغط مني ـــ الحديث دائماً للبروفسور فرانكلين مالسون ـــ أزعن الوالدان لإعادة ابنتهما إلى الجماعة لكي توازن بنفسها فكرهم وممارساتهم ويأتي هذا عن طريق عدم الخوض في حضور جلساتهم المطولة وخفض الجلسات التي يمارس فيها التوسط الروحي وذلك ما وافقت عليه الآنسة (ب) . ولكن بعد هذا الاتفاق اكتشفت الآنسة (ب) وثيقة قانونية علمت منها أنها عبارة عن أمر لحضور جلسة في المحكمة لسماع قرار من المحكمة بإعطاء والديها الحق في الإشراف الكامل عليها وعدم ذهابها نهائياً للجماعة المنضمة إليها وقد أخبرتني بمقدار شعورها بالألم لقيام والديها بخيانتها في الوقت

(1) (مرجع سابق). The American Journal of Psychiatry - July 1981

الذي وافقت فيه هي على عدم خيانتهما . وبعد آخر جلسة لها معي اختفت ، ولكنها ظهرت بعد عدة أسابيع في وسط جماعة دينية في مدينة أخرى . مما أشعر والديها بالإحباط ، وأصابهما باليأس فحاولا مرة أخرى إصدار قرار جديد من المحكمة . وبعد عامين كاملين كانت الآنسة (ب) عضوة نشطة في الجماعة الدينية المتعصبة »[1] .

ويعلق البروفسور فرانكلين مالسون على تلك الحالة بالقول : « بأنها كانت من الحالات الأولى التي تعرضت لها لعلاج الأفراد الذين تعرضوا لغسيل المخ داخل الجماعات الدينية المتعصبة ، ولهذا فقد نصحني الوالدان باستشارة أحد الأخصائيين الاجتماعيين الذين لهم خبرة في علاج مثل هذه الحالات ... ولنقص خبرتي بالعلاج قمت بالاتصال بالأخصائي الاجتماعي الذي أشار إليه الوالدان للاستماع إلى خبرته وطريقته في علاج مثل هؤلاء الأفراد . وبمرور الوقت نمت الخبرة لديَّ مما جعلني قادراً على تكوين نظريتي الخاصة بعلاج مثل هذه الحالات . وفي هذه الحالة ــ حالة الآنسة (ب) ــ فقد استطعت في وقت قصير جعل المريضة تنظر بموضوعية في الأفكار ، وكيف تتعلم حل الصراع بين حاجاتها . ومع ذلك فإني أنصح بالتوسع في دراسة مثل هذه الحالات ليتسنى لي ولغيري من المعالجين مساعدة من يتعرضون لعمليات غسيل مخ في الجماعات الدينية المتعصبة »[2] .

ثانياً : غسيل المخ في الاتحاد السوفيتي :

ربما يرتبط غسيل ــ المخ بالمفهوم الحديث له ــ ارتباطاً وثيقاً بالنظام الشيوعي الذي ظهر مباشرة بعد الثورة الروسية عام 1917 . فعالم النفس الروسي إيفان بافلوف أسس نظرياته الخاصة بالفعل المنعكس الشرطي (وغير الشرطي كذلك) وطورها تطويراً هائلاً وهو وأتباعه إلى درجة أن زعيم الثورة الروسية لينين قد أثنى عليه ثناءً عظيما ، ووصف أبحاثه بأنها أنقذت الثورة من أعدائها وإذا لم يكن التاريخ الحديث

---

(1) ، (2) (مرجع سابق) . The American Journal of Psychiatry July 1981

قد أدان زعيم الثورة لينين فإنه بلا شك قد أدان أفعال جوزيف ستالين الذي قيل مراراً وتكراراً إنه قضى على الملايين من أعداء الثورة الروسية أو المرتدين عليها من المواطنين الروس .

ولاتوجد أية مراجع روسية تشير إلى ما يسميه الغرب بـ « المجازر » التي ارتكبت في عصر ستالين ، وهذا يعود في المحل الأول إلى طبيعة النظام الروسي الذي يعطي الدولة كل أنواع الإشراف على الوثائق والكتب والصحف ووسائل الإعلام ... كما يعود كذلك إلى ما فرض على شعوب الاتحاد السوفيتي طيلة حقبة ستالين من ضغوط سياسية واجتماعية أهمها عدم القدرة على الخروج من الاتحاد السوفيتي لأي سبب من الأسباب إلا بموافقة الدولة وفرض ما سمي « بالسور الحديدي » حول جميع حدود الدولة السوفيتية المترامية الأطراف .

إذن فلا أحد يعلم حجم وحقيقة ما حدث ... وربما يعود كل ما نشر في العالم الغربي عن الفظائع التي ارتكبت إلى الفارين من المواطنين الروس أو بعض أفراد البعثات الدبلوماسية الروس العاملين في الخارج والذين يطلبون حق اللجوء السياسي ... أو إلى ما تنشره إدارات المخابرات الغربية بصفة مستمرة عما كان يحدث في عهد ستالين .

والحجم الهائل من المعلومات المتوافرة في المراجع الغربية عن عمليات القمع السياسي الواسعة النطاق التي جرت في عهد ستالين لايمكن منطقياً أن تكون جميعها كاذبة أو أن تكون مجرد حرب إعلامية مضادة للنظام السوفيتي ... فطبيعة النظام الشيوعي نفسه وإن كانت تعد المواطنين بالكثير من العدالة الاجتماعية إلا أنها تسلخ منه كل فكر سياسي قد يعتنقه ويكون مخالفاً بأي صورة للعقيدة الشيوعية ... ولهذا فلكي يستطيع المواطن الروسي أن يعيش لابد وأن يكون شيوعياً وإلا فإنه سيصطدم مع الدولة التي لها كل الصلاحيات في اتخاذ ما يلزم معه من إجراءات لجعله شيوعياً أو على الأقل ليس معادياً بأي صورة للنظام الشيوعي .

وبالرغم من ذلك فإن معرفة الغرب تعتبر أكثر تفصيلاً عن ممارسات غسيل

المخ في الصين (وخاصة الفردي منه) أكثر منها عن الاتحاد السوفيتي ... بل إن غسيل المخ ذاته إنما هو تعبير مترجم لكلمة صينية تسمى (« هيس ناو Hsi Nao » والتي تعني في اللغة الصينية : إصلاح الفكر أو تعديل الفكر الأيديولوجي)[1] .

كذلك تعود المعرفة الغربية بحجم ممارسات غسيل المخ في الصين إلى ما حدث للأسرى الأمريكيين وغيرهم في الصين ، وجنوب شرقي آسيا حيث اعتقلوا ومورست معهم عمليات منظمة لغسيل المخ سيجري التعرض لها عند الحديث عن غسيل المخ في الصين .

وقد ظهر أن هناك نوعين من غسيل المخ مورسا في الاتحاد السوفيتي في العصر الستاليني ؛ أولهما وهو الأكثر شيوعاً هو تجاه مجمل السكان في الاتحاد السوفيتي ، والثاني وهو الذي كان يحدث مع قادة الفكر الذين كانوا يعادون النظام الشيوعي وأسلوب تطبيقه وهو مجهول بشكل شبه كامل ؛ « فمنذ عام 1929 وهي السنة التي جاء فيها ستالين إلى الحكم بدأ في الظهور ما يسمى النزعة التوتالية أو الشمولية لنظام الحكم حيث ظهر الرعب المنظم تجاه الأعداء »[2] .

« وحتى من قبل أن يصبح ستالين زعيماً للبلاد فقد استغل منصبه الذي عينه فيه لينين كرئيس للحزب الشيوعي عام 1922 لكي يملأ المناصب الهامة في الحزب والحكومة بأعوانه لكي يستطيع احتواء تروتسكي وزعماء سوفييت آخرين ... وقد ظهر نجاح ستالين بعد وفاة لينين عام 1924 فأزاح تروتسكي من منصبه في الحزب عام 1927 ثم نفاه خارج الاتحاد السوفيتي عام 1929 لكي تزداد سيطرته »[3] .

---

(1) Encyclopaedia Britanica - Vol . 4 - 1972 - Printed In U.S.A .

(2) The Soviet Politlcal Mind - Stalinism and Post Stalin Change . George Allen & Unwin, Ltd 1971 - London .

(3) The American Peoples Encyclopedia - Vol . 17 - Copyright 1966 By Grolier In Corporated - U.S.A .

« وفي خلال الثلاثينيات قام ستالين بتصفية بقية أعدائه ، وذلك عن طريق محاكم التصفية الكبرى ، والتي اتهم فيها الجيل الأول من البلاشفة وبعض القواد العسكريين بالخيانة والإرهاب والتجسس وقد اتسعت هذه التصفيات اتساعاً كبيراً حتى وصمت عصر ستالين بالإرهاب »[1] .

ولقد أشار مرجع أمريكي مشهور إلى أنه « منذ الثلاثينيات وحتى موته عام 1953 فإن ضحايا ستالين من المحاكات التصفوية والإعدامات العامة وضحايا معسكرات العمل الإجباري قد وصلت إلى ملايين من القتلى وفق أغلب التقديرات »[2] .

« ففي خلال عقد الثلاثينيات وحده تم تحويل 25 مليون فلاح للعمل في المناطق الصناعية الجديدة تحت نظام تدريبي صارم ، وعندما فرضت المزارع الجماعية التي قاومها الفلاحون في البداية تمكن ستالين من القضاء على هذا الرفض وتحطيم مقاومة الرافضين بأن أمر بترحيل العديدين منهم إلى معسكرات العمل الإجبارية »[3] .

« وقد قدر عدد الذين أرسلوا بالفعل لمعسكرات العمل الإجباري في الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين ما بين 7 - 15 مليون فرد »[4] .

في هذا الجو من الإرهاب الرسمي من قبل ستالين عاش الناس في الاتحاد السوفييتي أحلك فترة في تاريخهم الحديث ... فقد تحول مجتمعهم بالثورة وفي فترة قياسية من نظام قيصري عفن كانوا فيه أفقر دولة في أوروبا إلى نظام شيوعي وعدهم بإنهاء آلامهم فإذا به يرعبهم ويحيل حياتهم ومجتمعهم إلى خوف ورعب دائمين .

---

(1) Encyclopaedia Britanica - Vol - 21 - William Benton Publisher 1972 - U.S.A .

(2) (مرجع سابق) . The World Almanac & Book of Facts 1984

(3) (مرجع سابق) . Encyclopaedia Britanica - Volume - 21 - 1972

(4) The New Encyclopaedia Britanica - Volume - 11 - Copyright 1988 BY Encyclopaedia Britanica Inc printed In U.S.A .

ويقول (والتر فيكرى Walter .N. Vickery) وهو واحد من المهتمين بدراسة سياسة الاتحاد السوفييتي : « إنه لكي يتمكن النظام الشيوعي من تحويل المجتمع الروسي إلى مجتمع شيوعي فقد قام بالسيطرة الكاملة على مجمل الإنتاج الفكري وجعله في خدمة الحزب الشيوعي . ونظر العصر الستاليني إلى أي استقلال إعلامي أو أدبي على أنه عمل خارج على القانون الشيوعي الرسمي »[1] .

وعندما أخذت المعلومات تتزايد عن النظام الشيوعي السوفييتي وطبيعة حكم جوزيف ستالين ، عرف الغرب أن الحاكم الشيوعي قد وضع المواطنين الروس جميعا في حالة نفسية وعقلية واجتماعية لكي يتأقلموا مع العقيدة الشيوعية التي آمن بها قواد الحزب الحاكم هناك .

وقد استعان الحزب الشيوعي استعانة كبرى بوسائل الإعلام السوفييتية ووجهها تجاه تشكيل رأي عام قوي ... ويبدو جلياً أن منفذى هذه السياسة كانوا يعلمون الحقيقة المعروفة من : « أن الرأي العام إذا ما تشكل وأخذ الوضع المطلوب فإن قوته الذاتية تستطيع الهيمنة على عقول غالبية المواطنين »[2] .

« وكذلك تم في عصر ستالين إنهاء دور الكنيسة وحرمانها من أي نفوذ في الحياة العامة ، التي كان ستالين يسعى إلى إعادة بنائها على نظام غير ديني ... ولهذا السبب فقد حرم على الكنائس القيام بأي دور تعليمي أو تربوي ، وحظر القيام بأي حملات أو دعوات دينية . وقد دمرت كنائس وفرضت ضرائب باهظة على رجال الدبن الذين أعدم بعضهم ورُحل البعض الآخر منهم ... وكل هذا أمثلة على الكيفية التي كان يتم بها تحويل المجتمع إلى كيان غير ديني »[3] .

---

(1) The Cult of Optimism - By Walter .N. Vickery Indiana University Press - Bloomington - Copyright 1963 - Printed In U.S.A .

(2) Thought Power - Its Control and Culture - Annie Besant - 12th Print - The Theosophical Publishing House .

(3) The Encyclopedia Americana - International Edition Volume 24 - Copyright 1976 - By Americana Corporation . Printed In The U.S.A .

« كذلك أصبحت قوات الأمن في النظام الشيوعي ذات هدف أساسي وهو حماية الحكومة من المعارضة السياسية الداخلية سواء أكانت هذه القوات تابعة لوزارة الأمن الداخلي (M.V.D) أو القوات التابعة للجنة أمن الدولة (K.G.B) »[1] .

ولهذا يمكن القول إن تطبيق النظرية الشيوعية التي وضع أسسها كارل ماركس في القرن التاسع عشر لم يكن سهلاً في الاتحاد السوفييتي ... فقد عاش الناس هناك ـــ أي في الاتحاد السوفييتي ـــ عبر التاريخ أنواع أنظمة حكم سواء الكهنوتية أو الدينية أو الملكية أو الإقطاعية أو القيصرية ... ولكنهم لم يمروا من قبل أبداً ـــ مثلهم في ذلك مثل أي شعب في العالم ـــ بنظام حكم شيوعي يدعي قدرته على تحطيم النظام الطبقي نهائياً وإقامة المجتمع غير الطبقي . وربما لم يكن الشعب الروسي يعرف أن معنى الشيوعية هو سيطرة الدولة على مقدرات الناس جميعاً وسلب حريتهم السياسية والفكرية والروحية . وربما يشير لنا مدى عنف الإجراءات وأساليب القمع والإعدامات والهيمنة على كل مقدرات الأمور في الدولة التي لجأ إليها ستالين (وهو من غلاة الشيوعيين) إلى وجود مقاومة شديدة من قبل أعدائه تارة أو عامة الناس تارة أخرى الذين لايؤمنون بالماركسية ... فبمقدار استخدام أساليب القمع بمقدار ما نستطيع أن نتبين حجم الرفض الموجود بالمجتمع ... ومن هنا يأتي حكمنا على الحكومة بأنها ديكتاتورية .

لقد ساعدت التكنولوجيا الحديثة ديكتاتورية الدولة طوال فترة حكم جوزيف ستالين حيث سيطر على كل أجهزة الدولة وعامل الناس (بني وطنه) مثل الآلات لكي ينفذوا خططه بإقامة المجتمع الشيوعي ... واستخدم كل السبل المتاحة لديه لكي يفرض على الأفراد كافة فكره ومبادئه وقضى على جميع الأصوات المعارضة له ... ولاشك أن هذا أسلوب فكرى قمعي أقل ما يوصف به أنه نوع شرس من غسيل المخ الجماعي .

---

(1) (مرجع سابق) . The American Peoples Encyclopedia - Volume - 17

ثالثاً : غسيل المخ في الصين الشيوعية :

تقول الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية : « استخدم الصينيون غسيل المخ ضد نوعين مختلفين من الأفراد ... الفئة الأولى وكانت ضد المدنيين من الصينيين في نهاية عقد العشرينات ثم بعد ذلك ضد الأسرى من جنود الأعداء »[1] .

« ففي أثناء نمو وانتشار الشيوعية الصينية (1921 - 1948) استخدم أسلوب الإصلاح الفكري لزيادة عدد الأعضاء المنضمين للحركة الشيوعية وكذلك لتقوية الفكر الشيوعي لدى الأعضاء القدامى ولدى رجال الحزب وصفوة القيادة ، وفور سيطرة الشيوعيين على مجمل الأراضي الصينية عام 1949 أخذوا يحاولون إصلاح فكر المثقفين الصينيين والفلاحين والجنود وغيرهم من الفئات والذين كانت أصولهم العرقية أو انتماءاتهم السياسية أو سلوكهم قبل الثورة محل شك من قبل الشيوعيين . ومن هذه المجموعات تم القبض على أوروبيين وأمريكيين قاموا بالاعتراف بعد فترة قضوها في السجون الصينية بخطئهم تجاه الدولة الصينية مما ألقى الضوء بشدة على أنهم تعرضوا لما سمي بالإصلاح الفكري »[2] .

« ففي خلال الحرب الكورية (1950 - 1953) قام جنود أمريكيون وقعوا في الأسر لدى الشيوعيين الصينيين بالاعتراف علناً بأنهم كانوا ضالعين في القيام بعمليات حرب بكتريولوجية ... كما قام جنود آخرون بعضهم من جنسيات أخرى بتوقيع وثائق تنتقد بشدة سياسة الأمم المتحدة ... كما قام البعض الآخر بالاعتراف العلني باعتناق الشيوعية . ولقد فسرت كل هذه الاعترافات والتحولات الفكرية للأسرى بأنها كانت نتيجة وقوعهم تحت تأثير غسيل المخ . وبالرغم من أن العدد الإجمالي

---

(1) (مرجع سابق) . International Encyclopaedia of Social Science - Vol 2 - 1968

(2) (مرجع سابق) . Encyclopaedia Britanica - Vol . 4 - 1972

لهذه الحالات كان صغيراً إلا أن الغضب العام أدى إلى احتجاجات واستفسارات رسمية عام 1955 من حكومتي بريطانيا العظمى ، والولايات المتحدة الأمريكية »[1] .

وتقول دائرة المعارف الأمريكية : « إن الفنيات التي استخدمت في غسيل المخ اختلفت من جماعة لأخرى ولكن الاتجاه الأساسي كان واحداً سواء استخدم في السجن أو المعسكر الحزبي أو في المصنع أو في خلية الحزب الشيوعي ... فقد كان التحكم في البيئة الاجتماعية والبدنية للضحية يتم لتدمير أي فكر معاد للشيوعية مع التركيز على أن أي فكر مضاد للشيوعية ما هو إلا فكر خاطئ يجب أن يتبدل لكي يحل محله الإيمان والطاعة للحزب الشيوعي . أما الفنيات التي استخدمت ضد الأسرى فكانت كما يلي :

ا ـ يحجب الأسرى بعيداً عن البيئة الحرة لكي لايستطيعوا معرفة أي معلومات عما يحدث حولهم ، ولذلك تمنع عنهم الصحف والخطابات .

ب ـ يتم إحلال نظام يومي صارم ليحل محل ما اعتاد الأسرى القيام به في حياتهم قبل الأسر ويشمل هذا نظام الطعام والنوم والاستحمام ، ويسمح فقط بممارسة الأنشطة التي يحددها الحارس ... ويجب على الأسرى دائماً خفض رءوسهم وعيونهم تكون ناظرة تجاه الأرض أثناء وجود الحراس .

جـ ـ التعرض لضغوط جسدية تتراوح ما بين الحرمان من الطعام والنوم إلى التصفيد في الأغلال كعقاب على عدم التعاون .

د ـ خلق المناخ الذي يظهر أن الحرية تعتمد فقط على الاتجاه الناجح نحو التغير (أي التغير تجاه المعتقدات التي يفرضها السجانون) .

---

(1) (مرجع سابق) . International Encyclopaedia of The Social Science . Vol. 2. 1968

هـ - الضغوط الاجتماعية مثل التعرض لفترات طويلة من الاستجوابات وحضور ما يسمى (لقاءات المجاهدة) ، والتي فيها يقوم الأسرى الذين تغير فكرهم القديم بحث الأسرى الجدد على التعاون مع الشيوعيين ، حيث يستخدمون الإهانة والسب والحجج العقلية ليضعفوا من مقاومتهم .

و - حضور جماعات دراسية يومية في الفكر الشيوعي .

ز - حضور جلسات النقد المتبادل والنقد الذاتي ، والتي فيها يقوم الأسرى بإظهار أن سلوك زملائهم الأسرى وسلوكهم هم شخصياً كان سلوكاً إجرامياً من وجهة النظر الشيوعية .

ح - توقيع الضغط المستمر من قبل المسئولين على الأسرى لجعلهم يؤمنون بأن أي عمل قد يؤذي الشيوعية هو عمل إجرامي ... وجعل الأسرى يعترفون بإخلاص علناً بهذا »[1] .

وتقول دائرة المعارف البريطانية إنه : « عندما يتعرف الأسير على (الذنب) الذي ارتكبه ويعلم التفسير الشيوعي لأفعاله التي كان قد قام بها ... وعندما يقوم بالاعتراف الفعلي المقنع ويعرب عن تغيير اتجاه أفكاره فإنه يؤخذ للمحاكمة التي تتهمه بالجرائم التي اعترف بارتكابها وتوقع عليه عقوبة مخففة لأنه تم إصلاحه . وتأخذ هذه العملية بالكامل (منذ الأسر حتى النطق بالحكم) من عام ونصف حتى أربعة أعوام وأحياناً أكثر »[2] .

ولقد أورد (إدوارد هنتر Edward Hunter) في كتابه الهام : (غسيل المخ : قصة الرجال الذين قاوموه) رواية رجل أمريكي تعرض للأسر لدى الشيوعيين فقال ما يلي :

---

(1) The Encyclopaedia Americana - Internatioal Edition - Vol . 4. 1976 - Printed In The U.S.A .

(2) (مرجع سابق) . Encyclopaedia Britanica - Vol . 4 . 1972

« إن لعبة القط والفأر التي لعبها الحمر (أي الشيوعيون) بعقل رجل ما وصفت بدقة بواسطة الكابتن (زاك دين Zach.W. Dean) وهو من القوات الجوية الأمريكية ، وكان قبل ذلك يعمل مهندساً للبترول في ولاية أوكلاهوما Oklahoma ، وعندما سألته (الحديث هنا يدور بين إدوارد والكابتن زاك) عن طول الفترة التي أمضاها كأسير ؛ أجابني بالقول : سنتان وأربعة أيام . ولقد توقعت منه أن يضيف عدد الساعات والدقائق ولكنه لم يفعل بل قال لي : إن الحمر يضغطون عليك حتى نقطة الموت ثم ينقذونك ... ثم يعاودون الضغط حتى ترى باب الموت ، وعندما تكون على وشك دخوله فإنهم يشدونك بعيدا عنه . ونظر إليّ زاك كما لو كان مترددا في الاسترسال ثم قال : إنك ربما لاتصدق ما سأقصه عليك ، ولكن بعد أن يكرر الحمر معك ذلك الأسلوب عدة مرات فإنك تشعر بالعرفان لهم لإنقاذهم حياتك . إنك تفقد أحاسيسك وتنسى أنهم كانوا الأفراد الذين كانوا على وشك أن يقتلوك ... بل إن كل ما تعرفه وتحسه هو أنه عندما كنت على وشك الهلاك فإنهم أنقذوك ... لقد فعلوا ذلك لكي يستنزفوا كل قواك الفكرية ، وحتى تشعر بالعرفان والامتنان لهم لدرجة أنك تكون مستعداً أن تفعل أي شيء يريدونه »[1] .

ويمضي إدوارد هنتر في سرد قصته مع الكابتن زاك فيقول : « وتوقف زاك عن الحديث لبرهة من الزمن ، وكان يمكنني ملاحظة أنه عاد في تذكر الماضي الفظيع ... ربما تذكر الحفرة التي وضع فيها هو وزميل أمريكي آخر يدعى (فرانك نول Frank Noel) والبالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً ، وهو مصور من وكالة أنباء أسوشيتدبرس ... لقد حُجز كلاهما في تلك الحفرة المعزولة لمدة ستة أسابيع كعقاب لهما لمحاولتهما الهرب . وبعد هذه البرهة من الزمن التي سرح فيها زاك بذهنه بعيداً أفصح لي عن الطريقة التي يمارسها الشيوعيون معهم ، والتي تظهر اهتمامهم البالغ

(1) Brain Washing - The Story of Men Who Defied It, Edward Hunter - Farrar, Straus and Cudahy. New York 1956 - Printed In The U.S.A .

بضرورة معرفة كل مايحدث في معسكرات الأسر فقال : لم نكن نستطيع أن نخفي شيئاً عنهم . لقد كان واضحاً رؤية مدى تأثر زاك المؤلم من الأثر الذي كان سلوك الحمر يتركه عليه ... فلقد كان وَهْمُ أن الشيوعيين يعرفون كل شيء عن الأسرى واحداً من أشد أسلحتهم قوة ... إن الهدف من ذلك هو تحطيم الروح المعنوية للأسرى وجعلهم يدركون أن أي محاولة للهروب ستنتهي بالفشل حتى قبل أن يقوموا بتنفيذها . وهذا الأسلوب أيضاً يجعل الأسرى يفقدون الثقة في بعضهم بعضا حيث يقوم الحمر بإذاعة أمثلة عديدة عن جنود أسرى قاموا بخيانة زملائهم وأقاربهم لجعل بقية الأسرى يخافون بعضهم بعضا . وهذا ما دعا زاك إلى القول : إنك لاتستطيع أن تثق في أي فرد ، إن الطريقة التي يمسك بها الصينيون الأمور ، وقدرتهم على معرفة كل شيء كانت تجلب الفزع إلى النفوس . وبالرغم من ذلك ـــ كما يقول إدوارد هنتر ـــ فإن الحقيقة هي أن الحمر أنفسهم هم الذين شيدوا هذا الوهم ... فهم لم يعرفوا كل شيء ... فما هو الذي لم يعرفوه ؟ إن تجربة (زاك) نفسها أوضحت مالم يعرفه الصينيون ... حيث يقول زاك : إن مجموعة صغيرة من الرجال الماسونيين بقوا بدون أن تعرف هويتهم الحقيقية من قبل الصينيين أثناء أسرهم لهم ... فلم يعرف الحمر أبداً بهذا السر ... مما دفع المجموعة التي كانت في الأسر إلى التمتع بروح معنوية عالية ... وقد شعر الأسرى بأن مجرد أن الحمر لم يتوصلوا إلى ذلك السر فإن هزيمتهم وانهيارهم المعنوي في الأسر قد أصبح أمراً بعيداً »[1] .

ويكمل إدوارد هنتر قصته مع الكابتن زاك بالقول : « وعندما سألت زاك عن كيف كان الحمر قادرين على الادعاء بمعرفة كل شيء في حين أن مثل هذا السر قد بقي خافياً عليهم أجابني قائلاً : إن العديد من الرفقاء الأسرى لم يعرفوا الأسرار التي لم يتوصل إليها الحمر ، ولكنهم سمعوا عن الأسرار التي علم بها الشيوعيون . ولو كنا نستطيع أن نحصل على صورة أوضح ، أو لو كان في الإمكان أن تتسرب

(1) (مرجع سابق) . Brain Washing - The Story of Men Who Defied It, Edward Hunter

لنا معلومات عن هذه الأمور فإنه كان يمكننا بالطبع أن نكون أكثر جرأة في الأسر . كان يمكننا أن نتبادل المعلومات بيننا ــ بين الأسرى ــ ولكننا لم يكن لدينا الجرأة على ذلك لأننا كنا قد فقدنا الأمل في أن نحفظ أي سر عن الشيوعيين »(1) .

ويقول إدوارد هنتر : « إن الكابتن (زاك) أضاف سرا آخر لم يعرفه الصينيون فقد قال : إن الملازم هاريسون Harrison ، والذي أفرج عنه في تبادل للأسرى لم يكن ليطلق سراحه لو أن الشيوعيين كانوا قد عرفوا شخصيته الحقيقية ... إنه توماس هاريسون ابن عم رئيس فريق الحلفاء الذي تفاوض لتقرير وقف إطلاق النار في الحرب الكورية . إن العديد منا نحن الأسرى قد علم بذلك ولكن لا أحد منا ذكر ذلك للحمر . في وسط هذا الجو عاش (زاك) ؛ وهو لا زال يتذكر أنه لم يشك مطلقا لثانية واحدة أنه سيكون حراً مرة أخرى ... ويقول : لم أعرف كيف سيفرج عني ، ولكنني كنت أدرك أن ذلك سيحدث . إن الحمر يمكنهم تحطيم عقل فرد ما إذا ما هم حققوا شيئين ... أن يحرموه من وضوح العقل ... وأن يشوشوا على أحساسه بقيمه . لقد رأيت رجالا ــ كما يحكي الكابتن زاك ــ يضحون بحياتهم في سبيل لفافة تبغ ... إنهم يجوعون أنفسهم حتى الموت عن طريق قيامهم بتبادل اللقيمات التي كانت تقدم لهم في سبيل حصولهم على لفافة تبغ ... وربما كانوا يعلمون أنهم سيموتون بدون القليل من الغذاء الذي كان يصرف لهم ... ولكنهم أصروا مع ذلك على أن عقلهم لايستطيع أن يستمر صحيحاً بدون النيكوتين »(2) .

---

(1) (مرجع سابق) Brain Washing - The Story of Men Who Defied It, Edward Hunter .

(2) Brain Washing - The Story of Men Who Defied It, Edward Hunter . Farrar, Straus and Cudahy. New York 1956. Printed In The U.S.A .

الفصل الثالث

الغزو الثقافي للوطن العربي

- تاريخ ظهور وسائل الإعلام الحديثة (الطباعة - الصحف - الإذاعة - التليفزيون).
- كيف يتحقق الغزو الثقافي
- إمكانية التأثير على العقل الجمعي
- الشخصية القومية العربية (السلبيات - الإيجابيات).
- مظاهر الغزو الثقافي للوطن العربي.
- العوامل التي تساعد على تأثر العرب بالغزو الثقافي.
- كيف نستطيع مقاومة الغزو الثقافي.

علمنا في الفصلين السابقين كيف كان يستخدم غسيل المخ من خلال أساليب عديدة للسيطرة على فرد أو مجموعة من الأفراد أو حتى مجتمع بأسره بغية تبديل فكرهم وإحلال فكر وقيم واتجاهات عقلية راسخة بديلة .

وربما نستطيع القول إن استخدام غسيل المخ على كل فرد في المجتمع أمر غير ممكن من الناحية العملية ... فليس هناك تلك المعتقلات الضخمة التي يوضع بها أفراد المجتمع كافة لممارسة غسيل المخ على كل فرد منهم ... كذلك فإن الأمر يصبح بدون جدوى إذا ما تركت المصانع والمزارع والمتاجر والورش خالية ، وزج بأصحابها في المعتقلات لإصلاح عقيدتهم وفكرهم .

ومن المؤكد أن توسيع عمليات غسيل المخ التي حدثت على نطاق واسع في القرن العشرين في عدد من الدول قد أوضح لجماهير الشعوب أن ما من أحد منهم — كفرد — بعيد عن هيمنة الدولة إذا ما هو فكر بطريقة مختلفة أو هاجم الأيديولوجية التي تسير عليها تلك الدولة . ولهذا فإن توسيع عمليات الزج في السجون والمعتقلات أو حتى مستشفيات الأمراض العقلية كان يهدف ضمن ما هدف إليه إلى إظهار مجرد أمثلة حية للمصير الذي ينتظر أي فرد أو جماعة من الجماعات لكي يختلفوا مع أو ينقدوا أو يهاجموا السياسة التي كانت تسير عليها تلك الدول .

وبهذا التحذير الواضح فإن جموع الشعوب رضخت — إلى حين — للقمع وحافظت على استمرارها وبقائها وتنفيذها لأوامر سلطات تلك الدولة ما وسعها في ذلك الجهد .

ويبدو أن عمليات القمع هذه قد آتت ثمارها حتى بدون الزج في المعتقلات . فها هي ذي دولة كروسيا مورس فيها القمع في عصر جوزيف ستالين على أوسع نطاق ، ولكنها مع ذلك غدت دولة كبرى في العالم الحديث ولايمكن تفسير ذلك على أساس أن الشعب هناك يخاف من سلطاته فحسب ، بل يجب التأكيد على إيضاح أن عمليات غرس الفكر الماركسي قد نجحت حتى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية في التأثير على عقول الجماهير الروسية بدون زجهم في السجون ... وهذا

ما يمكن تسميته بمفهوم غسيل المخ الجماعي ... وحتى وقت قريب جداً كان من الصعب زحزحة شاب روسي نشأ وتربى وتعلم في بيئة سوفيتية كاملة عن إيمانه بأن الشيوعية أفضل له من أي فكر سياسي آخر .

كذلك فإن دولة كبرى أخرى في عالم اليوم ، ألا وهي الصين الشعبية ، مورست فيها عمليات لاحصر لها من عمليات التربية والتعليم والتثقيف الشيوعي في النصف الأول من هذا القرن حتى عدت من القوة بحيث تقنع أفراد شعبها بأن النهج الذي تسلكه بلادهم هو خير نهج لهم وللأجيال الصينية القادمة ، ويبدو أن الحال كان سيكون مشابهاً لأدولف هتلر لو أنه كان قد اكتفى بتنمية بلاده وتطويرها .. ولكنه وكما نعلم زاد من غروره وكبريائه وهاجم الجار تلو الآخر لفرض نظرياته العنصرية على كل الأجناس والشعوب المحيطة به فنسي أن للقوة المادية حدودا وأن للجيران قوة وبأساً .. فسقط وسقطت معه بلاده ليعيش شعبه فيما بعد تحت ذل التقسيم والاحتلال .

ويبدو أن التاريخ يعيد نفسه يوماً بعد يوم ، وعاماً بعد عام ليذكر الإنسان بمحدودية فكرة وتطلعاته . ولكن غريزة القوة والسيادة لاتعرف المنطق ولاتبالي بقصص التاريخ وعظاته .. ولهذا فإن أخطاء الإنسان تتكرر وتتناسخ كأنها قدر مسلط عليه ولاحيلة له أو لغيره من الفرار منه والاختباء من بطشه .

* * *

لقد استخدم إذن رجال السلطة في كثير من بلدان العالم في القرن العشرين عمليات غسيل مخ جماعية لإقناع عامة أفراد الشعوب بالتخلي عما يعتقدون أنه خطأ ، والتحلي بما يعتقدون أنه صواب ... وكانت أهم وسيلة استخدموها هي غمر المجتمع كله من أقصاه إلى أقصاه ببرامج منظمة تنشرها وتبثها وسائل الإعلام المختلفة بصفة دائمة لاتنقطع ولاتخف حدتها بأي صورة من الصور .

وفي الحقيقة فإن أغلب وسائل الإعلام الحديثة قد ساعدت بصورة مباشرة في إظهار مقدرة ونفوذ الديكتاتورية الحديثة في الكثير من بلدان العالم ... وإنها لو لم تكن موجودة لديهم لما استطاعوا تشكيل عقول جماهير الشعوب بمثل ما وصلوا إليه في القرن العشرين . ومع ذلك فكل سلاح يمكن أن يستخدمه صاحبه ضد الآخرين

لإرهابهم ... ولكنه كذلك يمكن أن يستخدم ضده هو نفسه ... وذلك لأن إرادة الشعوب وإن كانت قادرة على تحمل الظلم إلا أنها لايمكن أن تهزم أمامه .

وفيما يلي نظرة سريعة توضح لنا تاريخ بدء ظهور وسائل الإعلام المختلفة التي تمارس عبرها الديكتاتوريات أو الأعداء عمليات التأثير على عقول الجماهير بما يتوافق مع مصالحها وأهدافها :

تاريخ بدء الطباعة :

« بدأت أولى الخطوات نحو الطباعة عندما استخدم الصينيون حروفاً خشبية للطبع على الورق ، وكان ذلك قبل ظهور المسيحية . وبعد ذلك وصلت هذه الحرفة (حرفة صنع حروف الكتابة) إلى أوروبا ربما عن طريق التجار العرب خلال القرن الخامس عشر . وقد اخترعت الطباعة المتحركة فيما بعد بواسطة (جوتنبرج Gutenberg) بمدينة (ماينز Mainz) بألمانيا .

وقد طبع بهذه الطريقة إنجيل جوتنبرج عام 1450 ، وذلك بعد حوالي عشرة أعوام تقريباً من اختراع هذه الطريقة . وقد وصلت الطباعة إلى إنجلترا بواسطة (كاكستون Caxton) وهو أول طباع بريطاني ولد في مقاطعة كنت وتعلم المهنة وحملها إلى إنجلترا من مدينة (كولون Cologne) بألمانيا ، وأسس في (وست منيستر Westminister) أول مطبعة إنجليزية عام 1477 . و لم يحدث بعد ذلك أي تقدم فني على الطباعة حتى جاء (إيرل ستانهوب Earl Stanhope) 1753 - 1816 حيث اخترع الطباعة الحديدية »[1] .

تاريخ ظهور الصحف :

« لم تكن الصحف بالصورة المعروفة بها الآن موجودة قبل القرن السابع عشر عندما ظهرت صحيفة يومية صغيرة تسمى الـ (الرسائل الإخبارية Newsletters) طبعت ووزعت في المقاهي والنوادي ... إلخ وأرسلت بالعربات التي تجرها الخيل من العاصمة لندن إلى ضواحيها . وبالرغم من ذلك فإن تطور الصحف قد تأخر

---

(1) (مرجع سابق). The Great Encyclopeadia of Universal Knowledge

نتيجة صدور ما سمي (بقانون الختم Stamp Act) عام 1712 حيث طلب من الصحف حمل خاتم الحكومة . وبحلول عام 1772 صدرت في إنجلترا أول صحيفة إنجليزية قومية حديثة سميت (صحيفة النهار Morning Post) ثم أعقبتها صحيفة (التايمز The Times) عام 1785 والتي ما جاء عام 1814 حتى أخذت تطبع بمطابع بخارية . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أخذ تقدم الصحف وتطورها يحدث في مختلف الاتجاهات بإيقاع سريع »[1] .

تاريخ الإرسال الإذاعي :

« لقد بدأ الإرسال الإذاعي بصورة رسمية في إنجلترا عام 1921 ، ولكن كان هناك محاولات سبقت ذلك كللت بالنجاح . ففي عام 1904 أذاع (جوزيف شامبرلين Joseph Chamberlain) خطاباً من قاعة الاتحاد النقابي Guildhall إلى عدد من المستمعين في منازلهم عن طريق نظام الإليكتروفون Electrophone . أما في الولايات المتحدة فقد أدخلت نظام الإذاعة قبل ذلك بعامين . وفي عام 1922 فتحت شركة ماركوني Marconi محطة لندن للبث الإذاعي وسميت (2 Lo) حيث أخذت السيمفونيات الموسيقية تذاع بصورة مستمرة . وفي عام 1926 بدأت هيئة الإذاعة البريطانية B.B.C . في إرسال برامجها . ولما أخذت الإذاعات تنتشر في الكثير من بلدان العالم فقد دعت الحاجة إلى إنشاء الاتحاد الدولي للبث الإذاعي وذلك عام 1925 حيث أخذت اجتماعاته تعقد بصورة سنوية لتنظيم قنوات البث الإذاعي »[2] .

تاريخ ظهور الإرسال التليفزيوني :

« ظهر البث التليفزيوني لأول مرة في إنجلترا عام 1936 وذلك عن طريق محطة خاصة للبث في منطقة (ألكسندرا بارك Alexandra Park) شمال العاصمة البريطانية لندن ... وذلك بالاتفاق مع هيئة الإذاعة البريطانية »[3] .

---

(1) (المرجع السابق) . The Great Encyclopaedia of Universal Knowledge

(2) (المرجع السابق) . The Great Encyclopaedia of Universal Knowledge

(3) (المرجع السابق نفسه). The Great Encyclopaedia of Universal Knowledge

تلك كانت أهم وسائل الإعلام التي تستخدم اليوم إما في البناء والتعليم والاتصال ... وإما للتهديم وبث القلاقل والإشاعات والسيطرة على عقول الناس . فهي مثلها في ذلك مثل أي اختراع بشري يعتبر سلاحا ذا حدين ... يتوقف استخدامه على من يقوم بالسيطرة عليه وتوجيهه ... ولما كان البشر يضمون فيما بينهم الخيِّر والشرير فإن وسائل الإعلام تعتبر وسائل يستخدمها كلا النوعين من البشر .

ولاشك أن الإنسان يصاب بالدهشة حينما يعرف أن زعيماً أمريكياً رائداً في التاريخ الأمريكي الحديث لم يجد بين يديه حينما قاد الثورة الأمريكية ربما إلا وسيلة واحدة من كل تلك الوسائل لكي يجمع خلفه المتطوعين الأمريكيين للإطاحة بالإمبراطورية البريطانية بعيدا عن الأراضي الأمريكية عام 1776 .. إن جورج واشنطن هذا لم يجد الإذاعة أو التليفزيون أو أجهزة الاتصال الموجودة الآن لكي يفعل ذلك كله ، ولكنه كقائد شجاع يتسم بالعبقرية استطاع حشد الصفوف وتنظيم الجبهات وجني ثمار النصر .

وإذا كان هذا هو حال واشنطن فكذلك كان حال إبراهام لينكولن الذي أنقذ الولايات المتحدة من خطر التقسيم وانتصر في الحرب الأهلية الأمريكية (1861 - 1865) ... فلا الشماليون شاهدوه في شاشات التليفزيون ، ولا الجنوبيون سمعوه في المحطات الإذاعية ، ولكنه استطاع بوسائل إعلامية بدائية إلى حد ما التأثير على عواطف وعقول الجماهير فحقق النصر ، ووحد البلاد المترامية الأطراف حتى يومنا هذا .

وإذا كان أمثال هؤلاء الرواد قد استطاعوا بجهودهم الخاصة وبإمكانياتهم المحدودة استلهام الناس وحفزهم على العمل البناء وتركيز جهودهم من أجل تحقيق الأهداف ، فلنا أن نتخيل اليوم وقد أصبح هناك العديد والعديد من وسائل الإعلام التي يمكن استخدامها لأي غرض كان في أسرع وقت وبأضمن النتائج .

إن استخدام وسائل الإعلام المكثف مهمة حيوية تقوم بها كل دولة من الدول لتوحيد صفوف أفراد شعبها وحثهم على الاتحاد والانتماء وتطوير مجتمعهم وتوجيههم

الوجهة التي تعود عليهم وعلى المجتمع بالخير والرفاهية ... ولهذا فقد غدت وسائل الإعلام نفسها سلاحاً رئيسياً ــ بدل السلاح الناري الذي يستخدم في المعارك ــ لتخريب وتعكير صفو البلدان التي تقف موقف العداء العقائدي مع الدول الأخرى . ومعنى هذا أنه إذا كانت كل دولة توحد صفوفها باستخدام وسائل إعلامها المختلفة ، فإن كل دولة كذلك معرضة من وسائل الإعلام الأجنبية للغزو الإعلامي الذي يختلف بصورة أو بأخرى عن اتجاه وسائل الإعلام التي تستخدمها الدولة وخاصة إذا كانت صادرة من أعداء يضمرون الشر لها .

وفي عالم اليوم الذي نصفه بأنه أصبح صغيراً مثل القرية البسيطة التي كانت موجودة منذ القدم ، فإن وصفنا هذا يعود إلى أن وسائل الإعلام أصبحت تربط أرجاء العالم كله بعضها ببعض ... فما يحدث في مكان بعيد يعرف في أقاصي الأرض في نفس اليوم ... فيشعر الأفراد في العالم كله بنوع من وحدة المصير الإنساني ، وأن ما يحدث خيراً في مكان ما يسعد الأماكن الأخرى ... وأن ما يحدث شراً في مكان آخر يؤذي جموع الناس في البقاع البعيدة .

وهذا راجع أساساً إلى أن كل دولة من دول العالم في العصر الحالي قد أخذت تبني المنشآت الإعلامية من إذاعة وتليفزيون ودور نشر صحفية ومؤسسات لطباعة الكتب والدوريات والنشرات .

ولم تعد المحطات الإذاعية على كثرتها هي الوحيدة التي يتبادل سماعها الناس في دول مختلفة في النظام السياسي أو العقائدي ... ولكن أصبحت الكتب والأفلام والنشرات والإعلانات وأجهزة اتصال أخرى عديدة مثل الهاتف والتلكس والتلغراف يتم تبادل استخدامها كذلك ، ومهما حاولت أي دولة من الدول وضع قواعد لتنظيم استيراد وسائل الإعلام وقصر الوارد منها على ما يتفق وسياستها وقيمها وعاداتها فإن الغزو الثقافي والإعلامي يجد الفرصة المناسبة للتخفي وراء أبسط أنواع الدعاية .

وهذا ما جعل دول الكتلة الشرقية مثلاً بعد الحرب العالمية الثانية تقيم حولها سوراً ثقافياً وعقائدياً لمنع دخول الأفكار والقيم الرأسمالية التي كانت من الممكن ــ

كما اعتقدت تلك الدول ــ أن تؤثر على التجربة الاشتراكية الحديثة التكوين فيها وتمنع تطورها وتقدمها .

كذلك هذا ما جعل العالم كله يشهد بانتهاء الحرب العالمية الثانية ما سمي في ذلك الوقت ــ وربما حتى وقت قريب ــ بالحرب الباردة ، وهي في مجملها حرب ضارية استخدمت فيها وسائل الإعلام بين الدول الشيوعية والدول الرأسمالية ... ومع أن كليهما كان حليفاً للآخر يعتمد عليه في أثناء الحرب العالمية الثانية ضد النازية والفاشية إلا أن الأحوال تغيرت وتبدلت ــ بعد الحرب ــ حيث كانت خلاصة الدوافع التي وقفت وراء الحملة التي شنتها الدول الرأسمالية ضد الدول الشيوعية هي إنكار الأخيرة لحق تقرير المصير للدول الأوروبية الواقعة في شرق أوروبا ، وكذلك على أساس أن الشيوعية هي الشر الوحيد المتبقي في العالم والذي يجب إنهاؤه حتى يسود العالم أجمع الخير والسلام . كذلك فإن الدوافع الأساسية التي وقفت وراء حملة الدول الشيوعية ضد الدول الرأسمالية تركزت على أن الأخيرة قد خضعت حكوماتها إلى مجموعة من كبار رجال المال الذين احتكروا المجتمع لتحقيق مصالحهم ، وأن الاستغلال الواقع في هذه الدول قد أفسد المجتمع وأفرز كل مظاهر الانحلال الخلقي والسلوكي للإنسان ، وبالتالي يجب العمل على إنهاء ذلك .

وقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين إنفاق مبالغ لايمكن تقدير قيمتها في كلا المعسكرين لكي يستطيع واحد منهما الفوز على الآخر ... وقد ظهر فيما يبدو لكليهما أن ذلك أمر لايمكن تحقيقه عملياً فأخذ كل معسكر منهما يؤثر على دول صغيرة حديثة الاستقلال ليضمها إلى معسكره أو لكي يضمن أنها ستكون دولة صديقة له ... أو لكي يجعلها تعتنق الأيديولوجية الاقتصادية والاجتماعية التي يسير هو عليها .

كيف يتحقق الغزو الثقافي :

1 ــ توسيع البرامج الإعلامية التي تبث للوصول إلى مجتمع من المجتمعات فإذا

ما سمع أفراد ذلك المجتمع إذاعات أجنبية تتحدث بلغته وتذيع برامج ثقافية وأغاني فولكولورية خاصة به وبمجتمعه ، فإنه سيظن أن هذه الإذاعة صديقة يهمها أمور مجتمعه وتطوره ... ولكنه ما إن يسمع البرامج الإخبارية أو السياسية التي تبثها وتنشرها وسائل الإعلام من تلك الدولة حتى يلاحظ اختلافاً بينها وبين البرامج الإخبارية التي تبثها وتنشرها وسائل الإعلام في بلده فيحدث له تشويش فكري ... فهل يختار أن يصدق إذاعات بلده أو تلك الإذاعة التي تخبره بأحداث ربما لم يسمعها من قبل تحدث في بلده ؟

2 ــ إظهار عوامل الضعف في المجتمع سواء أكان ذلك إظهاراً لأنواع قد تكون موجودة أو غير موجودة من الفساد أو من الظلم الاجتماعي أو من التعصب الديني ، وذلك كله لإشعار المستمعين من أبناء ذلك البلد أن ما قد يعرفونه عن السلبيات الموجودة في مجتمعهم إنما هي أقل مما تتحدث عنه حكوماتهم وأجهزة إعلامهم . وقد تستقي وسائل الإعلام الهجومية معلوماتها عن سلبيات ذلك المجتمع من مصادر مخابراتها أو من عملائها ... أو ربما تقوم باختلاق أنواع من الفساد ليست موجودة بالفعل في ذلك المجتمع ... وهي تسعى من وراء ذلك للتقليل من ثقة المواطنين ببلادهم ، وبالتالي تقل مشاركتهم وتنقص دافعيتهم للعمل والإنتاج .

3 ــ إطلاق الإشاعات المضللة للنيل من صلابة البنيان السياسي والاجتماعي في المجتمع ... فتقوم أجهزة الإعلام الهجومية (المعادية لمجتمع من المجتمعات) بإذاعة إشاعات عن ظهور أمراض أو سرقة ملفات أو وثائق أو حدوث انهيار لمشروع من المشروعات أو موت أحد من المسئولين أو إعدامه أو قتله أو تأجيج صراع يحدث بين تيارين من تيارات الرأي العام الداخلي إزاء قضية معينة ... فما إن يسمع بعض الأفراد في إذاعة معادية عن خبر هام يهم بلده إلا وينشره بين معارفه وجيرانه ... وتنتقل الإشاعة من فرد إلى آخر ، ومن حي إلى حي حتى تنتشر في المجتمع في وقت قصير ... مكونة رأياً عاماً قد يكون في كثير من الأحيان زائفاً ولكنه ضد الخط العام أو الفلسفة العامة التي تتبعها حكومة ذلك المجتمع .

ويبدو أن مطلقي الإشاعات يقومون قبل إطلاقها بدراسة طبيعة المجتمع الذي ينوون بث الإشاعة فيه وهم لذلك يختارون نوع الإشاعة التي تتفق مع مشاعر الناس واهتمامهم ... فإذا كان الزعيم محبوباً فالإشاعة تظهر أنه مريض ... وإذا كانت القيادات متماسكة في جميع المواقع تخرج إشاعة أن بعض كبار القادة قد اعتقلوا أو أعدموا أو انتحروا نتيجة لخيانتهم أو رفضهم لسياسات عامة ... وإذا كانت بعض السلع الغذائية قليلة فالإشاعة تنطلق لإظهار أن سلعاً أخرى ستختفي من الأسواق ... وإذا كان هناك حالات مرضية نتيجة لانتشار تلوث أو عدوى فإن الوفيات بالمئات أو بالألوف ، وإن من المنصوح به تناول بعض العقاقير ، ولكن الإشاعة تصرح بأن هذه النوعية من العقاقير غير موجودة في أسواق ذلك المجتمع ... وهكذا تتلاعب الإشاعات بالرأي العام فتؤثر على المواطنين وعلى الأجهزة الرسمية المعنية في المجتمع .

وفي الحقيقة فإن خطورة الإشاعة لاتنحصر في تأثيرها على الرأي العام فحسب ، بل إن الأهم من ذلك أن هناك صعوبة كبرى في معرفة أين بدأت وأين انتهت ... والعجز في السيطرة على الإشاعة في مجتمع متخلف به نسبة عالية من الأمية يزيد المشكلة تعقيدا ... كذلك فإن عوامل قوة تأثير الإشاعة على الرأي العام تكمن في عدم وجود الأجهزة الوطنية الموثوق بها والتي تبث الأخبار بالكم والنوع المناسبين ... فمجتمع لاتعيره حكومته إلا أقل الأخبار والمعلومات هو مجتمع سهل اختراقه بالإشاعات حتى إذا كانت مضللة أو كاذبة .

4 ـــ تستخدم وسائل الإعلام المعادية لمجتمع من المجتمعات وسيلة تحطيم القيم الدينية والأخلاقية أو الشوشرة على مدى مصداقية بعض جوانبها أو إدخال عناصر وموضوعات لم تكن في أصولها وتراثها الأول . وهذا لايتم عادة بصورة سافرة في بداية أي خطة لتنفيذ ذلك ... بل إن ما يحدث هو جعل أفراد ذلك المجتمع يشعرون أن مجتمعات أخرى تعيش أكثر سعادة وأكثر بهجة لأنها تسلك سلوكيات مختلفة وتفكر بطريقة مختلفة ... ولهذا يدخل الإعلان هنا كوسيلة فعالة لتوصيل تلك الفكرة بدون الإشارة إليها مباشرة ... فالفتيات الجميلات في المجتمعات الأجنبية

يرتدين ذلك الزي لأنه يجعلهن يفكرن بطريقة عملية مما يجعلهن تنتجن أكثر وتصبحن أكثر نجاحاً في حياتهن ... أو أن أنسب مكان للتفكير في مشروع من المشروعات هو أن تذهب للإقامة في فندق بعينه فهو يوفر لك أنسب الظروف وخاصة أثناء الليل في المطعم الخاص بالفندق أو بالملهى الليلي . أو يقوم الإعلان بإظهار أن الذي يتناول المشروب المعلن عنه سوف يربح جوائز مالية قيمة ... أو أن أنسب سيارة تركبها تبرز شخصيتك هي السيارة المعلن عنها الآن في الصحف أو الإذاعة أو التليفزيون أو في إعلانات الطرق ... وتتعدد الأمثلة التي يظهر على صورتها الإعلان ... وهي كلها تظهر أسلوباً معيناً في الحياة يسلكه المكتب الذي يعلن عن هذه الإعلانات في تلك المجتمعات التي سيتم السيطرة عليها إعلامياً . والنتيجة هي أن الأفراد يقلدون بعضهم البعض فينتشر اتجاه يسعى لتحقيق ما هدف إليه المجتمع الغازي إعلامياً وذلك بأبسط الطرق وأقل التكاليف ... وما إن تمر السنوات حتى يصبح عامة أفراد ذلك المجتمع الذي انتشرت فيه مثل هذه الإعلانات وقد أخذوا يجرون بدون أي وعي وراء ما تسيطر عليهم به وسائل الإعلام الأجنبية .

وإذا ما سعى المجتمع برمته وراء الغزو الإعلامي الأجنبي فإن ذلك يعني على أقل تقدير أن ارتباطه القديم بقيمه سواء أكانت دينية أو أخلاقية سوف يهتز وربما يخبو ويضعف لأن القيم الجديدة أخذت طريقها إلى عقله ، ومن عقله إلى سلوكه .

وإذا ما وصل مجتمع من المجتمعات إلى ذلك المستوى فإن ولاءه سيكون إلى المجتمع الأجنبي الغازي أكثر من ولائه إلى أي مجتمع آخر .

ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن ما نسمعه بين الحين والآخر من أن مجتمعا من المجتمعات يفرض رسوماً جمركية على السلع الواردة إليه إنما هي ليست نتيجة بواعث اقتصادية فحسب بل هي كذلك للحيلولة دون افتتان الأفراد بالسلع الأجنبية مما يجعلهم يحبون المجتمعات التي تصنعها وبالتالي يتغير اتجاه عقلهم وفكرهم وسلوكهم ناسين مجتمعهم وقيمهم وتاريخهم .

إذن فالغزو السلعي ــ عن طريق الإعلان ــ لايهدف فقط إلى التبادل التجاري

أو إلى إقامة علاقات محبة بين الشعوب ولكنه يعني إذا ما زاد عن حدوده أن مجتمعاً « غازيا » سوف يسيطر ــ من بعيد ــ على مجتمع آخر إلى أن يضعفه ويصبح تابعاً له ... وإذا ما حدث ذلك ــ وهو يحدث إن أمعنا النظر في كثير من المجتمعات العربية ــ فإن عملية غسيل المخ الجماعية عن طريق وسائل الإعلام قد تنجح .

إمكانية التأثير على العقل الجمعي :

إن أول من استخدم مصطلح العقل الجمعي في العصر الحديث Collective Mind هو عالم النفس الشهير كارل جوستاف يونغ Jung الذي كان واحداً من أهم أتباع سيجموند فرويد مؤسس علم التحليل النفسي إلا أنه استقل عنه وأسس نظريته المعروفة به في علم النفس والعلاج النفسي باسم علم النفس التحليلي Analytical Psychology وبدون الدخول في تفصيلات معقدة فإن العقل الجمعي هو العقل الذي يفكر به مجمل الأفراد في المجتمع ، وما يؤمنون به جميعاً وما يتحمسون له ، وما يعتبرونه إيجابياً وسلبياً من الأمور ... وهو لايشمل فقط النمط الفكري والسلوكي السائدين الآن بل يشمل كذلك محصلة الأنماط التي كانت موجودة لدى البشر جميعاً في العصور الماضية .

ولكي يتم السيطرة على جماعة الناس يجب معرفة الخصائص العامة لها وكيف يمكن استغلال هذه الخصائص للنفاذ إلى العقل الجمعي لها وتوجيهه الوجهة المطلوبة .

فمن أهم العناصر في السلوك الجمعي ــ مثلاً ــ أن كل فرد فيها يتناسى قيمه الشعورية التي كان يسلكها ويبدأ في تقمص القيم الجماعية السائدة . فأنت إذا ما حضرت احتفالاً من احتفالات القبائل في أفريقيا فإنك لاتستطيع أن تصمد أمام رغبتك في أن تقلدهم في بعض ما يقومون به أثناء الاحتفال ... وهذا يعني قوة أثر السلوك الجمعي على سلوكك الذي تعودت القيام والالتزام به في الاحتفالات الخاصة بك في وطنك ... وأنت إذا وجدت جماعة من الناس يتجمعون حول أحد الأفراد الذين يبيعون سلعة ما سوف تجد نفسك مدفوعاً بطريقة لا إرادية لكي تتطلع

بنفسك إلى الذي يبيعه البائع ... فالسلوك الجماعي يؤلف وحدة متماسكة يصعب على أغلب الأفراد إلا أن يسلكوا مثله ويقلدوه . ومن هنا يبرز دور القائد في هذه الجماعات ... فالجميع يعتبرونه أباً أو معلماً روحياً لهم ، ولهذا فهم يقلدونه ويسيرون على خطاه ... والقائد الذي يتمتع بالقوة التي تجعله يجذب إليه أعضاء الجماعة هو القائد الذي يظهر دون بقية القادة مهما كان وزنه ومهما كانت إيجابية أو سلبية قيمه وأفكاره ، ولا شك أن مثل هذا القائد يتخذ من قوة الإيحاء وسيلة فعالة للسيطرة على الجماعة وتوجيهها الوجهة التي يطلب .

ومع ذلك فيجب التفريق هنا بين نوعين من القادة حتى لاتختلط علينا المعاني ... فهناك أولاً القائد الذي يظهر ربما فجأة في الجماعات التلقائية غير المنظمة مثل القادة الذين يظهرون في المظاهرات الجماهيرية أو الذين يظهرون في الاضطرابات السياسية المفاجئة أو في الانتفاضات الشعبية والثورات غير الناضجة . وهناك ثانياً القادة الذين ينظمون الجماعات الناضجة المنظمة ، فهم معروفون من قبل كل أعضاء الجماعة ، ومبادئهم وسلوكهم وأفكارهم معروفة وربما يكون لهم قادة مناظرون لهم في الكفاءة والريادة ، ولكنهم أقل تفوقاً منهم في العلم أو في الخبرة ... والقائد هنا لايؤثر على مشاعر الأفراد بل هو يقنعهم بالمنطق والحكمة والحجج العقلية ، وهو لذلك يتقبل بعض النقد منهم لأن هناك قدرا من الاتصال العقلي الدائم بينه وبين كل فرد .

ويمكن القول إن الكثير من جماهير دول العالم الثالث ومنهم العديد من جماهير بعض البلدان العربية يمكن وصفها بأنها جماعات لم تصل بعد إلى المستوى التنظيمي (لارتفاع نسب الأمية — وللفقر — ولوجود عادات وتقاليد لازالت متخلفة) ، وبالتالي يسهل التأثير على بعضها فكرياً نظراً لعدم معرفتهم بالقيادات الرسمية ولعدم وجود قنوات اتصال فيما بينهم وبين القادة الرسميين .

ويمكن اختراق جماعة غير منظمة بسهولة عن طريق إثارة مشاعر أفرادها أو إثارة حماس القائد الذي قد يظهر فيها فجأة ... فهو يندس في الجماعة (التجمهر أو المظاهرة المرتجلة) ويأخذ في ترديد شعارات وهتافات تستثير حماس الجماهير

فلا يلبث الناس أن يلتفوا حوله مرددين ما يردد بدون وعي أو فهم لما يحدث ؛ لأنهم ببساطة وجدوا أن حماس هذا (القائد) لايدل إلا على صدق والدليل على ذلك أن حماسه قد أخرجهم عن هدوئهم . فهو ــ أي القائد ــ صادق لأنه متحمس ... وهو صادق لأنه استطاع أن يجعلهم جميعاً يصدقونه . وطالما أن حماسهم هم أنفسهم قد ظهر بمثل هذه الصورة فإن هذا القائد يستحق أن يكون قائداً .

إن الجماعة غير المنظمة تلك سريعة الاستثارة لاتفكر بالمنطق الرصين ؛ فهم ــ أي أعضاؤها ــ خدعوا من هذا العدو الذي اندس بينهم لغوايتهم والتأثير عليهم للإضرار بسمعتهم أو سمعة بلادهم .

وهذا ما دعا واحداً من كبار علماء النفس إلى تفسير قبول أفراد الجماعات غير المنظمة للإيحاء من القادة بأنه بسبب اختفاء الشعور بالمسئولية ... « فالفرد لايتحمل المسئولية طالما القائد يدعوه إلى اتباعه »[1] .

ومن هنا تبزغ كل أنواع التخريب والدوافع العدوانية التي لم تكن لتظهر لولا أن دخل الفرد مثل هذه الجماعات البدائية غير المنظمة .

الشخصية القومية العربية :

نحن نقول عن قناعة عقلية خافية وظاهرة إن العرب جميعاً سواء أكانوا يعيشون في المشرق أو المغرب إنما يكونون بنياناً حضارياً واحداً اتفقنا على تسميته بالقومية العربية .

والقومية العربية لها من الخصائص ما يجعلها بدون شك متفردة عن غيرها من القوميات الموجودة في عالمنا المعاصر ... فهناك اشتراك في الدين الواحد وهناك اللغة

---

(1) (مرجع سابق). Wilhelm Stekel, M.D. Sadism And Masochism - Vol . I

الواحدة وهناك التاريخ الذي اشتركنا جميعاً في معايشته وهناك لذلك المستقبل الذي سيضمنا جميعاً معاً .

ولهذه الأسباب الهامة نشأت القومية العربية التي تشكل اليوم واحدة من أهم القوميات الموجودة في العالم الحديث .

والقومية القوية الأصيلة دائماً ما يوجد لها أعداء حاقدون على تفردها ومقوماتها وجوهرها وتراثها ... وهؤلاء الأعداء مختلفون ؛ فهم لايمكنهم أن يكونوا عرباً مثلنا لأنهم لاتنطبق عليهم صفات ومقومات العربي ... ولهذا فهم يجب أن يكونوا مختلفين عنا ... واختلافهم هذا يجعلهم حاقدين معادين ، وبالتالي فهم لايستطيعون أن يصادقوا العرب لأنهم مملوءون بالدوافع العدوانية التي تجعلهم ينظرون لنا كما لو كنا ننوي لهم ضرراً أو نكيد لهم كيداً .

كذلك فالقومية القوية الأصيلة دائماً ما يوجد لها أصدقاء حقيقيون يوثق بهم ويعتمد ... فهم يتعاملون معنا وينظرون لنا نظرة الصديق المتعاطف مع صديقه ... المتفهم لمشاكله وطموحاته ... وهم لايضيرهم ، بأي حال ، بل ينفعهم ويشد من أزرهم أن يكون لهم منا صداقة قوية قائمة على التعاون والاحترام .

ونحن كعرب لا يجب أن نعيش حياتنا كما لو أن كل من حولنا في عالم اليوم أصدقاء ... فإذا فعلنا ذلك فسوف نشبه الحمل الوديع الساذج الذي يعتقد أن الله لم يخلق في الدنيا ذئاباً ... مع أنه سبحانه وتعالى قد أوضح لنا ذلك منذ بداية خلقه لنا .

ولكي يعرف الإنسان نفسه جيداً ويحيط علماً بصفاته المختلفة يجب عليه أن ينظر لمرآة ... ومرآة الشعوب هي وجهات النظر المختلفة حولها . أي ماذا يقول عامة شعوب الأرض عن العرب من صفات إيجابية وسلبية . لأن الصديق يتصرف معنا بمقدار تقويمه الإيجابي لنا ... والعدو يعادينا بمقدار تقويمه السلبي لنا ... ولهذا ففي الصفحات القليلة القادمة سوف أوضح وجهتي النظر التي يرانا بهما العالم في العصر الحديث .

أولاً : وجهة النظر الإيجابية عن العرب :

1 – إن العرب يشكلون تراثاً إنسانياً رفيعاً . فأرضهم مهد الديانات القديمة التي يؤمن بها مئات الملايين من البشر في شتى بقاع الأرض .

2 – إن التاريخ العربي ساعد مساعدة مباشرة على إثراء الحضارة الحديثة حيث شارك العرب الأقدمون في رسم الخرائط واكتشاف نظريات علمية عديدة في الرياضيات والفلك والكيمياء والعلوم والاجتماع والطب .

3 – إن موقع الوطن العربي يشكل قلب العالم سواء القديم أو الحديث ... فهو موقع إستراتيجي هام يؤثر على خطوط الملاحة الدولية ، وبالتالي فهو مهم بالنسبة لكل دول العالم .

4 – إن للعرب ثروات بشرية كبيرة فعددهم سيصل قريباً إلى مائتي مليون نسمة وهو رقم كبير يتوراث أفراده الثقافة العربية والقيم العربية والديانة فلا تندثر ولا تنسى .

5 – إن للعرب فئة من المثقفين والعلماء والخبراء في كل أوجه الحياة الحديثة ... وهذه الفئة تقود العرب أجمعين عاماً بعد عام نحو التطور والتقدم في كل المجالات .

6 – إن للعرب ثروات مادية ضخمة تساعد بشكل مباشر في تطوير البلدان العربية جميعاً بدرجة أو بأخرى مما يعني أن هذه الثروات آخذة في بناء القومية العربية وتدعيم الروابط بين العرب .

7 – إن الثقافة العربية تحمل مجموعة ضخمة من القيم الإنسانية النبيلة التي نادراً ما يجدها الإنسان خارج الوطن العربي ... مثل الكرم والصراحة وعزة النفس ونصرة الضعيف والمحتاج ، ورفض العدوان وحب السلام ، وهذه القيم تعطي وزناً أخلاقياً كبيراً للمواطن العربي .

ثانياً : وجهة النظر السلبية عن العرب :

ينظر لنا الأعداء في دول أجنبية ليست قليلة (بعضها يقيم معنا علاقات دبلوماسية واقتصادية) نظرة خاطئة بكل أسف ... وهذه النظرة تتواجد عادة بشكل غير رسمي ، ولكنها متأصلة في نفوس الأفراد والمؤسسات الصحفية والإعلامية والمالية والفنية ... ولاتعكس وجهات النظر السلبية تلك إلا قدراً كبيراً من الحقد والكراهية والروح العدوانية في نفوس أعدائنا في تلك الدول . وفيما يلي أهم وجهات النظر التي تنظر إلى العرب نظرة عدوانية سلبية :

1 ـ إن العرب قوم بدائيون تعودوا على الحياة في الصحراء بكل ما يعنيه هذا من أن عقليتهم عقلية غير قابلة للتطور العلمي الحديث . فالعربي يتواكل على ناقته التي تعطيه الغذاء والكساء ، ولم يستطع أن ينمي مدناً أو أن ينشئ مراكز حضرية تقوم فيها الفلسفة والعلم .

2 ـ إن العربي شرير مكار مخادع ... لايوثق به ولا بعهوده ... فهو تعلم الروح الشريرة من حياته في الخلاء ... فتعلم كيف يسطو على الأبرياء ، ويقتل كل من يختلف معه في الرأي أو في السلوك أو في المعتقد .

3 ـ إن العربي لايؤمن إلا بالغيبيات والسحر والتعاويذ ، ولهذا فكيف له أن يثق في العلوم والتكنولوجيا والحضارة الحديثة ... إنه ربما يقلد المتحضرين ولكنه لايستطيع أن يكون منهم لأنه جُبل على الإيمان بالخرافات والقوى الميتافيزيقية .

4 ـ إن العرب قوم دائماً على خلاف مع بعضهم البعض ... فهم مشتتون ومنقسمون على أنفسهم ... وهم يتقاتلون ويسفكون دماء بعضهم البعض في أي نزاع فيما بينهم ... وهم لايمكنهم الاتفاق إذ سرعان ما يخونون كل اتفاق حتى فيما بينهم ... ويعودون إلى القتل والتخريب والتدمير المتبادل ... فكل هذه الروح العدوانية في طبعهم الذي لن يتغير .

5 - إن العربي يميل إلى السلبية ... فهو أناني لايحب إلا ذاته ... وهو سلبي لأن قادته يخذلونه ، لأنهم بدورهم طماعون ولصوص يسعون إلى تكديس ثرواتهم الخاصة التي ينهبونها من خزائن شعوبهم ... ولهذا فالعربي يحب أن يكون سلبياً فلا يهتم بما يحدث للعربي الآخر طالما أن الضرر الواقع بعيد عنه ... وهذه السلبية لاتتغير في العرب لأنها كانت موجودة منذ أن عاش العرب في الصحراء .

6 - إن العربي كإنسان بدائي يميل إلى إشباع غرائزه ... فهو شره في طعامه ، شره في حبه للتملك ، شره في ممارسته الحسية ... شره في سطوته وعدوانيته ... وطالما وجدت قوى العدوان هذه في شخصية العربي فكيف يمكنه أن يسلك السلوك المتحضر الذي تتطلبه الحياة الحديثة .

كانت تلك أهم الإيجابيات والسلبيات التي تقال عادة عن العرب من أصدقائهم وأعدائهم في بلدان العالم المختلفة في تلك الأيام ... ولاشك أن أي تقويم للذات يجب أن لايغفل أي صفة حسنة أو سيئة تقال عنا نحن العرب حتى نستطيع أن نضع السياسات والبرامج المناسبة للتعامل مع أصدقائنا الذين يحترموننا وأعدائنا الذين يكيدون لنا كيداً .

فنحن لايجب أن نرتفع بذواتنا إلى علياء التعصب الأعمى لكى نُشعر الآخرين بأننا أفضل منهم ... وكذلك لايجب علينا أن نهبط بأنفسنا إلى الحضيض لكي يشعر الآخرون بأننا أدنى منهم في سلم الحياة الإنسانية .

والخطأ الذي يرتكبه بعض العرب أحيانا هو في الاعتقاد بالسلبيات التي يصفنا بها الأعداء ... ويبدو أن تكرار إذاعة السلبيات ـــ بدون إذاعة الإيجابيات ـــ جعلت البعض منا يصدقونها وكأن الآخرين بدون عورات وكأنهم لم يخترعوا ولم ينشروا الفساد في الأرض ، فتكرار الإيحاء بسلبياتنا أسقط منا فيما يبدو الضحايا وقد حان الوقت بالفعل لإيقاف سقوط المزيد .

ولكن لكي يتم لنا إيقاف ذلك في الوقت الحالي وفي المستقبل علينا أن نعلم كيف تتسلل وسائل الإعلام المعادية إلينا لكي تغزونا ثقافياً وتأكل في بنيان قيمنا وأفكارنا وتحقق فينا الأفكار والقيم الهدامة .

مظاهر الغزو الثقافي للوطن العربي :

لايمكن لوسائل الإعلام المعادية لنا أن تؤثر علينا نحن العرب إلا إذا درست خصائصنا وطباعنا وأسلوب حياتنا وطبيعة العلاقات الاجتماعية والأخلاقية التي نمارسها في حياتنا بصفة مستمرة ، وهي لكي تفعل ذلك فإنها تقرأ عنا كل ما نكتب سواء في السياسة أو الاجتماع ... في الاقتصاد أو في الفنون ... في الآداب أو العلوم . ولكي تقرأ عنا كل ذلك فإنها تستعين بعلماء كثيرين يأتون للعيش معنا أو قاموا — فيما مضى — بتفسير أسلوب حياتنا لاستنباط ما يهمهم عنا ، وما يجدون أنه وسيلة لهم للوصول إلى عقلنا وعواطفنا .

ولكن قراءة آدابنا وعلومنا من قبل أعدائنا لايكفي لهم لكي ينفذوا إلينا ... بل يبدو أن عنصراً هاماً آخر يساعدهم مساعدة مباشرة في تحقيق ذلك ... وهو مدى قدرتنا نحن على توظيف قوتنا ... هل نحن أمة قوية متحدة أو ضعيفة مبعثرة مفككة ... فإذا ما ضعفت ثقتنا بأنفسنا قلت قوتنا وضعفت ... وإذا ما ضعفت سهل النفاذ إلى أفكارنا وثقافتنا .

ولما كان ذلك صحيحاً إلى حد ما نتيجة عدم وحدتنا وسلبيتنا تجاه القضايا الهامة والمصيرية التي تواجه أمتنا العربية إذ نقف أمامها مبعثرين غير متفقين فإن هناك بلا شك قدرا واضحا من المظاهر التي تدل على أن مجتمعنا العربي تعرض ويتعرض لعمليات غزو ثقافي واسعة النطاق ... وأهم تلك المظاهر ما يلي :

1 — الأخذ بالنظريات الغربية أو الشرقية في رسم السياسات الاقتصادية والاجتماعية دون اعتبار لطبيعة المجتمع العربي ، مما يجعل التطور يسير بخطى بطيئة ومتعثرة في أغلب الأحوال ... مما يساعد مساعدة مباشرة على بقاء الجانب الأكبر من

أبناء الأمة العربية في مستوى معيشي منخفض في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية .

فقد حدث ويحدث افتتان من جانب بعض واضعي السياسات التنموية في الوطن العربي بالتجارب التي نجحت في العالم المتقدم ... فقاموا بنقل مثل هذه التجارب إلى البلاد العربية و لم يراعوا ظروف نجاح هذه التجارب في بلادها الأصلية ، و لم يراعوا الأسس التي كان يجب أن تراعى عند تطبيقها في الثقافة العربية ... فهل أفادت الاشتراكية أو الرأسمالية العرب ... وإذا كانت قد أفادت بأي قدر فما هي مظاهر فوائدها ... ؟ وإذا لم تكن قد أفادت ــ وهذا هو الأقرب للصواب ــ فلماذا التصميم على الاستمرار في الأخذ بها وتطبيق مبادئها ؟

2 ــ نزعة بعض كبار مثقفينا إلى الارتباط بالغرب أو بالشرق ... ولايقتصر الأمر بطبيعة الحال عليهم وحدهم بل يمتد ليشمل مجموعات كبيرة من التابعين لهم والمؤمنين بفكرهم والسائرين على نهجهم الأيديولوجي .

فلقد آمن الكثيرون منهم بالفكر الاغترابي برمته وقاموا بنقله إلى البلدان العربية بصور شتى منها العلمية ومنها الاقتصادية ومنها الثقافية ... وانتشرت النوادي الاجتماعية أو الأيديولوجية لتزيد من عدد الأعضاء وعدد ذوى النفوذ الفكري لتتكون جماعات ضغط تؤثر تأثيراً مباشراً على مجريات الأمور الاجتماعية والفكرية في الوطن العربي . لقد تناسوا ــ أو ربما يئسوا من إمكانية استرجاع المجد العربي والتفوق العربي ، ومع ذلك فهم متناقضون فيما بينهم ، فمنهم من يؤمن بالعقيدة الاشتراكية العلمية ومنهم من يؤمن بالعقيدة الرأسمالية . وتدور معارك طاحنة فيما بينهم تنسى في أثنائها قضايا العرب الأصلية والهامة .

3 ــ نزعتنا بصفة عامة إلى الاستهلاك والبعد عن الإنتاج ... فنحن نستهلك كثيراً وذلك لأننا مفتونون بالسلع الأجنبية ... ونحن لاننتج قليلاً ولايعود استهلاكنا

المسرف إلى إشباع الحاجات الأساسية الهامة بل يمتد ليشمل كل أنواع السلع والخدمات التي تعيش عليها المجتمعات المرفهة ؛ فبدلاً من بناء المصانع وتوسيع المزارع وإنشاء المدارس فإننا نستورد أفخر السيارات ، وأغلى العطور وأجود الملابس . وبدلاً من الارتقاء بالمستوى الصحي والقضاء على الأمية وبناء المساكن فإننا نستورد مستحضرات التجميل والمخدرات وورق الحائط .

وقد وقفت خلف هذا الاتجاه الاستهلاكي جماعات تسعى لجمع الأرباح الطائلة دون اعتبار لصالح المجتمع العربي وتنميته وازدهاره ... ووقفت الجهات المسئولة شبه عاجزة عن وقف هذا الاتجاه بحجة أن حرية التجارة هي واجهة الديمقراطية .

وقد اتضح أن أكثر الفئات التي تأثرت من النزعة الاستهلاكية هي الأجيال الشابة التي سرعان ما تضعف أمام السلع المستوردة وبريقها المتلألئ ، فنرى افتتان الشباب والفتيات بالسعي المحموم وراء امتلاك السلع دون النظر إلى تنمية عقولهم وخبراتهم ومعارفهم وصحتهم ... وهذا بلا شك اندفاع متهور وراء التشبه بسلوكيات شعوب الدول التي تهيئ لنا بسرور استيراد هذه السلع .

4 ـ اختلاط قيمنا وضعف نظامنا الأسري وانحلال الروابط الاجتماعية وظهور الجرائم والانحرافات المالية والأخلاقية ـــ تقف كلها كمظاهر مباشرة لاتباعنا الأساليب المعيشية والسلوكية للمجتمعات المتقدمة صناعياً (والمنحلة أخلاقياً وسلوكياً وروحياً) . فالنظام الأسري وهو البنية التحتية لأي مجتمع فقد سلطته على الإرشاد والتوجيه ، وفضل السعي المحموم وراء زيادة الدخل بأي صورة من الصور ... فازدادت نسب الطلاق وانحرف الشباب وسلكت الفتيات سلوكاً منحلاً متحرراً من القيم الدينية والأخلاقية والعقلية الرشيدة ... وبهذا زادت الجرائم التي يقف وراءها الرغبة غير السوية في الثراء واقتناء الماديات والتباهي بها أمام الآخرين ... وزادت السرقات بين فئات الناس المختلفة وانتشرت المخدرات والأعمال غير الأخلاقية لتحطم البيوت وتنهك صحة وعقول واتزان

الشباب ... وهذا كله إذا نظرنا إليه نظرة فاحصة ما هو إلا مظهر من مظاهر توغل الغزو الثقافي والسلوكي من دول كثيرة حولنا ، فنسينا من نحن ، ونسينا كيف يمكن لنا تعليم الأجيال الصاعدة احترام القيم العربية الأصيلة التي كانت يوماً ما منارة للفكر والعلم والحضارة .

5 – استمرار تخلف الجانب الأكبر من الشعوب العربية نظراً لأنها صدقت مقولة الاستعمار والأعداء بأننا متخلفون ... فلا زالت أعداد غفيرة من الناس في أغلب الدول العربية تؤمن بالخرافات والدجل والشعوذة والتنجيم ، وتسلك في حياتها سلوكاً يعتمد على الإيمان الغيبي بما يقوله الدجالون والسحرة والعرافون وقارئو الطالع ... ولاشك أن تشجيع الإيمان بمثل هذه الممارسات يجعل من الفكر العربي فكراً مشوشاً وغير متطابق مع الأفكار المنطقية للدين الإسلامي الرشيد والفكر العقلي الصائب .

كذلك لازال هناك قطاعات كبيرة من الشعب العربي لاتثق بالعمل والاجتهاد فهي تبدو كما لو أنها اقتنعت بالكسل واللهو واتباع الغث والبسيط والساذج من الأمور ، فتعودت على هذه السلوكيات وابتعدت عن الإيمان الصادق بفائدة العمل والاجتهاد والمثابرة ، وكل هذا لأن هذه الفئات رضيت بما زرعه فيها الأعداء منذ عصور الاستبداد الاستعماري من أن العرب قوم لايعملون لأنهم يقنعون بالقليل الذي حولهم ... وللأسف إذا ما استمر هذا الوضع على ما هو عليه فإننا سنعطي للعالم تأكيداً من جانبنا بأننا نسلك السلوك الذي صنفونا فيه وأرادوا لنا أن نكونه مع أنه حقيقة تصنيف كاذب بعيد (ويجب أن يكون بعيداً) عن شخصيتنا القومية الحقيقية .

فنحن أمة ذات بأس ... ونحن أمة بها أولو عزم وتصميم ... ونحن أمة كبيرة بها كل مقومات النجاح إذا ما استطعنا أن نزيل ما في نفوسنا وما علق بعقولنا من أفكار زرعت فينا لحظة ضعف مررنا بها في الحقبة التاريخية السابقة . وكل ما نحتاجه أن نقرأ تاريخنا ونتأمل في حضارتنا ونتذكر انتصاراتنا

وفتوحاتنا في جميع مناحي الحياة الإنسانية .

العوامل التي تساعد على تأثر العرب بالغزو الثقافي :

هناك عوامل هامة تساعد الأعداء على وضع برامجهم للغزو الثقافي للأمة العربية ، ويمكن إجمال أهم هذه العوامل في النقاط الآتية :

1 ـ **الأمية** : حيث لازال جانب كبير من الشعب العربي أميا ؛ بمعنى أنه لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب ... ويرجع ذلك إلى عوامل تاريخية واقتصادية واجتماعية ... فالعوامل التاريخية التي تقف وراء الأمية تعود إلى الاحتلال العثماني والأوربي الذي استمر قروناً طويلة قمعت أثناءها أي محاولة منظمة للأخذ بيد الأميين . أما العوامل الاقتصادية فتعود إلى قلة الاعتمادات والاستثمارات المالية المخصصة لبرامج محو الأمية . أما العوامل الاجتماعية فتعود إلى رغبة الأميين في البقاء على ما هم عليه لأنهم ألفوا الحياة بأسلوب حياتهم هذا ، فهم ـــ مثل آبائهم ـــ لايرون أن محو الأمية سيزيدهم رخاءً أو مكانة أو شأناً في الحياة الاجتماعية التي يعيشونها .

ولاشك أن الأفراد الأميين يشكلون بيئة صالحة لنمو الإشاعات الكاذبة والمغرضة وانتشارها والتي يذيعها الأعداء كل يوم . فهم لأميتهم لايستطيعون تمحيص ما يسمعون ... ولذلك فبمجرد أن يسمعوا كبارهم ـــ مثلاً مكانة ومركزاً في القرى أو المجتمعات المحلية التي يعيشون فيها ـــ يرددون فكرة معينة حتى يؤمنوا بها ويقوموا بنشرها على كل سكان القرية ... والأخطر من ذلك أنهم يسلكون كما لو أن الإشاعة التي سمعوها صادقة ولا أحد منهم يستطيع أن يفهم مدلول الإشاعة والغرض منها أو الجهة التي أذاعتها ونشرتها بينهم ... فهم لايفهمون شيئاً في مثل هذه الأمور .

2 ـ **ضعف بعض وسائل الإعلام العربية بصفة عامة** ... حيث إنها لم تستطع إلى الآن التأكيد على الهوية العربية والمصير العربي الواحد ... ولم تستطع التصدي

بقوة إلى الغزوات الثقافية الواردة من الخارج عن طريق التكثيف الإعلامي الذي يبصر العرب بأنفسهم وبفكرهم وبعقيدتهم الرشيدة ، وتكذيب كل ما ينشر سلباً عن الحياة العربية أولاً بأول ليس فقط في البلدان العربية ولكن كذلك في البلاد التي تهاجمنا وتنتقد أسلوب فكرنا ومبادئنا . والضعف هذا الذي يصيب بعض جوانب وسائل الإعلام العربية يدفع بأفراد كثيرين من العرب إلى الشعور بالبلبلة والتشوش الفكري والتأثر بما ينشر أو يذاع عنا كل يوم .

كذلك فإن الضعف هذا يصل إلى — ويحس من — العرب الذين يعيشون في بلاد المهجر وهم بالملايين حيث يقعون فريسة سهلة لفتك وسائل الإعلام في تلك الدول بالعرب وبالفكر والتراث والثقافة العربية .

3 — **عدم توحدنا السياسي والإعلامي** مما يخلق الغربة بين العربي والعربي ... فقد نجح الاستعمار في رسم حدود سياسية تفصل الأمة العربية إلى أجزاء كل جزء قيل لنا إنه يمثل دولة مستقلة تختلف عن كل الدول العربية الأخرى . ولم يستطع العرب إلى الآن تكذيب هذا الادعاء أو هدمه أو إلغاءه بتوحيد الدول العربية في أمة أو اتحاد عربي واحد له لغة وتاريخ وموارد ومستقبل واحد .

وعندما نجح الاستعمار في تقسيمه السياسي لنا سعى سعياً مكثفاً في زرع الإيمان باختلافنا عن بعضنا البعض . حتى إن الواقع الآن أننا نتصرف بالفعل كما لو كنا مختلفين . بل إن البعض منا كان حتى وقت قريب يحارب البعض الآخر ويهدر دمه ويبدد خاماته ويتلف موارده .

والحقيقة أن مثل هذه الاعتداءات لاتحدث اليوم حتى بين الدول المختلفة عن بعضها البعض مما يدل على مدى النجاح الذي حققه الأعداء في توسيع وترسيخ فكرة اختلافنا وزرعها في عقولنا وسلوكنا .

4 — **تكدس مدننا بالسكان** مما يساعد على سرعة انتشار الفكرة المدسوسة في ثقافتنا ... فالأعداء لايختارون القرى الصغيرة أو المعزولة لكي ينفثوا سمومهم بل يختارون مدناً ضخمة وما أكثرها في الوطن العربي لكي تخلق وزناً وتحدث

رنيناً ، فتُسمع وتنتشر في بقية المدن والتجمعات السكانية العربية .

وفي الحقيقة فقد تدخلت عوامل جغرافية كثيرة في تركيز سكان الوطن العربي في المدن ... ولكن ضعف التخطيط الإستراتيجي وقلة الاستثمارات ساعدا مساعدة مباشرة في بقاء وتكدس السكان في المدن التاريخية الكبرى .

ومع ذلك فإن كان تكدس السكان في المدن يساعد على سرعة انتشارالإشاعات والأفكار الغريبة ، فإن وسائل الإعلام المحلية يمكنها ، إذا استطاعت فهم ذلك فهماً عميقاً ، تحويل تكدس السكان إلى عنصر إيجابي بدلاً من أن يكون عنصراً سلبياً .

5 ـ **الظلم الاجتماعي والقهر السياسي** الذي يحدث بين الحين والآخر في بعض أماكن من الوطن العربي . فالظلم الاجتماعي يجعل فئة تمتلك الثروة وفئة لاتمتلك شيئا . وهذا قد يدفع الفئة الفقيرة إلى الشعور بعدم الانتماء للمجتمع الذي تحس أنه يظلمها ويجور على حقوقها ويحطم تطلعاتها وآمالها ... ولا سبيل أمام هذه الفئة إلا أن تميل إلى تصديق أي وجهات نظر ولو أجنبية تحاول النيل من التماسك الاجتماعي في تلك البلدان التي يظهر فيها صورة أو أخرى من صور الظلم الطبقي . أما القهر السياسى فيقصد به هنا انكماش الحياة والممارسات الديمقراطية في بعض البلدان العربية ... فهناك فئة تُمثَل في الحكم وتحقق طموحاتها السياسية ، وهناك فئة لاتمثل في الحكم ولا تحقق طموحاتها . فينشأ عن ذلك اختلال سياسي في المجتمع مما يخلق درجة أو أخرى من عدم الاستقرار بين فئات الشعب . وعدم الاستقرار هذا يشكل بنية حيوية صالحة لأي أفكار أو إشاعات عدائية تستهدف النيل من المجتمع ككل .

* * *

إننا في بعض الأحيان نبدو كما لو أننا نجهل كيف ينزلق إلينا فكر الأعداء ...

فلا نحن نحترس ... ولانستطيع أن نظهر تماسكنا . والأخطر من ذلك أن سلوكنا يتجه ــ هكذا يبدو أحياناً ــ إلى ملاحظة سلوك كل منا تجاه الآخر أكثر من أن نوحد سلوكنا ونجعله يتجه لمراقبة خطوات الأعداء الحقيقيين السائرة نحونا خفية وفي الظلام .

كيف نستطيع مقاومة الغزو الثقافي :

1 ـ أن يقوم المسئولون عن أجهزة الإعلام العربية وعلى جميع مستوياتهم بالاجتماع الدوري لوضع خطة شاملة للإعلام العربي تترجم إلى ما يلي :

ا ـ الإعلام الداخلي في جميع بلدان الوطن العربي عن طريق برامج تعريف الأفراد بهويتهم العربية ، وكيف يفتخرون بها ، وكيف يدافعون عنها ، وكيف أنهم جميعاً أبناء وطن واحد .

ب ـ الإعلام الخارجي عن طريق بث برامج وطبع منشورات وكتيبات وصحف تربط الجاليات العربية في بلاد المهجر بوطنهم الأصلي فلا تضعف روابطهم به ، ولا يتركون وحدهم ليتأثروا بما يذاع سلباً عن أمتهم العربية .

جـ ـ الرد المباشر الواضح في حملة عربية جماعية ضد أي إشاعات مغرضة توجه لبلد عربي أو أكثر ، وذلك في ذات البلد الذي أذيعت منه تلك الأخبار حتى يشعر من تسول له نفسه أن هناك أمة واحدة حريصة كل الحرص على الدفاع عن قيمها وشرفها وكرامتها .

2 ـ أن تقوم الأجهزة المهتمة بالإعلام والإعلان التي ليس لها صفة رسمية (مثل النقابات والجامعات) برسم خطة لتوصيل برامج تقوية الوازع الوطني لدى الأجيال العربية عن طريق البرامج الدراسية والتثقيفية والنشرات والصحف والندوات الثقافية والتربوية . ويراعى في ذلك كله أن يكون متفقاً مع البرامج التي تنفذها الأجهزة الرسمية وتدعمها حتى لايحدث أي تضارب بين البرامج الرسمية والبرامج غير الرسمية .

3 – نشر توجيهات وشروح متتالية عن خطر الافتتان بالاتجاه الاستهلاكي ... فالسلعة الواردة من دولة أجنبية إذا ما غزت مجتمعاً من المجتمعات فإن هذا يدل على حب الناس في هذا المجتمع لها ، وبالتالي ينتقل حب الناس إلى الدولة التي صنعتها ثم إلى أيديولوجيتها أو إلى أي أفكار سياسية أو سلوكية تصدر عنها ، ومع أن هذا لايحدث فجأة بل تدريجياً إلا أن التوجيهات المطلوبة يجب أن توضح أن المجتمع العربي يستهلك هذه السلعة حباً في هذه السلعة ذاتها وليس في ثقافة البلد التي صنعتها أو في سلوكيات أفراد هذا البلد . كذلك يمكن القضاء على الافتتان عن طريق إبراز كيف أن دولاً كثيرة صديقة لنا تتمتع بالسلع التي نصدرها لها مما يجعل المواطن العربي فخوراً بما تنتجه بلاده فيقبل على منتجات الأسواق العربية بثقة واحترام .

4 – وضع برامج حكومية سريعة تمول حكومياً وشعبياً للقضاء التام على الأمية في الوطن العربي ، ووضع حوافز لمن يتم محو أميته سواء بالتوظيف أو بالإعانة أو بالتدريب المجاني على مهن وحرف مفيدة ، وأن تشمل هذه البرامج الرجال والنساء ، إذ ليس من المعقول بطبيعة الحال أن تستمر النساء أميات وهن اللاتي يقمن بتربية الأجيال من المرحلة التي تسبق المدارس الأولية . إن ما ينفقه العرب جميعاً للقضاء الحاسم على الأمية سيكون أقل بكثير مما يخسرونه بسبب ما تؤدي إليه الأمية في المجالات السياسية والصحية والعلمية والتربوية والقومية .

5 – السماح بنمو الحياة الديمقراطية التي تتيح لكل فئات الشعب العربي التمتع بإبداء الرأي في المسائل القومية ؛ لأن الديمقراطية هي التي ستمكن الأفراد من أن يشعروا بالانتماء لوطنهم والدفاع القوي عنه في أي وقت وهي التي ستجعل كل مواطن عربي يشعر بالفخر لكونه عربياً ، وبالتالي يمكنه أن يقاوم الغزوات الفكرية والإشاعات التخريبية الموجهة إلى سكان الوطن العربي .

6 – إقناع الفئات الثرية في الوطن العربي بالاشتراك في تأسيس نواد ثقافية وإعلامية وتربوية عربية تهدف إلى نشر الوعي القومي والرد على الفكر العدائي الذي

يتسلل إلينا بين الحين والآخر ... فالفئات الثرية لايجب أن تركن إلى أن الحكومات العربية هي وحدها المسئولة عن ذلك ، بل هم كذلك في الواقع مسئولون لما لهم من وزن اجتماعي واقتصادي .

7 – العمل المستمر بين كل الحكومات العربية على توحيد كلمتهم ورؤية مصالحهم المشتركة ــ كممثلين للشعوب العربية ــ بما يعود على جميع أرجاء وطنهم العربي بالاتفاق والإخاء والانسجام ليرى العالم أن العرب ليسوا أمة مفككة مبعثرة القوى ... بل أمة قوية مستعدة لكي تبني نفسها وتطور شعوبها وتشارك في الحضارة الإنسانية الحديثة .

الفصل الرابع

كيف تستطيع مقاومة غسيل المخ ؟

- كيف يقاوم الفرد غسيل المخ؟
- كيف يقاوم المجتمع غسيل المخ المعادي؟

يناقش هذا الفصل ما الذي يمكن للفرد أو المجتمع كل على حدة أن يفعله إذا ما تعرض لعملية غسيل مخ متعمدة من قبل عدو تمكن بصورة أو بأخرى من أن يمارس هذه العملية القمعية .

فعلى مستوى الفرد يناقش الجزء الأول من هذا الفصل كيف يتمكن الأسير من مجابهة عملية غسيل مخ متوسطة المستوى أثناء فترة أسره من قبل الأعداء . وعلى مستوى المجتمع يناقش الجزء الثاني من هذا الفصل ما الذي يمكن أن يقوم به المجتمع من عمليات وقائية ضد التحطيم العقائدي والثقافي الذي قد يمارسه عدو في الحاضر أو المستقبل .

أولاً : كيف يقاوم الفرد غسيل المخ :

لعل القارئ يتذكر ما ذكرناه عن التجارب التي أجريت على كلاب بافلوف التي استهدفت في المحل الأول دراسة ردود أفعال الحيوان عند تعرضه لمثيرات تجريبية محددة . ولعل القارئ يتذكر كذلك أن علماء النفس والأعصاب الروس قد طوروا ووسعوا مجال التجارب التي أجراها بافلوف فاعتقدوا أن ردود أفعال حيوان مثل الكلب ما هي إلا صورة مماثلة لردود أفعال الإنسان .

وفي الحقيقة فإنه لايجوز من الناحية العلمية أن نشير إلى أن هناك اختلافات عديدة أساسية في ردود فعل الجهاز العصبي للكلب عن ردود فعل الإنسان . فجهاز الكلب العصبي مشابه إلى حد ما لجهاز الإنسان العصبي . ومع ذلك فالتشابه علمياً كذلك ــ لايعني التطابق والتكافؤ .

فنحن إذا أردنا أن نمنع الكلب من تكرار خطإ ما فإننا نعاقبه (أي أننا نعلمه) حتى لايكرر الخطأ ... وهو بالفعل بتكرار العقاب يتعلم ألا يخطئ .

ومثل ذلك تماماً ما يحدثه التعليم والتربية والتهذيب بالإنسان . فالإنسان يتبول

في فراشه وهو طفل صغير ولكننا بأساليب تربوية متباينة من منزل إلى منزل ومن بلد إلى بلد نعلمه ألاّ يتبول في فراشه وأن عليه أن يطلب منا أن نساعده على قضاء حاجته بالطريقة التى نراها مناسبة . ولهذا فإن الاستجابة بين الحيوان (الكلب) والإنسان تعتبر متشابهة .. فنحن نقول إن الجهاز العصبي لكليهما متشابه طالما تشابهت الاستجابة (أو ردود الفعل منهما عند موقف معين) .

ومع ذلك فالكلب إذا تعلم أن يفتح باب المنزل في كل مرة يدق فيها الجرس يقف عاجزاً عن التميز عند المفاجآت . على العكس من الإنسان الذي يستطيع أن يقرر أن يفتح الباب أولا يفتحه لأي طارق . فربما يكون الإنسان غير مستعد لفتح الباب لأن الطارق عدو له فلا يفتح (مثلاً) وهنا يقع أحد الفروق الهامة بين الحيوان والإنسان ... فالحيوان متخلف عن الإنسان في العقل والإدراك والتحليل والتصور والقياس .

إن الإنسان وإن تشابه مع الكلب في كثير من الاستجابات ، إلا أن قدرة الكلب تقف عند حد معين لا يمكن لها أن تتجاوزه . وكيف يتسنى لها ذلك وهي غير مهيأة لما لم تهيأ له ؟ أما الإنسان فيمتلك صفات سلوكية أرقى وأوسع وأكثر مرونة مما لدى الحيوان ... ولاشك أن هذه الصفات التي أنعم بها الخالق على الإنسان هي التي رفعته درجات كثيرة فوق المخلوقات الأخرى كافة التي تعيش في نفس بيئة الإنسان .

ولهذا فيمكننا القول إنه طالما بقي إدراكنا قوياً ، استطعنا التمييز بين الغث والسمين من العقائد والأفكار ، حتى لو وضعنا في بيئة غير بيئتنا وسمعنا ورأينا ولمسنا ما لم نتعود على سماعه ورؤيته ولمسه من أشياء . والذي يقرأ عن أعمال بافلوف وتجاربه فإنه يرى أن هذه الأعمال تخبرنا بحقيقة علمية مأخوذ بها الآن في العلاج النفسي في كثير من البلدان الأوروبية والأمريكية . وهذه الحقيقة لاحظها بافلوف بنفسه عندما عَرَّضَ الكلب لمثير ما يجعله يفرز لعابه كلما سمعه أو أحسه . فالكلب يرى ضوء المصباح (الفلاش) ويعرض أمامه الطعام فيسيل لعابه ... وبتكرار ذلك يكون

ضوء المصباح وحده كافياً لكي يسيل لعاب الكلب حتى بدون تقديم الطعام . ولكن إذا ما تكررت التجربة مرات عديدة وتعرض الكلب لضوء المصباح (الفلاش) بدون أن يعرض أمامه الطعام فإن استجابة الكلب تتباطأ فيقل إفراز لعابه . وبتكرار ذلك عدة مرات بدون عرض الطعام فإن ضوء المصباح يفقد علاقته الترابطية مع الطعام تماماً وينعدم إفراز اللعاب من فم الكلب ... وهذه الظاهرة تسمى الانطفاء Extinction .

إذن الانطفاء يعني اختفاء سلوك أو استجابة كانت تحدث في السابق نتيجة انفصال العلاقة الترابطية بينها وبين المؤثر الذي كان يظهرها . وتستخدم عملية الانطفاء كما سبق الإشارة في العلاج النفسي بأن يتم فصل المؤثر عن استجابته (أو رد فعله) . فالمرأة التي تصاب بالصداع في كل مرة تذهب فيها لغرفة نومها لتنام لاتعلم سبباً لظهور هذا الصداع . فهو لايظهر لها في أماكن عديدة داخل المنزل أو خارجه . ولكن المعالج النفسي (ويسمى هنا معالجا نفسيا سلوكيا لتخصصه في دراسة نظريات بافلوف وخلفائه في إنجلترا والولايات المتحدة) يجلس معها ويناقشها مناقشات واسعة فيعلم السبب وراء ظهور الصداع الذي يصيبها خصيصاً كلما دخلت غرفة نومها . إنه اكتشف أن هذه السيدة على خلاف دائم مع أم زوجها (الحماة) التي عُلقت صورتها أمام سريرها ! ولهذا فعندما أزيلت الصورة اختفى الصداع .

وهذا المثل ليس وهماً أو قصة خيالية كما قد يراها البعض ... ولكنه ــ مثل يحدث على نطاق واسع في حياتنا ولانستطيع إدراكه أو فهم سبب وسر حدوثه . فنحن نحب أشياء ثم يأتي علينا وقت وإذا بنا نكرهها ونعافها ولا نقربها . ويحدث النقيض من ذلك كذلك بدون أن ندركه أو نحس بوقوعه في أنفسنا .

إن تفسير ذلك كله تلخصه لنا ظاهرة الانطفاء ، أي انفصال وانتهاء واختفاء العلاقة بين مثير معين وبين رد الفعل الذي يظهره حدوثه .

ولاتحدث ظاهرة الانطفاء هذه على مستوى الممارسات النفسية في حياة البشر وحسب ، ولكنها تحدث في حياتهم السياسية كذلك . ألا يغير السياسيون من

انتماءاتهم الحزبية ؟ بل ألا تغير الدولة كلها سياستها من اليمين إلى اليسار أو العكس ؟

ومع ذلك فما يعنينا في هذا المبحث هو أن نشير إلى علاقة ظاهرة الانطفاء بغسيل المخ الذي يمكن أن يتعرض له فرد من الأفراد .

لنفرض إذن أن أسيراً تم أسره وترحيله إلى أحد معسكرات العدو حيث تعرض لغسيل مخ مكثف حتى انتصر عليه أعداؤه ، وبعد فترة من الزمن أطلق سراحه وعاد إلى وطنه مرة ثانية . لقد تعرض وهو في الأسر إلى جملة إجراءات أتعبته حتى أنه آمن ــ كما أفهمه الأعداء ــ أن دخوله القتال كان خطأ منه ومن الذين دفعوه لخوض غمار الحرب . ولكنه الآن عاد إلى وطنه الأم سواء أكان منتصراً أو منهزماً في تلك الحرب التي انتهت . إن احتمالات سلوكه المستقبلي في بلده لاتخرج عما يلي :

1 ـ سوف يصرح علناً أنه ضد سياسة بلاده .

2 ـ أو أنه سراً سيعمل لصالح عدو بلاده .

3 ـ أو أنه سوف يبدأ في الإحساس بأن تجربة الأسر قد غيرت فكره وسلوكه وأن عليه أن يطلب المساعدة في استخراج الأفكار السامة التي بثها الأعداء في عقله .

وفي الاحتمال الثالث فإن ظاهرة الانطفاء تكون في منتهى الوضوح ، أما في الاحتمالين الأولين فإن ظاهرة الانطفاء تكون مستترة ... والذي يظهرها هو مدى قدرة الأسير العائد لوطنه على التأقلم من جديد في الحياة الاجتماعية في وطنه وكيف يزيل الأفكار التي بثها الأعداء في عقله والتي لازالت عالقة به . فكلما ضعفت هذه الأفكار ــ لأن الأسير لم يعد تحت ضغط العدو ــ كلما بدأت ظاهرة الانطفاء في الظهور ، وإذا ما ظهرت فإنها سوف تستمر طالما بقي هذا الفرد في وطنه وابتعد عن الأعداء .

وتعتمد قدرة الإنسان على الصمود أمام غسيل المخ بصفة عامة على ما يلي :

1 ـ قوة عقيدته .

2 ـ درجة تماسك شخصيته .

3 ـ طول الفترة التي قضاها في الأسر .

4 ـ نوعية الوسائل التي استخدمت ضده .

5 ـ الخبرات التي أعقبت الإفراج عنه (سواء أكان سيعيش في بلد الأعداء ... أم أنه سيعود إلى بلاده مرة أخرى) .

فإذا ما كان الأسير قد تعرض لإجراءات صارمة في الأسر ولفترة كافية من الوقت ، وتأكد الأعداء أنه أصبح في نظرهم عضواً منهم ... ثم استمر يعيش باختياره في مجتمع الأعداء ولم تتمكن دولته أثناء فترة أسره من إعادته مرة أخرى ، فإن الاحتمال الوحيد هنا هو أنه قد ضاع وفقد . وعلى المعنيين في بلده اعتباره عدواً والاحتراس من شروره التي قد توجه إلى الوطن الأم .

ولكن هذا لحسن الحظ لا يحدث عادة ... فأغلب الأسرى يعودون لأوطانهم ... ومع ذلك فأي دارس متخصص لعلوم النفس والاجتماع وثقافات الشعوب التي في حالة عداء يمكنه أن يظهر نجاحاً كبيراً في التمييز بين الأسرى العائدين لوطنهم والذين استجابوا والذين لم يستجيبوا لعمليات غسيل المخ .

وما ذلك إلا لأن تجربة الأسر تخالف تجربة الحبس أو السجن ... فالأسير دائماً تحت رحمة الأعداء ... أما الحبيس أو المسجون فهو تحت عقاب قانون نفس المجتمع الذي يعيش فيه وينتمي إليه .

ولذلك فإن عودة الأسير لوطنه تحظى دائماً ـــ ويجب أن تحظى ـــ بعناية ورعاية خبراء الأمن القومي للمجتمع الذي ينتمي إليه الأسير ، وهم عليهم أولاً معرفة الدرجة التي تعرض لها عقل الأسير للضغوط ... فبعض الأسرى يعودون بالمرض النفسي أو العقلي نتيجة الصراع الشديد الذي كانوا يواجهونه بين حبهم لعقيدتهم وتمسكهم بحب أوطانهم من ناحية وبين الضغوط التي يواجهونها في الأسر لتغيير

عقيدتهم تلك .

فإذا علموا أن الضغوط كانت محتملة كأن يكون الأسير قوياً عقلياً وفكرياً وثقافياً أو كأن تكون فترة تعرضه للضغوط محدودة ، فإن الاحتمال الأغلب في مثل هذه الحالات هو أن ظروف الحياة في الوطن ستساعد العائد من الأسر مساعدة مباشرة في الإسراع بعملية انطفاء أثر الضغوط التي كان قد تعرض لها أثناء الأسر .

فبمجرد خروجه من أسر العدو وعودته لوطنه تنفصم العلاقة التي كانت قائمة لبعض الوقت بين ضغوط العدو الواقعة عليه ، وبين طلب العدو المتكرر لكي يؤمن بمبادئ هذا العدو وينبذ مبادئ وطنه . أما الآن وقد عاد سالماً فإنه يجد أن الضغوط قد ولت (لتركه العدو ومعسكر الأسر) ولهذا فلا مبرر لكي يسير على مبادئ ذلك العدو ، ولا مبرر كذلك لكي يتنازل عن مبادئ وطنه . إنه الآن سيجد أن بني وطنه يحبونه ويعطفون عليه ويشيدون بكفاحه ويقلدونه نياشين الولاء . وبمرور الوقت فإن الأسير العائد ترجع إليه عافيته الفكرية وينظر إلى ما كان يحدث له على أنه كابوس مؤلم انتهى بالاستيقاظ والعودة إلى أحضان الوطن الدافئة .

أما إذا كانت الضغوط التي كان قد تعرض لها الأسير ، قد بدلت أو غيرت أو عدلت أو حلت محل أفكاره وقيمه وانتمائه لوطنه ، فإن الذي يجب أن يحدث هنا هو تحويل الأسير العائد لوطنه للمختصين الذين يمكنهم دراسة فكره وإعادة انتمائه وحبه لدينه ووطنه وعقائده التي كان يؤمن بها ويدافع عنها قبل أسره من قبل العدو .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عمليات إعادة التمسك بالانتماء إلى الوطن هذه ، لاتحتاج لوقت طويل بقدر ما تحتاج إلى ثقافة عالية من القائم بها ... فهو يجب أن يكون محيطاً بثقافة وطنه وثقافة عدوه ... عارفاً بفنيات علم النفس والاجتماع ... ويجب أن يتمتع بالعطف والصبر والتفهم ... فهو لايتعامل مع مجرم خارج على القانون بل مع واحد من بني وطنه وضعته ظروف استثنائية لكي يقع أسيراً ويصبح تحت رحمة وبطش العدو نفسياً وبدنياً طوال فترة الأسر . وبمرور الوقت وبتكرار المقابلات بين المعالج (إن كان لنا أن نسميه كذلك) وبين العائد من الأسر ... وبمرور التجارب الجديدة في أرض الوطن بينه وبين أسرته ، وأصدقائه ، وزيارته

للأماكن التي كان يحبها ، وتناوله للطعام الذي كان قد تعود على تناوله ، تبدأ الخيوط التي كان الأعداء قد ربطوها معاً في عقل الأسير في الانفصال والتمزق ، وتتهاوى الواحدة تلو الأخرى حتى يعود إلى حالته التي كان عليها قبل أسره . بل إن الاحتمال الأغلب أنه سيعود أقوى مما كان قبل أسره وذلك لأن بصيرته اتسعت وتعمقت وتفهم ما كان يحدث في ظروف الأسر الصعبة التي مر بها . هذا عن الاحتمالات التي يتوقع حدوثها لأسير تعرض أثناء أسره لإجراءات كاملة أو جزئية من غسيل المخ .

والآن نأتي لجانب هام آخر من جوانب الحديث عن تعرض فرد ما لغسيل المخ ... فإلى أي مدى يتمكن الأسير من مقاومة غسيل المخ الواقع تحت تأثيره وهو في الأسر ؟

كما سبق القول فإن قدرة أي إنسان على الصمود أمام غسيل المخ تتوقف على قوة عقيدته ، وقوة شخصيته ، وطول فترة الأسر ، ونوعية الوسائل التي استخدمت ضده ، والخبرات التي أعقبت الإفراج عنه .

إن هذه الأمور الخمسة هي التي تحدد الدرجة التي يتأثر بها العقل البشري في تحمل الضغوط الواقعة عليه . فإذا ما تكاملت واشتدت ، فإن غسيل المخ إما أنه سينجح في قهر عقل الأسير ... وإما أن الأسير نتيجة الضغوط الواقعة عليه سينحو نحو المرض النفسي أو العقلي .

ولما كانت هذه الحالات الشديدة نادرة في الواقع في الوقت الحاضر لدى الأسرى كأفراد ... (مع أنها تحدث في كثير من المجتمعات الديكتاتورية ضد الوطنيين أو المطالبين بالديمقراطية) فإن الاحتمال الآخر هو أن يتعرض الأسير بالفعل لإجراءات جزئية من غسيل المخ ، وفي هذه الحالة أيضاً فإن احتمال انهياره وارد تماماً كاحتمال نجاته .

فهو إذا انهار وكانت ظروف استخدام وسائل غسيل المخ (متوسطة المستوى) فإن انهياره يعود حتماً إلى ضعف إيمانه وضعف شخصيته وقلة الدافع الوطنى لديه وضحالة ثقافته المعرفية .

أما إذا لم ينهر وكانت ظروف استخدام إجراءات غسيل المخ (متوسطة المستوى) فإن ذلك يعود إلى قوة إيمان وشخصية وعقيدة وثقافة الأسير . فما الذي يجب علينا أن نفعله حتى لانهار أمام ظروف غسيل المخ (ذي الدرجة المتوسطة) ، وهي الدرجة التي أعتقد أنه يمكن واقعياً لأي عدو لنا أن يمارسها مع من يتمكن من أن يأسره منا . وهي كذلك الدرجة التي إذا ما عرف الأسير ماذا عليه أن يفعل فإن احتمال صموده أمام هذا النوع الأكثر شيوعاً من غسيل المخ يصبح احتمالاً قوياً .

إن هناك ثلاثة أمور فنية يجب على الأسير مراعاتها والأخذ بها لكي يستطيع مجابهة ما يتعرض له من إجراءات غسيل المخ (ذي المستوى المتوسط) أو بمعنى آخر يجعل قواه العقلية قادرة على معايشة تجربة غسيل المخ (المتوسطة الشدة) ... هذه الأمور هي :

1 – أن يقوم الإنسان الأسير بإبعاد عقله عن أن يكون مشوشاً ... فنحن نعلم أن الذي يجلب التشويش العقلي هو تضارب الأفكار بعضها ببعض ... فالعقل الذي يحوي عقيدة ضعيفة يسهل هزيمته والتغلب عليه وبالتالي إحلال أفكار جديدة بداخله . ولذلك فيجب على الإنسان أن يعي حتمية أن يكون عقله متمسكاً بعقيدة قوية تحميه من غزوات العقائد التي تبث في عقله .

فإذا افترضنا أن « الإنسان » وضُع كما سبق القول في « بيئة » محكمة ومورس ضده عمليات غسيل المخ بحجم متوسط وعمق متوسط من الشدة والاستمرارية ... فإن إيمانه بعقيدة راسخة تكون له مثل البنيان القوي الجذور والأسس التي تقاوم هزات الزلازل أو طوفان السيول . فهو يتعرض مضطراً لإجراءات تبغي فصله عن معتقداته ، ولكنه يستطيع بإيمانه بهذه المعتقدات أن يصمد ، وأن يقوم بتحليل أفكار عدوه الذي يبغي تدمير عقله وفكره ، وبالتالي فإن الفكر الأقوى هو الذي يعيش وينتصر . وإذا ما كانت عقيدة الأسير قوية فإن عقله سينجو من الضغوط ويسلم من الأذى .

ولكي يستطيع العقل أن يعيش فعليه التمسك بمنطق الحقائق التي يؤمن

بها . فهو يؤمن ــ مثلاً ــ بحب بلاده لأنه لايظلم ولايظلم . وهو يحب بلاده لأنه يحمل كل تراثها الديني والأخلاقي والاجتماعي ، ولأن حياته العامة والخاصة تشكلت بها فأصبح جزءًا من نسيج وكيان وبنيان وطنه . وهذه الحقيقة هي حقيقة واحدة من عدة حقائق تساعد عقله على أن يحيا ويصمد ، فهو سيواجه مثلاً من أعدائه بأن هذه الأفكار خاطئة وأن الصحيح الذي يجب أن يؤمن به هو أن الإنسان لايجب أن يقول كل ما يؤمن به لأن في ذلك ــ مثلاً ــ تحدياً لسلطة وهيبة المجتمع . أي أنه سيسمع من أعدائه أفكاراً مضادة للأفكار الديمقراطية التي يؤمن بها ، ولهذا فعليه أن يحلل هذه الأفكار (أي أفكار العدو التي يسمعها) ، فإذا كانت معلوماته عن الديمقراطية قوية وراسخة فإن أفكار العدو لن تستطيع أن تزعزع ثقته في أفكاره هو . إن المجتمع له حقوق لاغبار أبداً عليها ولكن المجتمع لايضيره أن يعلن كل إنسانَ رأيه بطريقة سلمية ... بل إن صالح المجتمع الإنساني يستدعي أن يقوم كل مواطن بإبداء رأيه . إن المجتمع له حقوق في أن ندافع عن نظمه ومؤسساته وأن نعمل فيه بجد وأن نحترم دينه وسياسته ، وهذا كله لايتحقق بفاعلية إلا إذا سادت الديمقراطية .

وسيحاول العدو كذلك التشكيك في القيم الدينية أو الأخلاقية أو السياسية التي من أجلها ذهب « الأسير » إلى المعركة فتم أسره . وهنا مرة ثانية يكون الوزن العقلي للإنسان خير معين له ... فإذا تملك عن قناعة لايشوبها شائبة رصيداً من الإيمان بدينه وقيمه الأخلاقية التي تسود في وطنه ، فإن أي أفكار للعدو لاتستطيع أن تنال منه شيئاً .

إذن فالتسليح العقائدي له أهمية قصوى للإنسان ، ربما تفوق أهمية تسليحه الحربي ... فالتسليح الحربي ــ كأشياء مادية ــ لاتستخدم من تلقاء نفسها ، بل يتطلب استخدامها عقلاً مؤمناً قوياً ذا بأس شديد حتى يستطيع الجندي إحراز النصر أو الصمود إذا ما تعرض للأسر .

ولكي يتسلح الجندي بالعقائد التي لاتنهار يجب أن يفهمها ويحس بها وبوجودها من حوله في وطنه .

إن الأفكار العقائدية كتسليح عقلي يجب أن يعلمها كل إنسان معرض بصورة أو بأخرى لأن يقع أسيراً حتى قبل أن يتم تدريبه بالسلاح القتالي ... لأنه لو تم أسره ولم يكن عقله من القوة التي يعتمد عليها فإن أغلب الاحتمالات العلمية تخبرنا بأنه لو تعرض لعمليات غسيل مخ من قبل الأعداء فإنه معرض للانهيار والاستسلام .

إن وجود الأسير في المعتقل معزولاً عن وطنه ورفاقه وكل أخبار العالم حوله ، سوف يجعل عقله ــ إذا كان غير مسلح بالحقائق العقائدية القوية ــ فريسة سهلة أمام « جلسات » الأعداء معه .

إن ذلك يشبه ــ ولو بشكل تصويري ــ التلميذ المجتهد الذي قرأ درساً عن مادة علمية ، وفهمه فهماً شاملاً عميقاً ، فإذا ما سأله المدرس في أي وقت من الأوقات عن أي جانب من جوانب الدرس فإن عقل التلميذ يستجيب ويرد بثقة وثبات .

وذلك يشبه أيضاً اللاعب الرياضي الذي وصل إلى مرحلة عالية من اللياقة البدنية التي تظهرها الاختبارات ــ حتى الفجائية منها ــ بدون أن يشعر اللاعب بالإرهاق أو التعب أو المباغتة المحرجة .

وإذا ما كان الجسم البشري يكتسب لياقته بالتغذية الجيدة وبالمران المستمر ... فإن العقل البشري يكتسب قوته باستمرار الاطلاع على المعارف وكيفية التمسك بحقائق الأشياء سواء أكانت دينية أو أخلاقية أو فلسفية . وبالإضافة إلى ما تجلبه القدرة العقلية المتينة من إنقاذ للعقل من شدائد عمليات غسيل المخ ، فإنها على نفس المستوى تجهد القائمين بهذه العمليات . فالعقل الضعيف سهل الاحتواء ... والعقل الساذج (الذي يسلم للأعداء بسرعة حتى إذا كان ذلك ــ كما قد يعتقد ــ سيجعلهم يحبون صاحبه الساذج) يجلب على نفسه الشدائد . فإذا ما اعتقد أسير أن الأعداء يريدون منه استسلاماً عقلياً سريعاً حتى لايؤذوه فإنه يكون بلا شك أسيراً ساذجاً ، لأن الأعداء ليسوا كما يتصورهم بلهاء بحيث لايعلمون أن ما يفعله معهم ما هو إلاّ عملية تمثيلية رخيصة . والإنسان الرخيص يلقى من الأذى والازدراء أكثر مما يلقاه الإنسان القوي

الذي لايلقي بمعتقداته سريعاً حتى إذا كان كلاهما في الأسر . أما العقل القوي المتمسك بمنطق وحقائق عقائده ، فإنه يجهد أعداءه أشد إجهاد .. فهم حيارى أمام صموده ... وبمرور الوقت فإن فترة الأسر تنتهي ويعود الأسير إلى وطنه وقد شعر أنه قد أضيفت إلى قواه قوى أخرى .

2 ـ وإذا ما كان العقل يستطيع أن يعايش ويتحمل تجربة غسيل المخ (متوسطة المستوى) ـــ إذا كان قد تمتع من قبل الأسر بالإيمان القوي بحقائق عقيدته ـــ فإن ما يساعد العقل من ناحية أخرى على أن يصمد أمام هذه التجربة الصعبة هو القدرة على حجب المعلومات التي يريد العدو زرعها في عقله .

فالعقل يمكنه إذا ما دُرب على ذلك أن ينغلق في حالات الشدة عن المصادر التي تتعبه ، ويقصد بالتدريب هنا استثمار الإمكانيات الوظيفية للعقل البشري التي يولد بها الإنسان . فنحن ـــ مثلاً ـــ نغمض أعيننا عن مشاهدة المناظر أو الصور أو المشاهد التي تسبب لنا الرعب أو التقزز أو الألم . ونحن نوقف تنفسنا عند التعرض لشم روائح كريهة . ونحن نتوقف عن السير عند وجود خطر يعترض سيرنا . وكذلك فإن العقل يمكنه أن يغلق جميع منافذه الشعورية أمام المعلومات أو العقائد التي يشعر أنها قد تؤذيه . ويتم هذا في كثير من الأحيان بصورة أوتوماتيكية لأنها كلها أمور ترتبط بغريزة البقاء وغريزة الابتعاد عن الألم . أما التدريب فهو الذي يوجه العقل الوجهة الحكيمة ... فلا ينغلق أمام كل مصادر المعلومات ، وكذلك لاينفتح أمامها ... بل إن التدريب يُعرف العقل بأن العدو سوف يقوم حتماً ببث معلومات ضد عقائدنا وأفكارنا وأن هذه المعلومات يجب أن تكون كاذبة ... ولهذا فإن العقل إن لم يستطع احتواءها كلها بالمنطق المضاد فإنه يجب أن يوصد جميع منافذه أمامها .

ولهذا فإن الأسير يجب أن يعلم ويتعلم الكيفية التي بها يمكنه أن يوصد عقله ... وكأن لسان حاله يقول له : (هأنذا الآن في غرفة مع الأعداء وهم يحاولون غزو عقلي ولكن عقلي سوف ينغلق أمام هجماتهم) ... أو أن يقول : (إنني سوف

أعايش هذه التجربة ، ولكن من منظار الشخص الذي يتفرج ويراقب وليس من منظار الشخص الذي يعيشها ليتأثر بها ... إنني هنا لأدرسها من نواح قليلة وليس من كل النواحي ... وذلك لأنني لن أومن بها أبداً ... إن عقلي ليس معنياً بما سيفعله الأعداء أو ما سيقولونه بل هو مراقب لهم ومتفرج على مايفعلون ... إنني مثل المتفرج على فيلم سينمائي أو القارئ لقصة لايعنيني كثيراً أن أتأثر أو أتألم مما يحدث فيها بقدر ما يهمني فهم القليل من هذا الفيلم أو هذه القصة ، وذلك لأن ما أشاهده مفروض عليَّ فرضاً ومع ذلك فهو سينتهي سريعاً) .

وعلى الأسير كذلك أن يعلم ويتعلم ــ قبل أن يتم أسره بالطبع ــ أن عدوه لن يصدر عنه أي خير حتى إذا ما أظهر أنه يحاول ذلك ... فما يفعله العدو سيكون دائماً في صالح العدو نفسه ، حتى إذا ما أظهر بعض اللين والرفق بالأسير ، فهذا اللين أو الرفق كطعم يقدم للسمك الجائع ... إنه غذاء للسمك ولكن بداخله الأذى والهلاك .

العدو دائماً كاذب ويجب أن لانصدقه : سوف يقول للأسير إن زملاءه قد ماتوا وانتحروا ... سوف يخبر الأسير أن زوجته قد طلبت الطلاق منه ... أو أن ابنه قد انتحر بعد معرفته بأسر أبيه ... سوف يلقي ويذيع أخبارا بأن بلد الأسير لايسعى لإطلاق سراحه ... إلخ والشيء المؤكد هنا أن هذه كلها أكاذيب يجب غلق العقل أمامها ، بمعنى عدم إدخالها إلى حيز العقل والشعور والإحساس بها كأمور صادقة .

إن الإيمان الراسخ بأن العدو كاذب ومخادع ، يساعد الأسير على عدم تصديق أية أكاذيب يطلقها العدو عليه ، مما يساعد عقله على أن يبقى نقياً من الغيوم والتشويش والتلوث ... مما ينعكس على قدرة الأسير على الثبات والصبر فلا تنفد الطاقة النفسية ولا تضعف .

وإذا ما حدث وبقي العقل سليماً من الأكاذيب ، فإن الأسير يشعر بأن جهود العدو تتبدد مما يعود عليه بمزيد من القدرة على التحمل .

لقد سبق القول إن أي أسير ضعيف سيهزم عقلياً ، وأي أسير يعتقد أن استسلامه

السريع للعدو ـــ حتى إذا كان يمثل على العدو الاستسلام ـــ سيكون مفيداً له ، سوف يلقى الأذى والمتاعب مما يزيد من احتياجه ـــ أي الأسير ـــ للطاقة النفسية التي يجب عليه ألاّ يبددها في مظاهر تمثيلية ساذجة .

أما الأسير القوي الذي يتمكن من غلق عقله ، فإنه يتعب العدو لأطول وقت ممكن . وحتى إذا ما طال الوقت أكثر من اللازم فإن مسايرته للعدو لن تقابل من العدو بالثقة ، فهم يعلمون أنه قوي ومع ذلك فهم يعلمون أنه يسايرهم أفضل من السابق ولذلك فهم لايثقون فيه ولا يستطيعون في ذات الوقت أن يفعلوا معه أكثر مما فعلوا ... فهو الذي يتحكم بصبره وقوته العقلية وصموده في اللعبة الدائرة بينه وبينهم . إنه يسايرهم مثلاً في الأخذ بما وضعوه له من مواعيد النوم والاستيقاظ وحضور جلسات المناقشة وطريقة تناول الطعام والشراب . وكل هذا كما نرى لايمس تماسكه العقلي أو الروح المعنوية التي تهبه الصبر والثبات . إن ما أوصله إلى هذه القوة هو صمود حقائق عقيدته في عقله ووجدانه ، واستخدامه لأسلوب إسدال الستار على عقله ، فهو لايهتم ولايتأثر بما يجري حوله لأنه يعلم أنه في أرض العدو الكاذب المخادع الذي يريد تحطيم إرادته والسيطرة على عقله ... إنه يعلم يقيناً أن أعداءه يفعلون كل ما هو غير منطقي ، وطالما هم أعداء فهم مثل المناظر والمشاهد البدائية المؤذية للحس السليم والتي يجب على الإنسان الفاضل أن يغض بصره عنها فلا تعلق بعقله صورهم أو أصواتهم أو أكاذيبهم وذلك يبقيه قوياً صامداً .

3 ـ النقطة الثالثة لسلامة العقل وقدرته على معايشة تجربة متوسطة الشدة من تجارب غسيل المخ هي استخدام أساليب الإشارة بين الأسير وزملائه في كل فرصة تتاح لهم جميعاً . فهي تقوي النفس ، وترفع الروح المعنوية وتزيد الصبر وتقوي الاحتمال وتعطي العقل زاداً ، وذلك لأنها إشارات تجعل الأسير يدرك أن الآخرين أقوياء وصامدون حتى إذا ما أخذ كل واحد منهم ليحجز حجزاً انفرادياً .

إن مثل هذه الإشارات يمكن أن تكون بصرية (عن طريق العينين) ... ويمكن أن تكون لغوية (عن طريق كلمة واحدة أو جملة واحدة) ، ويمكن أن تكون حركية

(عن طريق إظهار حركة من اليد أو الرأس أو من الكتف للزملاء) ... فهي جميعاً تخبرهم بأن يصمدوا ، وهي بدورها تنعكس على الأسير نفسه في أن زملاءه الآخرين يعطونه ويبلغونه إشارة تعني صمودهم وتعني صموده هو أيضاً .

ويمكن تعليم الأفراد المعرضين للأسر من قوات العدو في المعارك الحربية معنى هذه الإشارات إذا ما استخدمت على نطاق واسع ... فهي لغة رمزية (أو شفرة معروف معانيها) الهدف منها رفع الروح المعنوية للأسرى ومع ذلك فإني أنصح إذا ما استخدمت هذه اللغة كعملية تدريبية بوجوب أن تكون مبسطة غاية التبسيط ليسهل فهمها وتذكرها خاصة وأن أحوال الأسرى قد تكون تحت ضغوط نفسية واجتماعية وجسدية ربما تجعلهم لايدركون المعنى المقصود بهذه اللغة لو أنها اشتملت على رموز متعددة .

* * *

إن استخدام الأساليب الثلاثة السابقة يمكن أن يجعل عقل الشخص الذي تم أسره يحيا بسلام تجربة غسيل مخ متوسطة الشدة .

وإن كنت قد أشرت سابقاً إلى أن الخضوع لتجربة شديدة ومستمرة من تجارب غسيل المخ ، مع عدم وجود فرصة للأسير للعودة لبلاده ، يؤدي في أغلب الاحتمالات إلى انتصار العدو على عقل الأسير ، فإنه يجب علينا أن نتذكر جيداً أن عملية غسيل المخ الشديدة ليست عملية سهلة يقوم بها الأعداء دون أن يشعروا بالإجهاد ونفاد الصبر . فعملية غسيل المخ التي تجرى على عقل إنسان فرد صعبة من الناحية الفنية (مع التسليم بإمكانية إجرائها عملياً وعلمياً) ، وهي تحتاج لوقت طويل ، وصبر ، وتكاليف ، ومتابعة ، ورقابة من الأفراد الذين يقومون بها ... وليس هذا كما نرى متوافرا في كل الأوقات والأحوال لدى العدو . فعلى سبيل المثال لكي نجري تجارب تستخدم نظرية بافلوف في محو الخبرات التي كان الإنسان قد تعلمها وآمن بها ، فإن الشخص الذي يمارس هذه الإجراءات يجب أن يكون قد درب تدريباً فائق الكفاءة ،

ودرس في علم النفس وفي ثقافات الشعوب سنوات طويلة ... فهل هذا متاح على مستوى شامل ؟ وما ينطبق على الاستعانة بتجارب بافلوف ينطبق على ممارسة التنويم المغناطيسي ، فليس كل إنسان قادرا على أن ينوم الآخرين ... وليس كل الناس مهيئين لكي يُنوموا مغناطيسياً ... بل ليس كل شخص مهيأ لأن يُنوم مغناطيسياً إلى العمق الذي يرغبه القائم بعملية التنويم ... هذا إذا ما افترضنا وجود العدد الكافي من خبراء التنويم المغناطيسي المدربين تدريباً حسناً .

ولأجل هذا كله فإن غسيل المخ الذي يجرى على مستوى الأفراد وإن كان ممكناً عملياً وعلمياً ، إلا أنه بدون وزن سياسي ... فهو لايمكن أن يمارس على عدد كبير من الأفراد في وقت واحد وظروف واحدة ... ولهذا يلجأ الأعداء إلى استخدام وسائل أخرى لغسيل المخ مثل القهر السياسي والبطش والإرهاب وتسخير وسائل الإعلام والحملات البوليسية الموسعة ضد المنشقين والمعارضين وذلك كله بهدف السيطرة على المجتمع ككل وتوجيهه الوجهة التي يطلبونها .

وهذا ما يسمى غسيل المخ الجماعي والذي سأعرض له في الجزء الثاني من هذا الفصل . ولكن قبل ذلك يجب التنويه إلى أن الأفراد المعرضين للأسر ، لابد وأن يكونوا على درجة عالية من القوة العقلية والفكرية بحيث يمكنهم الصمود أمام عمليات غسيل مخ فردية متوسطة الشدة فهي ما يحدث الآن بسهولة في كثير من المجتمعات .

ثانياً : كيف يقاوم المجتمع غسيل المخ المعادي :

سبق وأوضحنا أن الأعداء على مدار حقب التاريخ قد مارسوا أساليب عديدة للاستحواذ على خيرات المجتمع الذي أرادوا له الخضوع والهزيمة و لم يميز التاريخ بين عنصر بشري وعنصر آخر إلا قليلاً ... بل إن التاريخ أعطانا معلومات أكيدة وواضحة على أن البشر في أغلب مناطق المعمورة مارسوا القمع والاضطهاد والقسوة في كل مكان وزمان لفرض سيطرتهم ونفوذهم على المجتمعات الأضعف .

وإذا دلنا ذلك على شيء فإنما يدلنا على أن ظاهرة غسيل المخ قد حدثت في

كل العصور وفي أغلب بقاع الأرض بصفة مستمرة ، حتى أننا لانستطيع في عصرنا هذا أن ننخدع من تحدث الأمم المختلفة عن رغبتها في السلام واحترام سيادة الآخرين وحقهم في الحياة . فالهدنة بين القوميات البشرية لم تعش طويلاً في أي وقت من الأوقات ... وهذا ما يجعلنا نحترس ونعد العدة لأي خرق للهدن أو الاتفاقات . لقد تميز القرن العشرون الذي هو على وشك الانتهاء بأنه قرن الدماء والخراب والدمار والديكتاتورية والعنصرية والصهيونية والعدوان ... وهو عندما ينضم للقرون التي سبقته ، فإنه لن يزيد من عمر التاريخ البشري كثيراً بل إنه سيزيد من حجم المأساة البشرية وكأن ما سبقه كان شيئاً تافهاً لاقيمة ولا وزن له . وكأن حال الإنسان يزداد عدوانية بمقدار ما يرتقي علمياً ... أو كأن العلم قد خضع في أغلبه لنزعات العدوان التي تتصارع في عقول البشر في كل لحظة من لحظات حياتهم .

ولهذا فيجب علينا ألا نخدع ونستكين ولا نهدأ ولانصور لأنفسنا حقيقة مزيفة بأن البشر يمكن لهم أن يحطموا النزعات العدوانية في نفوسهم ، لأن هذا ليس وارداً بحال من الأحوال ، فهو يتنافى مع الطبيعة البشرية ويتنافى مع تراث البشر في التاريخ ... بل إن قصارى ما يمكن للبشر أن يفعلوه هو أن يهدءوا وأن يستريحوا لبعض الوقت ثم يقوموا بعد ذلك بتحطيم ما بنوه وبقتل من ترك بغير قتل ، وتكرار الأخطاء التي كان أجدادهم يرتكبونها عندما كانوا يعيشون في الأكواخ والجحور .

إن تقوية مجتمعنا العربي يجب أن تستمر ... والبذل والعطاء لبناء عقول وأفكار بني وطننا الكبير يجب ألا تتوقف في لحظة من اللحظات ... فغرائز العدوان التي لدى أعدائنا تتحول من قتالنا بالنار إلى قتالنا بالكلمة والمعتقد والفكرة ... فإذا كانت النار محظورة أو متوقفة الآن ولبعض الوقت ، فإن سلاح الكلمة وهو الأخطر والأشرس مباح ومشهر في كل وقت خاصة وأنه يحتجب عنا خلف ما يسمى بوسائل الإعلام والإعلان العصرية .

إن العلم الحديث يجب أن يكون سلاحنا الأقوى ضد أعدائنا في العصر الحديث ... ولكن يجب علينا أن نعلم أن العلم عاجز عن أن يستخدم من تلقاء

ذاته ... فهو في حاجة إلى عقيدة قوية تنميه وتهذبه وتوجهه الوجهة المرغوبة والمطلوبة .

إن المادة لاتخلق عقيدة ... لأن العقيدة هي الأقوى ... والضعيف لايمكنه منطقياً أن يعطي القوي ... وطالما أن المادة لاتتخلق بذاتيتها أو من تلقاء ذاتها فإنها أقل من أن توصف بالقوة . أما العقيدة والفكر العقلي فهو الذي يسيطر على المادة ويسخرها لتكون في خدمته ... وأي مطلع على التطور الإنساني يدرك أن الإنسان منذ أن وجد على سطح المعمورة قد قام بتشكيل المادة والبيئة التي حوله بما يعود عليه بالاستمرارية والراحة والتطور .

وإذا كانت الفكرة العقلية المجردة أقوى من العلم المادي ، فإن الفكرة بدورها قد تكون خيرة أو تكون شريرة ... فكل المنتجات والاختراعات العلمية الحديثة المتصفة بشرورها ما هي إلانتاج لأفكار شريرة سيطرت على من قام بترجمتها إلى أدوات محسوسة . وعلى العكس من ذلك فإنا نرى المخترعات العلمية المادية التي تبغي خير الإنسان ونوعه ما هي إلا ترجمات صادقة لأفكار خيرة عاش منفذوها بالخير وللخير . وإذا ما كانت الأفكار العقلية المجردة لها هذه السيطرة الجبارة على العلم المادي سواء أكانت أفكار خيرة أو أفكارا شريرة ، فإن الأفكار والعقائد في حاجة ـــ لكي تكون خيرة ـــ إلى مثل عليا راقية تخلق الفكر الخير وتطوره وتوجهه ... وخير المثل العليا الراقية هي الإيمان بوجود الخالق العظيم لأن الإيمان الحقيقي به كفيل باعتناقنا المثل العليا الراقية التي بدورها تشكل الفكر الخير الذي بدوره يخلق العلم المادي المفيد لبني الإنسان .

ولقد أصيب الكثير من الأنبياء والرسل في العصور القديمة بالإحباط والألم من اتجاه أقوامهم نحو البغي والظلم ، فما بالنا الآن وقد نحا البشر نحو المادية ، فعبدوا المال والقوة والنفوذ فخلت عقولهم وقلوبهم من الرحمة والخير ... فساءت حياتهم وحطموا بعضهم بعضاً .

فلاخير إذن في علم مادي بدون عقيدة ، ولاخير في عقيدة ما لم تكن خيرة قوية ، ولكي تقوى العقائد وترسّخ من جذورها في عقول الناس وجب علينا أن نفهم قوة ديننا وقيمه وسياساته تجاه الفرد والمجتمع ، وقد تم شرح تفصيلي لها في الفصل الأخير من هذا الكتاب .

بعد ذلك علينا أن نسلك المسلك العلمي الذي يقوي مجتمعنا بأفراده ومؤسساته وذلك على النحو التالي :

1 ــ ما يخص المجال الأسري :

إن الأسرة هي المجتمع الصغير الأولي الذي يعيش فيه الطفل الذي قد يراها خيرة عطوفة تحقق له حاجاته وتطلعاته الجسمية والعقلية والاجتماعية ... فهو يعيش فيها أهم سني عمره ، وهو يكوِّن من أسلوب حياته معها منهجه العقلي تجاه المجتمع الأكبر ... فإن وجد فيها قوة وصلابة وبأساً فإنه يكتسب منها هذه القيم العقلية التي تصلح من حياته المستقبلية وتوجهه نحو النجاح والترقي ... وإن وجد منها أنها تولي أهمية كبرى لانتمائها للمجتمع والوطن الكبير الذي تعيش فيه وترتزق من خيراته نحا نحو حب الوطن وخدمته وبذل الجهد في إنمائه وتطويره والدفاع القوي عن قضاياه وحدوده وقيمه وعقائده . وترتبط علاقة الأسرة بالمجتمع بعدد من النقاط الهامة مثل تاريخ الأسرة في المجتمع ومدى تحقيق المجتمع لطلباتها الاقتصادية والاجتماعية والصحية ... وكذلك مدى مشاركة الأسرة في الحياة العامة في هذا المجتمع ، فكلما تعمق تاريخ الأسرة في المجتمع كلما عنى ذلك للأجيال الجديدة أن أجدادهم انتموا لهذا الوطن العزيز وعاشوا فيه وأن من واجبهم بالضرورة إكمال المسيرة والاستمرار في الانتماء لهذا المجتمع .

كذلك كلما لمست الأسرة أن المجتمع يحقق لها مستوى جيدا من المعيشة ويساعدها على حل مشاكلها الاقتصادية أو الاجتماعية أو الصحية فإن هذه الأسرة تشعر بالعرفان تجاه هذا المجتمع وتود في كل يوم أن تسدد دينها له ، وهي لا تسدد هذا الدين للمجتمع منطقياً إلا من خلال شعورها بالفخر والاعتزاز والاستعداد الحقيقي للتضحية في سبيل بقائه ضد أي عدوان خارجي .

كذلك فإن مشاركة الأسرة في القضايا العامة للمجتمع يتيح لها قدراً عالياً من تفهم قضاياه سواء العقائدية أو التنموية أو ما قد يحدث من مواجهات بين هذا المجتمع

والمجتمعات الأخرى .

2 ــ ما يخص المجال المدرسي

إن المدرسة هي ممثلة المجتمع الذي تتواجد فيه وهي تقوم بوظيفة على جانب كبير من الأهمية وهي إشعار التلاميذ بأنهم يعيشون في مجتمع يجب الولاء والانتماء له ، واعتناق قيمه والدفاع عنها .

وهذه العملية كما يبدو ليست سهلة بل هي عملية شاقة معقدة ؛ فالطفل أناني لم يتعلم في حدود أسرته القليلة العدد أن يكون مراعياً للمسلك الجماعي الأوسع الذي يجده في المدرسة ... وهو لأنانيته والتفافه حول ذاته لايرى إلا مصالحه وأهدافه وقيمه التي تعلمها طوال أربعة أو خمسة أعوام في الأسرة ، وهو فجأة يجد نفسه وقد زج به لأسباب يجهلها في مجتمع مدرسي كبير لايعرف نظمه و لم يسع للانضمام إليه وليس لديه كما يشعرالاستعداد للاستمرار فيه . وسرعان ما يرى نفسه في مواجهة مع الآخرين الذين يجهلهم ويخشاهم فهم جميعاً غرباء عليه .

ولكن النظام المدرسي الناجح يستطيع أن يحقن عقل الطفل بالثبات وعدم الخوف ... وأن يفهمه أن انتماءه للمدرسة سيزيد من قوته وأن ما أخذ من نرجسيته وحبه لذاته سوف يجد بديلاً عنه مع حبه لأصدقائه ونمو فكره بالعلم والثقافة .

وإذا كان الطفل طبيعياً ــ وهذا هو الحال في أغلب الأحوال ــ فإنه سيكتشف أن النظام المدرسي نظام أعطى له وأضاف إليه ، وأن ما كان يخافه ويخشاه ويحاول الابتعاد عنه ما هو إلا سراب رسمه له عقله الصغير البدائي .

وإذا ما كان القائمون بالتربية والتثقيف والتعليم بالمدرسة على وعي كامل واحترام شديد لمهنتهم ، فإنهم سوف يعلمون الطفل أن يثق بالنظام المدرسي في المستقبل وأن يتعاون معه وأن يبادر بذكر رأيه وشرح أفكاره في أي وقت يشاء ... وهو هنا يتعلم كيف أن تبادل الآراء مهم له وللآخرين ، فهو يتعلم الشجاعة العقلية والمبادأة ، وهو يتعلم أن يحترم للآخرين حقهم في أن يقولوا ويشرحوا أفكارهم مثلما احترموا حقه في إبداء رأيه .

وبازدياد حركة الاتصال بين التلميذ وبين زملائه وأعضاء هيئة التدريس بالمدرسة ، فإن شعوره بالانتماء لهم وللمدرسة يزداد ويتعمق حتى تصبح المدرسة جزءاً من كيانه العقلي والوجداني والاجتماعي . وعندئذ يكون الوقت المناسب قد حان للمدرسة لإفهام الطفل معنى الوطنية ، وضرورة احترامه وحبه للمجتمع الذي يعيش فيه .

إن هذا الجو الجماعي مهم لإنضاج عقل الطفل ، وليس هناك بالتالي فائدة تذكر إذا لقن معنى الوطنية والانتماء الوطني قبل أن يتم نضجه العقلي . أما وقد حدث النضج العقلي وبرزت خصائصه وسماته فإن الطفل يكون مستعداً لكي يفهم كيف يحب وطنه وكيف يدافع عن عقائده .

ومن المستحيل أن يؤمن الطفل بعقيدة مجتمعه قبل أن يحبه ... وهو لكي يحبه يجب أن يحب المدرسة (وهي رمز للمجتمع) التي يجب عليها كمؤسسة اجتماعية هامة معرفة هذا التسلسل الفكري في عقل ووجدان التلميذ ، فتعمل ما في وسعها لرفع الروح المعنوية للتلاميذ حتى يشعروا بالحب تجاه المدرسة .

3 ـ ما يخص المجال الجامعي :

الجامعات مؤسسات اجتماعية للتثقيف والتعليم العالي المتخصص في المجتمع ... وهي تتميز بالرقي لأنها تمنح المعارف الهامة للطلاب ، ولأن طلاب الثقافة والعلم فيها قد بلغوا من السن ما يؤهلهم لتلقي المعارف بشتى صنوفها . ولا خير في الجامعات في أي مجتمع إذا ما لم تقم باحترام عقيدة المجتمع ونظمه ولم تقم بخدمة وتنمية وتطوير هذا المجتمع ، ولهذا فالجامعة الوطنية هي التي تقوم بتنفيذ السياسة التي آمن بها المجتمع ، والتي تحقق ترسيخ عقيدته الدينية والأخلاقية والعلمية .

كذلك لاخير في الأستاذ الجامعي إذا لم يقم باحترام عقيدة المجتمع ومؤسساته واحترام زملائه وطلابه ... أما إذا اتصف بالغرور وبالسعي وراء الثراء ولم يعط طلابه العلم النافع المفيد فإنه يضيع جهود زملائه الذين يبذلون الجهد المخلص في سبيل تنمية مجتمعهم وتثقيف وتعليم الطلاب .

وعلى الجامعة أن تطور من مناهجها وأن تعتمد على تدريس الآداب والثقافات والعلوم الحديثة ما وسعها إلى ذلك السبيل ... وعليها أن توفر المكتبات والمعامل والكتب المنهجية للطلاب وخاصة الفقراء منهم ، وأن تشجع المتفوقين وترعاهم وترعى أفكارهم وأبحاثهم وأن تنميها وتكفل لها سبيل إفادة المجتمع الذي توجد به .

وعلى الجامعة أن تنمي روح الانتماء للمجتمع بين الطلاب ، وتعلمهم كيف يخدمونه ويمدونه بثقافتهم وخبراتهم وعلومهم ... إذ ما فائدة أن يتخرج الطلاب ولا يستطيعون خدمة وطنهم ، وما فائدة أن يتعلم الطلاب ثم يعطون ثمار تعليمهم لأمم أخرى ومجتمعات أخرى ؟

4 ــ المثقفون ودورهم في تقوية عقائد المجتمع :

لاسبيل أمام الناس لكي يكونوا مثقفين إلا أن يكونوا وطنيين . فكل مثقف يجب أن يكون وطنياً محباً لعقائد مجتمعه مدافعاً عنها ، زارعا إياها في نفوس أفراد المجتمع .

والمثقفون هم عقل المجتمع وضميره وقلعة فكره ورواد طريق تطويره وتحديثه وتعليمه .

ولكي يستفيد المجتمع من المثقفين يجب على المؤسسات الرسمية المعنية بالمجتمع بذل قصارى الجهود لرعاية هذه الفئة من المواطنين ... فيجب العمل على احترامهم وتبجيلهم وإحاطتهم بالظروف الاجتماعية المناسبة ، وحل مشاكلهم التي ربما تعوق تدفق فيض معلوماتهم وخبراتهم وتجاربهم إلى جموع المواطنين .

ولكي يستفيد المجتمع من المثقفين يجب أن يضعهم في طليعة راسمي خطط التنمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمع ، فهم يرون ويدركون ما لايراه ولا يدركه أغلب الناس ، وهم لديهم العقول الجبارة التي تمكن المجتمع من عبور مشاكله ومن مواجهة أعدائه ، ومن تطوير مؤسساته وبرامجه التنموية .

ويجب العمل على فتح الأبواب لكي يتمكن المثقفون من التعبير عن آرائهم

وتوجيهاتهم وأفكارهم لكي يرتفع المستوى العقائدي والثقافي والقيمي والعلمي لأفراد المجتمع .

إن المثقفين يمكنهم توجيه الناس ليس فقط أمام قضاياهم الجماهيرية أو السياسية الداخلية ولكن كذلك هم قادرون على توجيه الرأي العام الوجهة التي لايريدها الأعداء ، فهم بما لديهم من فكر صائب قوي ، وقدرة كبيرة على استبصار وإدراك مرامي الأعداء يمكنهم أن يسرعوا بتحصين الرأي العام ضد أهداف وخطط العدو .

إن أمة ليس بها مثقفون هي أمة بائسة ضعيفة يهزمها الأعداء من الجولة الأولى في معارك القتال أو في معارك المعتقدات .

وأمة لاتدرك قيمة مثقفيها هي أمة مراهقة لاتستقر على حال ولاتهتدي إلى طريق الرقي فهي غير ناضجة تتصرف وتسلك وفق الأهواء المتسرعة ، ولهذا فهي تخطئ أكثر مما تصيب في كل محاولة منها للوصول إلى الرقي والانتصار . أما الأمة التي تحترم مثقفيها وعقولها وعلماءها فهي أمة ضمنت لنفسها المسلك المنير الذي يوصلها يقيناً إلى التقدم والرفعة والانتصار على الأعداء .

5 — دور الأحزاب والقوى السياسية :

إن المقصود بالأحزاب السياسية تلك الجماعات التي تمثل تيارات سياسية في المجتمع وتسعى لتحقيق أهدافها وحل مشاكلها . وهي كما نرى تشكل الأعمدة التي تقام لكي ينبى عليها البنيان السياسي في المجتمع .

وكلما اتسعت القاعدة الجماهيرية لحزب سياسي كلما زادت قوته وزاد تأثيره على الرأي العام المحلي ــ وربما الدولي أيضاً ــ ويأتي ذلك من إخلاص قادة وأعضاء الحزب لقيم ومبادئ الحزب ، وكذلك من مدى قدرته على ضم عناصر وفئات جديدة لم تكن منضمة له من قبل بل ربما تكون قد وقفت ضد سياساته في وقت من الأوقات .

وتلعب سبل الدعاية المختلفة دوراً هاماً في شعبية الحزب وانتصاراته وذلك لأنها تبغي التأثير على الرأي العام وتوجيهه الوجهة التي تساعد الحزب في معاركه الإصلاحية .

ولكي يستفيد المجتمع من الأحزاب يجب أن ينص دستوره على أن أي نشاط سياسي تقوم به الأحزاب يجب أن يكون وطنياً ... أي في الصالح العام للمجتمع ومؤسساته وأفراده . كذلك يجب أن يؤمن قادة الأحزاب أن الصراع فيما بينهم على قضايا فرعية يضيع جهودهم وطاقاتهم سدى بحيث تكون قوى مهدرة كان يمكن أن يستفاد بها في تنمية المجتمع وتطويره . ومع ذلك فالديمقراطية تبيح الاختلاف ... فإذا ما تعددت الآراء فقد يحدث ذلك نوعاً من التشويش في عقول الناس البسطاء السذج الذين لايدركون حكمة الاختلاف ، وفلسفة تعدد الآراء بين المؤسسات الحزبية . وهذا قد يفسر لماذا يشعر البعض من السذج بقله الحيلة والتشتت الفكري عندما يشاهدون الخلافات في الرأي تتصاعد وترتفع بين السياسيين . وإذا ما حدث ذلك من فئات كثيرة من المواطنين فإنه إنما يدل على أن المنازعات الحزبية قد تخطت عقول وحاجات المواطنين وانحرفت عن درب الديمقراطية البناءة لكي تناقش قضايا فرعية لا تؤدي إلى ما يرغبه الناس وما تحتمه سنن الاجتماع والسياسة .

ولكي تنجح الأحزاب يجب أن تحل مشاكل المواطنين ... فإذا ما شعر الناس بأن مشاكلهم هناك من يتصدى لها قولاً وعملاً ، فإنهم سيضاعفون جهودهم في خدمة المجتمع ، ويزداد حبهم له وانتماؤهم إليه ، والافتخار به ، والعمل على الدفاع عن عقائده وكيانه .

وإن مجتمعا تنتشر فيه صور التباين وعدم الاستقرار والتعصب ونزعات الأنانية هو مجتمع تضعف فيه انتماءات المواطنين ، وتقل فيه رغبة الأفراد في الدفاع القوي عنه وعن مبادئه وقيمه .

أما إذا عملت الأحزاب السياسية على الارتقاء بمستوى معيشة المواطنين وبث روح الانتماء وحب الوطن بينهم فإن هذا المجتمع يصمد أمام الأعداء في أي موقعة من مواقع المواجهة .

6 ــ تقرير العدالة الاجتماعية والسياسية في المجتمع :

إن الظلم الاجتماعي أو السياسي سبب أساسي في تهدم الحضارات قديمها وحديثها ؛ ذلك لأن قوانين الكون والحياة إنما قامت وتقوم على التوازن بين الأجزاء والعناصر (والذرات كذلك) . والمجتمع ما هو إلا بنيان بشري قام ويقوم على أمل إمكانية تحقيق التوازن ... فإذا انعدمت فكرة التوازن بظهور الظلم الاجتماعي أو السياسي فإن المجتمع لايقوم لأنه فقد القيمة الأساسية التي يجب التمسك بها .

وإنما ترتقي الأمم بتقرير العدالة . ولايقاس مدى ما بلغته الحضارات بما تتركه لنا من أنقاض مدن أو معابد أو مقابر أو آثار أو تحف ، إنما بما تتركه لنا من قيم إنسانية رفيعة ومثل عليا نبيلة مثل العدل والضمير الأخلاقي وانتشار المودة والرحمة بين أفراد شعبها أجمعين .

وبمقدار ما يوجد من عدل اجتماعي وسياسي في مجتمع من المجتمعات بمقدار ما نتمكن من وصف ذلك المجتمع بالرقي والتحضر ... ولايستطيع قارئ في التاريخ البشري قديمه وحديثه إلا أن يقول إن البشر لم يتمتعوا إلا قليلاً بمجتمع الفضيلة والعدل والديمراطية .

والعدل الاجتماعي يعنى المساواة بين الناس كافة في الحقوق الدينية والأخلاقية والقانونية والعملية فلا يفضل ابن الغني على ابن الفقير في عمل يكون الثاني أحق وأولى به وأقرب إليه بعلم أو كفاءة أو خبرة لمجرد أن الأول ابن لغني . ويعني أن يقوم الغني برعاية الفقراء والتبرع لبناء مؤسسات المجتمع التي ترعى الدين والعلم والأسر التي يحطمها الفقر والبؤس والشقاء والمرض . ويعني ألا يقوم الأغنياء بقهر الفقراء وتجويعهم بالربا ورفع الأسعار الخاصة بالسلع أو بالخدمات . ويعنى أن يتطوع القادرون بمساعدة المحتاجين . فإذا ما تحقق تلاحم الغني والفقير تحقق العدل الاجتماعي كركن أساس من أركان بناء أي مجتمع بشري .

ولايمكن أن نتوقع عدالة سياسية بدون أن يتم تحقيق العدالة الاجتماعية فنحن نرى الديكتاتوريات تسقط وتتبدل لمجرد أن الظلم الاجتماعي قد ساد فتحطم الفقراء تحت عجلات الأثرياء . لقد ولت عصور الإقطاع والاستبداد في أوروبا (مثلاً) لانتشار الظلم الاجتماعي ... وعندما أدركت الشعوب أن الفقراء يجب مراعاتهم من قبل الأغنياء انصلحت أحوال تلك المجتمعات وباتت على الصورة الباهرة التي يراها فيها الآن أي زائر أو مقيم لأي دولة من تلك الدول .

ولكن العدل الاجتماعي وحده لايقيم مجتمعاً يتمتع بالقوة والاستمرارية والرفاء ... ولهذا فإن العدالة السياسية تكون واجبة كل الوجوب لكي يتم إقامة المجتمع الذي يتمتع فيه الأغنياء والفقراء بالحرية والأمن والطمأنينة .

والعدالة السياسية تعني من ضمن ما تعني حق الناس في اختيار وعزل ممثليهم بحرية . فهم يختارون من يرون أنه يحقق أمانيهم وتطلعاتهم ويحافظ على حرياتهم في التملك والحركة والنشاط . وتعني أن لكل فرد حقا متساويا مع حقوق الآخرين في هذا الاختيار أو هذا العزل ... دون النظر لدرجة ثرائه أو جنسه أو اسم عائلته أو وظيفته .

وإذا ما تحققت العدالة بشقيها الاجتماعي والسياسي فإن كل فرد في المجتمع يكون عارفاً بحقوقه وواجباته ... فالغني حر في غناه طالما يراعي حق المجتمع والفقراء ... فلا أحد يطمع في ماله أو ممتلكاته لأنه يعلم أن الأقل منه ثراء لن يكونوا مهددين من الفاقة والبؤس والمرض .

إذا ما سادت العدالة في المجتمع أمكن بث روح الانتماء والحب للوطن بأقوى صورة ممكنة . فجميع الأفراد راضون ، وجميعهم بالتالي مستعدون للدفاع عن الوطن في معاركه العقائدية والسياسية والتنموية والعسكرية .

7 ــ *تنظيم الرأي العام وتوجيهه :*

الرأي العام مصطلح حديث الاستخدام برز في علم الاجتماع السياسي بشكل

واسع في القرن التاسع عشر عندما أخذت وسائل الإعلام الحديثة وأهمها الصحف في الظهور والانتشار في معظم أنحاء العالم . وهو يعنى بإيجاز المسلك الذي تتجه إليه أنظار وتطلعات ورغبات وميول وحاجات الناس الذين يعيشون في المجتمع ، وهو بهذا يتصف بقوته السياسية لأنه يهم جموع الناس ويعبر عن ميولهم الهامة .

ويرتبط الرأي العام ارتباطا جذرياً بالمثيرات التي تظهره ... فهو سبب ونتيجة لأحداث توقعه وتحدثه وتكونه ... وهذه الأحداث بدورها تؤثر على الناس فيكونون ردود أفعال تتجمع وتتكثف لتشكل مجرى أساسيا يلفت نظر المسئولين بالمجتمع إلى ضرورة فهمه والتعامل معه بما يعود على المواطنين وعلى المجتمع بالخير والتقدم .

وتختلف الشعوب اختلافاً كبيراً في ردود أفعالها التي تكون الرأي العام ... وذلك يرجع إلى درجة ثقافة الناس ، ونوع القيادات الموجودة والمؤثرة عليهم ونوع الظاهرة أو الأحداث التي تهم الناس ، وقدرة الحكومة على فهم حاجات الناس وكيف تسلك أقصر الطرق وأسلمها لحل مشاكلهم .

فما فائدة الصحف والكتب في مجتمع أمي لم تطبق فيه وسائل محو الأمية ليتنسى للأفراد أن يقرءوا ليعرفوا سياسة المجتمع فيعملوا على تقويتها ورسوخها . وما قيمة الرأي العام في مجتمع يتصف قادته بالديكتاتورية أو الفوضوية ... ثم ما قيمته إذا ما تشكل وطالب بتدخل المسئولين في المجتمع ولكن هؤلاء ليس لديهم الحنكة والحكمة في حل مشاكل الناس ؟؟

ولقياس الرأي العام يجب فهم الشخصية القومية للمجتمع ، ويجب معرفة النقاط الحساسة في عقول الناس ومشاعرهم ... ثم يأتي بعد ذلك شمول الاستطلاع وعدم قصره على منطقة جغرافية بعينها ... أو طبقة معينة من طبقات الشعب . كذلك يجب سرعة إجراء الاستطلاع ... فلا قيمة لبحث يهدف إلى قياس الرأي العام إزاء ظاهرة أو مشكلة معينة وقد جاء بعد انتهائها وربما يكون عدم إجرائه أفضل في هذه الحالة من إجرائه والأخذ بنتائجه غير الصادقة التي يترتب عليها تنفيذ سياسات بنيت على الباطل والخداع وعدم الصواب .

ولتوجيه الرأي العام الوجهة البناءة يجب أن يتمتع المجتمع بالتوازن الاجتماعي والسياسي ، وأن يشعر الأفراد بالحرية والأمن ، وأن تكون وسائل الإعلام ملتزمة بقيم وعقائد المجتمع ... فهذه الأمور كلها تخلق رأياً عاماً قوياً وتوجهه الوجهة التي تعود على المجتمع بالتطور والازدهار .

8 – *حماية المجتمع من شرور العدو العقائدية :*

إن شرور العدو تسلك ضدنا عدة مسالك :

ا – فهو يحاول غزونا إعلامياً وثقافياً وأيديولوجياً .
ب – وهو يحاول التقليل من اعتبارنا لقيمنا ومثلنا وعقيدتنا .
جـ – وهو يحاول كسب أصدقائنا وتحويلهم في صالحه .
د – وهو يحاول زيادة عدد أعدائنا بإظهار مساوئنا وسلبياتنا واختلاق الأكاذيب لإثبات ذلك .
هـ – ثم إن العدو يقوي من قواه ويعزز من أيديولوجية شعبه ضدنا لكي يشعر قادته بأن شعبهم مستعد للدخول معنا في أي معركة تعود عليه بالانتصار .

هذه هي أهم شرور وعدوانية العدو ضدنا ... وهو لتحقيق ذلك يسلك طريقاً متخفياً تحت مظلة الدعاية ووسائل الإعلان في أي مكان وزمان يمكنه العمل فيه .

وإذا ما كانت تقوية صفوفنا وتوحيد كلمتنا وتمسكنا بالحكمة والعقل هي أهم عنصر من عناصر مواجهة شرور العدو العقائدية ، فإن هذا لايكفي وحده لكي نتحصن ضد شروره ونكشف ألاعيبه ... بل يجب علينا أن نسير وفق سياسة تعريف العالم كله بحقيقتنا السمحة وعقائدنا الخيرة ونوايانا السلمية الصالحة ... يجب أن ننتقل إلى عقول الأصدقاء ووسائل إعلامهم حتى نعمق صورتنا في عقول الشعوب الصديقة لنا وأن يكون ذلك بصورة مستمرة ، فلا نكتفي بحملة إعلامية نقوم بها لمدة عدة أشهر ونصور لأنفسنا أننا بذلنا الجهد ونجحنا ، وآن لنا أن نستريح بعد

ذلك ... بل يجب علينا أن نحافظ باستمرار على احترام وثقة ومحبة الشعوب الصديقة لنا .

ثم لماذا لا نهاجم العدو نفسه في عقر داره بنفس السلاح الذي يشهره ضد شعوبنا ، لماذا لانقيم الإذاعات التي تتكلم بلغته ونرد على افتراءاته وأكاذيبه وضلالاته ؟ لماذا لا نُشعر شعبه بجميع فئاته وأعماره أن قادتهم كاذبون منافقون ، وأن عليهم أن يعرفوا أن ما صوروه لهم عنا إنما هو باطل وبعيد عن المنطق والعقل ؟

الفصل الخامس

الإسلام ضد غسيل المخ والقمع الفكري

- العدالة في الإسلام
- كيف عامل الإسلام المخالفين في العقيدة
- الشورى في الإسلام نظام يبطل الديكتاتورية
- الرحمة تكف القمع (أسلوب معاملة الاسرى في الإسلام)

لاينظر المسلمون لدينهم على أنه دين يحث على ممارسة العبادات التي تقرب الإنسان لربه فحسب ... ولكنهم ينظرون ــ أو هكذا يجب عليهم ــ إليه كذلك على أنه دين يحث على أرقى المعاملات بين الناس وبعضهم البعض . ولهذا فلا عجب أن يقول الرسول ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

و لم يكن أغلب البشر قبل الإسلام ــ كما نعلم ــ إلا في ضلال مبين ... فهاهم أولاء اليهود يقتلون أنبياءهم ... وعرب الجاهلية يقتلون بناتهم ... والفسق والفجور والكذب والرياء وقهر الشعوب الشعوب وديكتاتورية الملوك تنتشر في المدن والقرى حتى خاب ظن الناس وضاعت جهودهم سدى في إقامة المجتمع الفاضل .

وإنما يعود ذلك الضلال بلا شك إلى سيادة النزعات العدوانية بين البشر واختفاء كل الجهود التي تحث على العدالة والمساواة واحترام الإنسان لأخيه الإنسان .

ولقد شهد التاريخ القديم تقسيمات عديدة للبشر ... تركزت في مجملها في أن هناك أشرافا من الملوك والأمراء ، وهناك عامة الشعب من الفلاحين والعمال الذين يعاملون معاملة العبيد ... فليس لهم من حقوق ... وليس لهم من قوانين تحميهم وتنصرهم وتبعد عنهم الأذى الاجتماعي المسلط فوق رقابهم .

ولقد استخدم أفراد الفئة الأولى كل ما لديهم من قوة لكي تدوم دولهم وتبقى عروشهم وتستمر ديكتاتورياتهم وليتمتعوا بالثراء على حساب عمل الفقراء الكادحين ليل نهار في خدمتهم ... وهم لم يستخدموا القوة المادية من جنود وسلاح وسجون ووسائل عقاب لكي يسترقوا الضعفاء ولكنهم ضموا لهم فئة الكهان ورجال المعابد لكي يخلقوا عدداً وافراً من الآلهة الذين يرهبون بسلطانهم الزائف عامة الشعب من السذج والضعفاء . فكم من إله زائف خلقه الكهنة في مصر القديمة ... وكم غيرهم خُلقوا في دول الإغريق والرومان والفرس وعرب الجاهلية ... لا لشيء إلا لتقوية نفوذ الملوك والأمراء والسلاطين وزعماء القبائل .

ولهذا فقد استمر ظلم الإنسان لأخيه الإنسان آلافا عديدة من السنين ، واستمر بذلك القمع وتحطيم الإرادة والتزييف والسيطرة على الفكر والمعتقد من الأقوياء تجاه الضعفاء ، حتى تحطمت تلك الأفكار فجأة بظهور الإسلام وانتشاره فزلزلت الأرض تحت أقدام الملوك والسلاطين والأمراء الذين كانوا يوهمون الناس بأنهم أعلى منهم مقاماً وأرفع شأنا . لقد عرفوا أن نهايتهم قد قربت وأن عروشهم قد أوشكت على السقوط وأن إرادة الشعوب سوف تظهر وتنتصر ؛ لأن الله لايرضى الظلم والهوان والبؤس والشقاء للمستضعفين في الأرض .

ولم يكن ذلك أمراً هيناً بالنسبة للظلمة ، وهم الذين استوثقوا بقوة بأسهم وطغيانهم على مر العصور .

« لقد كان قوام سيرة النبي ﷺ تحقيق العدل الخالص المطلق بين الناس — كما يقول الدكتور طه حسين رحمه الله — والله عز وجل يقول : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وكان أغيظ ما غاظ قريشاً من النبي ودعوته أنه كان يدعو إلى هذا العدل وإلى هذه المساواة ؛ ولم يكن يفرق بين السيد والمسود ، ولا بين الحر والعبد ولا بين القوي والضعيف ، ولا بين الغني والفقير ، وإنما كان يدعو إلى أن يكون الناس جميعاً سواء كأسنان المشط ، لا يمتاز بعضهم من بعض ولا يستعلي بعضهم على بعض »[1] .

ويشرح الدكتور أحمد الشرباصي رحمه الله كيف « استمرت دعوة النبي ﷺ إلى إقامة مجتمع العدالة حتى أخريات أيامه ، فنراه في حجة الوداع يخطب الناس فيقول : ألا إن ربكم واحد ، لافضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ولا أسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : فليبلغ الشاهد الغائب »[2] .

---

(1) طه حسين — الفتنة الكبرى — عثمان — الطبعة العاشرة — دار المعارف القاهرة 1984 .

(2) يسألونك في الدين والحياة — الدكتور أحمد الشرباصي — المجلد الثاني — الطبعة الثالثة 1980 — دار الجيل — بيروت .

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد ضرب المثل الأعلى في العدالة وتطبيقها على الناس كافةٍ فإن « صاحبيه ــ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ــ قد اجتهدا من بعده أن يذهبا مذهبه ويسيرا سيرته ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً ــ كما يقول الدكتور طه حسين ــ بل هَمَّ أبو بكر أن يكلف نفسه فوق ما تطيق ، فأراد أن يكون إماماً للمسلمين ينظر في أمرهم ويقف عليهم وقته وجهده ، وأن يسعى مع ذلك ليكسب قوته وقوت أهله ، ورآه المسلمون ذات يوم يحمل بعض العروض يسعى بها إلى السوق ليبيع ويشتري كما كان يفعل قبل أن يستخلف ، وكما كان المسلمون يفعلون من حوله ، ولكن المسلمين أشفقوا عليه من ذلكِ ، أو أحس هو العجز عن أن يكون كاسباً وخليفة في وقت واحد ، على اختلاف في الروايات ، فرزقه المسلمون من بيت المال ، ولم ييسروا عليه في الرزق ، وإنما أعطوه ما يقيم أوده وأود أهله »[1] .

« وقد سار أبو بكر سيرة النبي نفسه ، فتحرج أن يموت وعنده من أموال المسلمين شيء ، وأوصى آل أبي بكر أن يردوا على عمر هنات كانت عنده من أموال المسلمين ، وقد وردت هذه الهنات على عمر فبكى وهم أن يقبلها ، فأنكر عليه عبد الرحمن بن عوف ذلك ، ولكن عمر أبى إلا أن يتحرج في ذات صاحبه كما تحرج هو في ذات نفسه ، وكره أن يلقى أبو بكر ربه فيسأله عما بقي عنده من هذه الهنات ، وكره أن يقول أبو بكر لربه : « ردها أهلي وأبى عمر أن يقبلها »[2] .

« وكذلك بلغ حرص النبي وأبي بكر على العدل أن يتأثما مما لا أثم فيه ، وأن يتحرجا مما لاتتحرج منه ضمائر الأتقياء ، ولو قد طالت خلافة أبي بكر لرأينا منه في ذلك الأعاجيب ، ولكن خلافة عمر جاوزت عشر سنين ، فأرانا من ذلك ما لا تكاد تصدقه النفوس . فقد كان عمر شديداً على الناس إلى أقصى حدود الشدة في

---

(1) طه حسين ــ الفتنة الكبرى ــ عثمان ــ مرجع سابق .

(2) المرجع السابق .

ذات الله ، ولكنه كان على نفسه أشد منه على الناس ، وما أعرف ــ الحديث هنا للدكتور طه حسين ــ أن التاريخ الإنساني كله يستطيع أن يجد لعمر نظيراً في هذا الضمير الحي الحساس المتحرج المتأثم الذي يخاف على نفسه مالا يخاف ، وينكر من نفسه مالا ينكر ويأخذ نفسه من ضروب الشدة والعنف بما لا يأخذ الرجل به نفسه إلا أن يكون من أولي العزم . والناس يعلمون أن عمر رأى الشدة التي نزلت بالمسلمين في عام الرمادة ، فأبى إلا أن يشارك الناس في شدتهم ، وأبى إلا أن يشارك من الناس في هذه الشدة أعظمهم حظاً من الفقر والضيق . وكان في عام الرمادة يتتبع طعام أهله تتبعاً دقيقاً ، فإن رأى عند أحدهم يسراً أو سعة رده عن ذلك رداً عنيفاً . ثم كان بعد أن يعنف بنفسه وبأهله هذا العنف لايتحرج في أن يأخذ الناس بسياسته تلك التي وصفها حين قال : شدة في غير عنف ، ولين في غير ضعف »[1] .

ولم يكن عمر رضي الله عنه غليظاً فظاً بلا قلب ولا رحمة كما قد يتصور بعض البسطاء ... فقد روى الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله أن عمر رضي الله عنه « جيء له يوماً بشارب سكران وأراد أن يشتد عليه فقال له : لأبعثنك إلى رجل لاتؤخذه فيك هوادة ... فبعث به إلى مطيع بن الأسود العبدي ليقيم عليه الحد في غده ، ثم حضره وهو يضربه ضرباً شديداً ، فصاح به : قتلت الرجل ... كم ضربته ؟ ... قال : ستين ، قال : أقص عنه بعشرين . أي ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات . وقد كان من دأبه أن يتريث في إقامة الحدود ، حتى ليؤثر ــ كما قال ــ تعطيلها في الشبهات على أن يقيمها في الشبهات . وربما غضب على الوالي من كبار الولاة لغلوه في تقاضي الحدود على المعاصي ، كما فعل في إنذاره الشديد لأبي موسي الأشعري حين جلد شاربا وحلق شعره وسود وجهه ونادى في الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه . فأعطى الشاكي مائتي درهم وكتب إلى أبي موسى : لئن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك في الناس . وأمره

---

(1) المرجع السابق .

أن يدعو المسلمين إلى مجالسته ومؤاكلته وأن يمهله ليتوب ، ويقبل شهادته إن تاب .

« وتفقد عمر رجلاً يعرفه فقيل له إنه يتابع الشراب ، فكتب إليه : إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، ذا الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير . فلم يزل الرجل يرددها ويبكي حتى صحت توبته وأحسن الندم وبلغت توبته عمر ، فقال لمن حضروا مجلسه : هكذا فاصنعوا ... إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة فسددوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه »(1) .

« وقد تكرر منه إعفاء الزانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقاومة ، وتكرر منه الإعفاء لمثل هذا العذر في غير ذلك من الحدود . فلم يكن عمر بالسريع المتعطش إلى إقامة الحد ولم يعرف عنه قط أنه أقام حداً وله مندوحة عنه »(2) .

وقد نحا المسلمون نحو تطبيق المساواة والعدالة فيما بينهم حتى أمام المخالفين لهم في العقيدة ؛ فقد روى الدكتور أحمد الشرباصي رحمه الله « أن عمرو بن العاص بعث لمفاوضة المقوقس حين فتح مصر وفداً من الجيش الإسلامي برياسة عبادة بن الصامت ، وكان أسود اللون ، وهو الصحابي الذي شهد المشاهد كلها ، وكان النبي يستعمله على الصدقات ، وهو أحد خمسة جمعوا القرآن في عصر النبوة ، والذي ولاه عمر الفاروق تعليم أهل حمص ، وكان أول من تولى قضاء فلسطين ، وهو أحد الذين بايعوا النبي على أن لاتأخذهم في الحق لومة لائم . وذهب الوفد ولاقى المقوقس ، وتقدم عبادة ليتكلم ، فقال المقوقس : نحوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره ليتكلم . فأجابوا : إن هذا أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ؛ وإننا نرجع جميعاً إلى رأيه وقوله . فقال لهم المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون دونكم . فقالوا : كلا ، إنه وإن

---

(1) عبقرية عمر ــ عباس محمود العقاد ــ دار الهلال 1988 .
(2) المرجع السابق .

كان أسود كما ترى ، فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة ورأياً وعلماً ، وليس ينكر السواد فينا . فأذعن المقوقس وتفاوض مع عبادة »[1] .

ولعل القارئ هنا يلاحظ أن المقوقس هذا كان ملك القبط في مصر ... وقد تشابهت نظرته للسود من الناس مع نظرة المسيحيين في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم للسود الأمريكيين سواء أكانوا مسيحيين مثلهم أم ينتمون إلى ديانات أخرى . فهناك كنائس للبيض وكنائس للسود في كثير من المدن ، والزائر لمدن أمريكية معروفة مثل مدن فلادلفيا ودوفر وشيكاجو وسان أنتونيو يلاحظ ذلك بمنتهى الوضوح .

ويمضي المرحوم الدكتور أحمد الشرباصي إلى سرد رواية أخرى عما وصلت إليه العدالة والمساواة بين المسلمين فيقول : « تغاضب أبو ذر الغفاري مع بلال الحبشي ، فقال أبو ذر لبلال : يابن السوداء وبلغ الخبر النبي ﷺ فغضب غضباً شديداً وقال لأبي ذر : طفَّ الصاع — أي طفح الكيل — أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح فندم أبو ذر ، وتألم ، وتاب واستغفر ، وطلب من بلال أن يطأ بنعله على وجهه »[2] .

« وهذا عطاء بن أبي رباح . كان سيد التابعين علماً وعملاً وفقيه مكه والحرم ، وخليفة ابن عباس في الفتوى ، وكان يقال عنه لأهل مكة : كيف كان عطاء بن أبي رباح فيكم ؟ فيجيبون : كان مثل العافية التي لايعرف فضلها إلا حين تفقد . وكان ولاة الأمور يقولون في موسم الحج : لايفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح . وعطاء هذا كان أسود ، أعور ، أفطس ، مفلفل الشعر ، وكانت أمه سوداء تسمى (بركة) .

---

(1) يسألونك في الدين والحياة — الدكتور أحمد الشرباصي — المجلد الثاني — الطبعة الثالثة 1980 (مرجع سابق) .

(2) المرجع السابق .

هذه هي كلمة الإسلام في التفرقة بين الناس بسبب الألوان أو الأجناس وهي كلمة تدل على عظمة الإسلام ، وجلال تاريخ المسلمين ، وفيها عظة وبلاغ لقوم يعقلون »[1] .

* * *

ولايجب أن يعتقد البعض أن الإسلام إنما وضع أسس العدالة لكي يتم تطبيقها بين المسلمين وبعضهم البعض فحسب ... بل إن التاريخ الديني والسياسي للدولة الإسلامية يظهر أن المسلمين قد عاملوا المختلفين معهم في الدين معاملة كريمة خيرة عطوفة ... وإذا كانت كتب التاريخ تمتلئ بالمآسي التي ارتكبها اليهود مع المختلفين معهم في الدين ... وتمتلئ بالمجازر والمحارق وغرف التعذيب بين المسيحيين وبعضهم البعض وبينهم وبين المسلمين وخاصة في العصور الوسطى في أوروبا وبينهم وبين اليهود في القرن العشرين (النازية وما فعلته ضد اليهود) فإنه ما من كاتب تاريخي منصف استطاع أن يظهر أن المسلمين قد اضطهدوا اليهود أو النصارى في أي مجتمع عاشوا فيه معاً حتى الآن .

فإذا كان الرسول ﷺ والتابعون له قد صبروا على الكفار الذين يعبدون الأصنام فهل لايستطيع المسلمون معايشة أهل الذمة من اليهود والأقباط ؟

لقد استهزأ الكفار بالنبي ﷺ وبالمسلمين فأنزل الله كلماته لكي يقوي إيمانه ويزيد من صبره ويبشره بمصير الكافرين : ﴿ **ولقد استزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ [الأنعام : 10] .

وكذب الكفار وأتباعهم ومن يساندهم النبي ﷺ فنزل القرآن ﴿ **وإن يكذبوك**

(1) المرجع السابق .

فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ [الحج : 42 - 45] .

ولقد قام الله تعالى بإعطاء نصحه للرسول عليه الصلاة والسلام بأن يبتعد عن الكفار وأتباعهم ومن يساندهم وأن يتحاشاهم كلما أمكن له ذلك ونصحه سبحانه أن يتبرأ من سلوكهم وأعمالهم وطغيانهم فقال : **﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾** [يونس : 41] .

هكذا كان الرسول ﷺ وأتباعه الأول يتعايشون مع الكفار ، فقد صبروا على أذاهم ، وصبروا على استهزائهم ، وصبروا على جحودهم وتكذيبهم لرسالة الإسلام ... فكيف يمكن أن يتصور إنسان أن المسلمين لم يعاملوا اليهود والنصارى بالعدل والرأفة والاحترام ؟ إن الرسول ﷺ قام بعقد صلح مع الكفار (صلح الحديبية) لأنه علم أن في ذلك الصلح خيرا للمسلمين . يقول رفاعة الطهطاوي : « إن النبي ﷺ دعا الكاتب (أي كاتب عقد الصلح) فقال له اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل (مندوب الكفار) لا أعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة ، اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون : لاتكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ : اكتب باسمك اللهم . فكتب ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ... فقال سهيل لوكنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ إني لرسول الله وإن كذبتموني . وأنا محمد بن عبد الله اكتب محمد بن عبد الله . وفي رواية كان الكاتب علي بن أبي طالب وكان قد كتب محمد رسول الله فقال رسول الله ﷺ لعلي أمح رسول الله واكتب مكانه محمد بن عبد الله . فقال علي لا والله لأمحوك أبداً . فقال النبي ﷺ فأرنيه . فأراه إياه . فأخذ الكتاب بيده الكريمة ومحا رسول الله وكتب مكانه محمد بن عبدالله .

وكانت هذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث كتب بيده الشريفة ولم يكن

يكتب . وأقبل بوجهه ﷺ على علّي بعدما كتب في كتاب الصلح محمد بن عبد الله . فقال يا علي سيكون لك يوم مثل هذه الواقعة . ثم قال الرسول ﷺ لعلي اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، وإن كان مسلماً . وإن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ... إلخ . ولقد كان النبي ﷺ على علم أن هذا الصلح سبب لأمن الناس وظهور الإسلام وأن الله يجعل فيه فرجاً للمسلمين وهو أعلم بما علمه ربه وإن كان أمر هذا الصلح قد عظم على المسلمين حتى كادوا يهلكون لما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع من غير فتح »(1) .

« وكان صلح الحديبية فتحاً قريباً أمن الناس بعضهم بعضاً ، ورضا من الله تعالى ؛ قال تعالى : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ وقال أهل السير : أقام النبي ﷺ عشرين يوماً بالحديبية ثم رجع إلى المدينة وما فتح من قبله فتح أعظم من هذا الفتح ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضا التقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام أحدا إلا دخل فيه . فلقد دخل في مدة سنتين في الإسلام مثل ما كان قبل ذلك أو أكثر ببركة مهادنته ﷺ . ولما رجع ﷺ إلى المدينة حتى إذا كان بين مكة والمدينة بكراع الغميم نزل ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبينا** ﴾ إلى آخرها وسمي فتحاً لأنه كان مقدمة لفتوح كثيرة تتسع بها دائرة الإسلام . ولما نزلت قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أنزلت عليَّ سورة هي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس »(2) .

وقد جاء في كتاب فقه السيرة لمحمد الغزالي : « أن الرسول ﷺ لما تم له فتح مكه وتطهير الكعبة من الأصنام وقف وقال : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل

---

(1) محمد ﷺ ــ رفاعة الطهطاوي ــ الجزء الثالث ــ دار مأمون للطباعة والنشر ــ القاهرة 1976 .
(2) المرجع السابق .

بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فإني أقول لكم ما قاله يوسف لإخوته لاتثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء . وعندما كان الرسول بالمسجد يجهز على الوثنية في عاصمتها الكبرى ، اقترب منه فضالة بن عمير يريد أن يجد له فرصة ليقتله . فنظر إليه النبي ﷺ نظرة عرف بها طويته إلا أنه في غمرة النصر الذي أكرمه الله به لم يجد في نفسه على الرجل بل استدعاه ثم سأله : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله !! فضحك النبي ثم قال : استغفر الله . وتلطف معه الرسول فوضع يده على صدره . فانصرف الرجل وهو يقول : ما رفع يده عن صدري حتى ما مِنْ خلق الله شيء أحب إليَّ منه »[1] ويوضح فضيلة الشيخ عطيه صقر كيف كان الرسول ﷺ يدعو غير المسلمين إلى الإسلام فيقول : « لما أعطى النبي ﷺ الراية لعلي يوم خيبر قال : يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : لا ، أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه . فو الله لأن يهدي بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم .

وقد فعل الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك أخذاً بقول الله : ﴿ **لا أكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[2] .

« وقد نقل ابن جرير الطبري عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار وهو أبو الحصين من بني سالم بن عوف ، كان له ولدان تنصرا قبل مبعث النبي ﷺ ، ثم قدما المدينة في نفر من الأنصار يحملون الزيت ، فلزمهما أبوهما وقال : والله لا أدعكما حتى تسلما ، فأبيا ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقال الأنصاري : يارسول الله أيدخل بعضي في النار وأنا أنظر ؟ فنزلت هذه الآية . كذلك استلهم النبي قوله تعالى : ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ وقوله

---

(1) فقه السيرة ــ محمد الغزالي ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة ــ الطبعة الخامسة ــ 1965 .
(2) الدين العالمي ومنهج الدعوة ــ لفضيلة الشيخ عطية صقر ــ مجمع البحوث الإسلامية الكتاب الحادي عشر ــ 1970 .

تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين * وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله** ﴾ [يونس : 99 ، 100] . فعلى ضوء هذه النصوص وغيرها كانت دعوة النبي ﷺ إلى الإسلام وعلى هديه سار أصحابه من بعده ، وقد اختلط المسلمون بأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وكان بينهم نقاش كبير أمر فيه المسلمون بالتزام الجادة واتباع الطريق الأحسن ، وهو إظهار محاسن الإسلام وأثره في أخلاق المسلمين ومعاملاتهم ، فذلك خير دعاية له »[1] .

« ذكر الشيخ محمد عبده : إن غير المسلمين كانوا إذا فتحوا بلداً عينوا دعاة لنشر دينهم بكل ما أوتوا من قوة ، و لم يقع ذلك لفاتح من المسلمين . بل كانوا يكتفون بمخالطة عدوهم ومحاسنتهم في المعاملة ، فيغريهم ذلك على الإسلام ، ولأن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً ، عندما كان يعدها الأوروبيون ضعة وضعفاً ، وبلغ أمر المسلمين فيما بعد أنهم لم يقبلوا إسلام راغب في الدين إلا بين يدي قاض شرعي يقر أمامه أنه أسلم بلا إكراه ... ووصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية ، وكان من حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لامحالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال ، وقد أُثر عنه أنه قال : ما بعث محمد جابياً ولكن بعث هادياً »[2] .

إذن فالإسلام قد احترم حقوق الأقليات وحرياتهم واحترم دينهم وعقائدهم و لم ينتشر بالعنف أو الإجبار أو القهر وإلا « كيف اعتنقه المغول والتتار وهم في أتم قوة وأعظم بطش ، وقد جاءوا للقضاء على الإسلام فانقلبوا مسلمين . ولو كان انتشار الإسلام بالقهر فكيف يفسر انتشاره بسرعة في أيام الضعف السياسي والعسكري للدولة الإسلامية ؟ لقد كان أثر الرحالة والتجار والطرق الصوفية بالغاً

---

(1) المرجع السابق .
(2) المرجع السابق .

مبلغاً عظيماً في نشر الإسلام في أفريقيا وآسيا بالطريق السلمي دون إغراء أو تهديد . ولو نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامي اليوم لرأينا أن البلاد التي قلت فيها حروب الإسلام هي التي يقيم فيها أكثر مسلمي العالم وهي بلاد أندونيسيا والهند والصين وسواحل القارة الأفريقية وسهول الصحراء الواسعة ، فإن عدد المسلمين فيها يقرب من ثلثمائة مليون ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذي لايجدي في تحويل الآلاف عن دينهم ، في الوقت الذي فيه البلاد التي كانت مسرح الفتح الإسلامي ، وهي العراق والشام ، لايزيد عدد المسلمين فيها على عشرة ملايين ، يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين وغيرهم »[1] .

ملاحظة : يرجي مراعاة أن إحصاءات عدد السكان التي وردت أعلاه تعود إلى حقبة الستينيات .

وبالرغم من أن الإسلام لم ينتشر بالقمع والإكراه وبحد السيف كما يقول أعداؤه إلا أننا يمكننا أن نرى كم مرة وقف فيها المسلمون للقتال الذي فرض فرضاً عليهم من الشرق ومن الغرب .

فها هم أولاء الفرس ، وها هم أولاء الروم ، وها هو ذا طوفان التتار ثم المغول ... وها هي ذي الحملات الحربية الصليبية التي أتت موجات بعد موجات لتحطيم العقيدة الإسلامية وقمع المسلمين وتحويلهم عن إيمانهم ... ثم مجازر الأندلس التي أحرق فيها المسلمون حرقاً لكي يرتدوا عن دينهم . أما في العصر الحديث فقد رأينا حملة الروس لاحتلال أراض إسلامية وهي أفغانستان ... ورأينا — ولا زلنا نرى — الهجمة الصهيونية العنصرية تحتل فلسطين وتقتل وتخرب وتدمر العرب المسلمين وثقافتهم وأفكارهم وتراثهم .

(1) المرجع السابق .

لقد عبر الأستاذ محمد جلال كشك في كتابه التاريخي (ودخلت الخيل الأزهر) عن عظمة العدالة الإسلامية ورحمتها وتخلف عدالة أعداء الإسلام وخلوها من الرحمة فقال : « عندما اجتاح الغضب ابن عمر بن الخطاب لما سمع بمؤامرة فارسية يهودية هي التي أدت إلى مصرع والده ... اندفع فور وقوع الحادث فقتل ثلاثة من الذين اتهمتهم المصادر التي يثق بها . فثارت ثائرة المجتمع الإسلامي . وسجل الطبري هذه الغضبة الإسلامية لخرق العدالة وحرمان المتهمين من المحاكمة في كلمة خالدة وهي قوله : وأظلمت الدنيا بالناس ثلاثة أيام . أظلمت الدنيا بالمسلمين في القرن السابع الميلادي لأن ابن أمير المؤمنين أذهله منظر أبيه المطعون ودمه ينزف فسحب سيفه وقتل من أجمعت الروايات على أنهم هم الذين دبروا الجريمة . واعتقل ابن عمر وطالب الرأي العام بإعدامه . وذكر المؤرخ الإسلامي أن عثمان تجنب القصاص من ابن عمر ابن الخطاب ، بفتوى عمرو بن العاص من أن الجريمة وقعت في فترة لم يكن للمجتمع فيها سلطة مستقرة ، وقبل أن يتولي عثمان الخلافة ، ومن ثم فهو غير مسئول عنها ... ولذلك لجئوا إلى عفو أصحاب الحق المدني فسلموهم ابن أمير المؤمنين وسيفاً ... وسألهم ولي القصاص : هل لي الحق كل الحق في أن أقتله !؟ قالوا : نعم ! ... قال هل يصيبني مكروه إن قتلته ، قالوا : لا ... هذا حقك ... عندئذ عفا الرجل »[1] .

ويقارن الأستاذ محمد جلال كشك بين هذه العدالة الإسلامية ورحمتها وبين نوعية (العدالة) الفجة القاسية التي طبقها الفرنسيون أثناء حملتهم على مصر وبعد مقتل زعيمهم وقائدهم كليبر ويقول : قضت المحكمة الفرنسية : بعد الاطلاع على مرسوم تشكيلها ــ أي تشكيل المحكمة ــ إن يتم حرق يد سليمان الحلبي اليمنى ... وبعده يتخوزق ويبقى على الخازوق لحين تأكل رمته الطير وهذا يكون فوق التل الذي برا قاسم بيك ويسمى تل العقارب . وبعد دفن ساري عسكر العام كليبر ،

(1) ودخلت الخيل الأزهر ــ محمد جلال كشك ــ دار المعارف ــ القاهرة 1978 .

وقدام كامل العسكر وأهل البلد الموجودين في المشهد . وأيضاً أفتوا ــ أي حكمت المحكمة ــ بالحكم على محمد الغزي ، وعبد الله الغزي ، وأحمد الوالي أن تقطع رءوسهم وتوضع على نبابيت وجسمهم يحرق بالنار . وهذا يصير في المحل ــ أي المكان ــ المعين أعلاه . ويكون ذلك أمام سليمان الحلبي قبل أن يجري فيه شيء . هذه الشريعة والفتوى لازم ينطبعوا باللغة التركية والعربية والفرنسية »[1] .

* * *

ونأتي الآن إلى جانب آخر من الجوانب التي انفرد بها الدين الإسلامي والتي كانت سبباً مباشراً فيما بعد في وضع أسس الحكم في الإمبراطوريات الكبرى في التاريخ ونعني بذلك نظام الشورى ... وهو النظام الذي يثبت أن الإسلام يحارب القمع وتحطيم الإرادة وغسيل المخ بكل صوره الفردية أو الجماعية .

يقول الأستاذ عباس العقاد رحمه الله في كتابه (الديمقراطية في الإسلام) : « إننا نرى أن الديمقراطية كانت في اليونان القديمة من قبيل الإجراءات أو التدبيرات السياسية التي تتقى بها الفتنة ويستفاد بها من جهود العامة في أوقات الحرب على الخصوص ، ولم تكن هذه الديمقراطية مذهباً قائماً على الحقوق الإنسانية أو منظوراً فيه إلى حالة غير حالة الحكومة الوطنية ، فهي على الجملة إجراء مفيد وتدبير لامحيد عنه لاستقرار الأمن في الدولة ، وعلى هذا التقدير نظر إليها المؤرخ اليوناني الكبير هيرودوت فقال : إن الاثينيين كانوا لا فضل لهم على من جاورهم في الشجاعة أيام خضوعهم للطغاة ، فما هو إلا أن نفضوا عنهم غيرهم حتى تقدموا إلى الرعيل الأول بين الجميع ، وتبين من هذا أنهم رضوا بالهزيمة حين كانوا مقهورين يعملون للسيد المسلط عليهم ، فلما ملكوا زمامهم حرص كل منهم على أن يبذل غاية ما في

---

(1) المرجع السابق .

وسعه لنفسه »[1] .

ويعلق العقاد على ذلك بالقول : « ولم يتغير معنى الديمقراطية هذا حين تعرض الفلاسفة للكتابة في أنواع الحكومات ، فقد كانت التفرقة بين نظام من الأنظمة الحكومية ونظام آخر تفرقة في النفع والضمان ، وكانت المساواة التي ترددت في كتب الفلاسفة مساواة وطنية ، وليست مساواة إنسانية ، فقصروها على أبناء اليونان ولم يشركوا فيها الغرباء أحراراً كانوا أو أرقاء وكانت خلاصة فلسفة أفلاطون الحكومية أن الرعية بمثابة القاصرين الذين لايزالون بحاجة إلى الأوصياء . ويجوز في حكمهم أن يخدعوا كما يخدع الأطفال بالحكايات والأساطير . وتكلم أرسطو عن المساواة في الحرية بين المواطنين كأنها ضمان لصلاح الحكم لا شأن له بالحقوق الإنسانية التي يستحقها كل إنسان في كل أزمة »[2] .

كان هذا رأي المفكر الكبير عباس العقاد في الديمقراطية القديمة التي سبقت الأديان ، أما عن رأيه في الديمقراطية في الأديان الكتابية فقد أفرده للحديث عن الديمقراطية في الشريعة الموسوية (لأن المسيحية لم تعرض للحكم والتشريع لأنها قامت في بلاد تدين بالحكم السياسي للدولة الرومانية وتدين بالحكم الديني لهيكل إسرائيل) ... فيقول العقاد وصفاً لنظام الحكم الموسوي ـــ أي المنسوب لليهود القدماء ـــ إنه : « نظام يجمع بين الثيوقراطية والعنصرية والديمقراطية . فهو ثيوقراطي لأن اختيار الحكام والقضاة موكول فيه إلى الأحبار والكهان ، وهو عنصري لأنه خاص ببني إسرائيل ووظيفة الكهانة فيه مقصورة على سلالة معينة من السلالات الإسرائيلية ، وهو ديمقراطي لأنه يسمح للشعب بطلب النظام الذي يؤثره ومبايعة الحاكم الذي يرشحه الأحبار »[3] .

---

(1) الديمقراطية في الإسلام ـــ عباس محمود العقاد ـــ دار المعارف ـــ القاهرة ـــ الطبعة السادسة 1981 .

(2) المرجع السابق .

(3) المرجع السابق .

ويمضي العقاد في تتبع أنظمة الحكم في الدول التي صاحبت ظهور الدعوة الإسلامية فيصف نظام الحكم في دولة الفرس بأنه كان يترأسه ملك الملوك أو (شاهنشاه) وكانت الفواصل بين الطبقات على أشدها ، ولم تكن للدولة شريعة مرعية غير شريعة العرف وما يأمر به الملوك والأمراء . أما نظام الحكم في دولة الروم الشرقية فيصفه العقاد بأنه « كان مضرب المثل في الحكم المطلق »[1] .

ويصف الدكتور طه حسين الديمقراطية في اليونان القديمة فيقول : « إن كلمة الشعب كانت تضيق في أيام اليونان حتى لاتدل إلا على جماعة ضئيلة من المواطنين لهم وحدهم جميع الحقوق يستوون فيها أمام القانون على حين لاتستمتع الكثرة الكثيرة من هذه الحقوق بشيء ، ولاتساهم في أمور الحكم بنصيب »[2] .

ولما كانت الديمقراطية الحقة تقوم على مبدأ الشورى .... حيث لايعقل أن جميع الناس يتفقون في المصالح والأهواء والرغبات والحاجات والآراء فإننا نرى أن الإسلام فد اهتم اهتماماً لانظير له بهذا المبدإ الهام ... بل إن القرآن الكريم وردت به سورة كاملة باسم سورة الشورى ، وهي السورة رقم 42 من سور القرآن البالغ عددها 114 سورة وهي : « سورة مكية ، وعدد آياتها ثلاث وخمسون ، وسميت الشورى لإرشادها المؤمنين إلى السير في تصريف أمور مجتمعهم على أساس الشورى إحقاقاً للحق ، وتقريراً للعدل ، وقد اشتملت على كثير من مسائل الدين وأدلة العقائد »[3] .

ولقد أوضح العقاد : « أن حكم الشورى في القرآن الكريم صريح في وجوبيتها ؛ وليس بعد إيجابه على النبي إعفاء منه لوال من الولاة »[4] .

---

(1) المرجع السابق .

(2) الفتنة الكبرى ــ طه حسين ــ جـ 1 ــ عثمان ، (مرجع سابق) .

(3) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة القرآن والسنة ــ القاهرة 1968 ــ مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر .

(4) الديمقراطية في الإسلام ــ عباس محمود العقاد (مرجع سابق) .

« وقد اختلف الفقهاء ــ كما يقول الأستاذ جلال محمد المنجي ــ في المعنى الذي من أجله أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالمشاورة مع كمال عقله ، وجزالة رأيه ، ونزول الوحي عليه ، ووجوب طاعته على الخلق فيما أحبوا أو كرهوا ، فقال بعضهم أمره الله تعالى بمشاورتهم تطييبا لقلوبهم ، فإن ذلك أعطف لهم عليه ، وأذهب لأضغانهم ، فإن سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا في الأمر شق ذلك عليهم ... وقال النيسابوري إنه قد ذكر العلماء لأمر الرسول بالمشاورة ــ مع أنه أعلم الناس وأعقلهم ــ فوائد منها أنها توجب علو شأنهم ورفعة قدرهم ، وزيادة إخلاصهم ومحبتهم ، وفي ترك ذلك نوع من الإهانة والفظاظة ، ومنها أن علوم الإنسان متناهية فلا يَبْعُد أن يخطر ببال أحد ما لم يخطر بباله ، ولاسيما فيما يتعلق بأمور الدنيا ، ومنها كما قال الحسن وسفيان بن عيينة قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة ولكنه أراد أن يستن به من بعده ، ومنها أن يظهر له مقادير عقولهم فينزلهم على قدر منازلهم ، ومنها أن تصير النفوس الطاهرة متطابقة على تحصيل أصلح الوجوه فيكون أعون على الظفر بالمقصود ولهذا قال ﷺ : ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم . وهذا هو السر في الجماعات والجمعان . ثم إن العلماء اتفقوا على إن كل ما تنزل به وحي لم يجز للرسول أن يشاور الأمة فيه لأنه إذا جاء النص بطل الرأي والقياس »(1) .

ويخلص الأستاذ جلال محمد المنجي إلى القول : « إن الرسول ﷺ أمر بالاستشارة فيما لم يرد فيه نص وذلك للمعاني التي عرفناها ، ولكننا نرى في بعض الحوادث ما يبين أن النبي ﷺ لم يكن في غير حاجة لرأي أصحابه وأنه كان يشاورهم لحاجته إلى الشورى ، وقد عمل برأيهم في كثير من المسائل التي كان له فيها رأي آخر مما يدل على أن الشورى لم تكن لتطييب النفوس والتآلف وإنما كانت مقصودة لذاتها باعتبارها مبدأ أو دعامة من دعامات الحكم في الإسلام . ففي غزوة بدر بلغ الرسول خروج قريش ليمنعوا عيرهم ، فاستشار أصحابه كما يقول ابن هشام ، فقام

(1) الإسلام والشورى ــ جلال محمد المنجي ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ كتب إسلامية ــ العدد ــ 115 ــ القاهرة 1970 .

أبو بكر فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له الرسول خيراً ودعا له به ثم قال : أشيروا عليَّ أيها الناس . وإنما يريد الأنصار ، وذلك لأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع من أبنائنا ونسائنا . فكان النبي يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأنه ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم إلى عدو خارجها .

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ وكان سيد الخزرج من الأنصار : والله لكأنك تريدنا يارسول الله . قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركه الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال : سيروا وابشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم »[1] .

« وفي هذه الفترة قبيل التحام المسلمين بالمشركين في معركة بدر أيضاً كانت مشورة أخرى قبلها الرسول عليه الصلاة والسلام ، ذلك أنه ﷺ سار بأصحابه حتى إذا أتى أقرب مورد ماء من وادي بدر فنزل به ، فجاءه الحباب بن المنذر فقال : يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولانتأخر عنه ،

---

(1) الإسلام والشورى ـــ للأستاذ جلال محمد المنجي (مرجع سابق) .

أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . قال : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون . فقال الرسول : لقد أشرت بالرأي . فنهض ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضاً على القلب الذي نزل عليه فملئ ماء »[1] .

إذن فالرسول ﷺ شاور المسلمين في أمور لم تنزل من عند الله أو كما يقول الدكتور طه حسين : « إن الله أمر نبيه أن يشاور المسلمين في الأمر ، ولو قد كان الحكم متنزلاً من السماء لأمضى النبي كل شيء بأمر ربه لم يشاور فيه أحداً ، ولم يؤامر فيه ولياً من أوليائه . ثم قبل رأي أصحابه بعد وقعة بدر فيما كان من أمر الأسرى وتعرض في ذلك لما أصابه من اللوم الذي نزل به القرآن في قول الله عز وجل : ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة** ﴾ وكان النبي يرى حين بلغه سير قريش إليه في وقعة أحد أن يقيم في المدينة ولايخرج بأصحابه للقاء قريش بالعراء ، وأن يزود قريشاً إن هاجمت المدينة ، ولكن أصحابه ، والأنصار منهم خاصة ، ألحوا في الخروج إلى عدوهم ، فنزل النبي عند رأيهم ، ثم دخل ليلبس لأمته ، وندم المسلمون أثناء ذلك لأنهم استكرهوا رسول الله على ما لم يحب ، فلما خرج إليهم في سلاحه اعتذروا إليه واستأذنوه في الرجوع إلى رأيه ، فأبى ومضى على عزيمته . ولو كان الحكم إلهياً يتنزل دائماً من السماء لما استطاع المسلمون أن يستكرهوا رسول الله على ما يريدون ، ولما قبل النبي منهم ذلك مهما تكن الظروف »[2] .

ويقول طه حسين : « لو أردنا أن نستقصي المواطن التي شاور فيها النبي أصحابه لطال بنا الحديث إلى أبعد مما نريد . ولكن في هذه الأحداث اليسيرة التي رويناها

---

(1) المرجع السابق .

(2) الفتنة الكبرى ــ د . طه حسين جـ 1 عثمان ــ دار المعارف (مرجع سابق) .

ما يكفي لإثبات أن الحكم في أيام النبي لم يكن يتنزل من السماء في جملته وتفصيله ، وإنما الوحي كان يوجه النبي وأصحابه إلى مصالحهم العامة والخاصة دون أن يحول بينهم وبين هذه الحرية التي تتيح لهم أن يدبروا أمرهم على ما يحبون في حدود الحق والخير والعدل . وربما كان من أصدق الأدلة وأقطعها على ماندهب إليه ــ الحديث لطه حسين ــ أن القرآن الكريم لم ينظم أمور السياسة تنظيماً مجملاً أو مفصلاً ، وإنما أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى حقه ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ورسم لهم حدوداً عامة ، ثم ترك لهم تدبير أمورهم كما يحبون على ألا يتعدوا هذه الحدود ، وإن النبي نفسه لم يرسم بسنته نظاماً معيناً للحكم ولا للسياسة ولم يستخلف على المسلمين أحداً من أصحابه بعهد مكتوب أو غير مكتوب حين ثقل عليه المرض ، وإنما أمر أبا بكر فصلى بالناس ، وقال المسلمون بعد ذلك : رضيه رسول الله لأمور ديننا فما يمنعنا أن نرضاه لأمور دنيانا ؟! ولو قد كان للمسلمين نظام سياسي منزل من السماء لرسمه القرآن أو لبين النبي حدوده وأصوله ، ولفرض على المسلمين الإيمان به والإذعان له في غير مجادلة ولا مناضلة ولا مماراة »[1] .

ولما كان النبي ﷺ قد سلك مسلك الشورى بين المسلمين طوال حياته كما رأينا ، فقد أرسى بذلك مبدأ من أهم مبادئ الحياة الديمقراطية التي هي دائماً على النقيض من الديكتاتورية وقهر الرأي وقمع الحرية . فأخذ خلفاؤه رضي الله عنهم بسنته إلى أن امتدت رقعة الدولة الإسلامية إلى أقاصي الأرض شرقاً وغرباً ... جنوباً وشمالاً .

فنرى الخليفة الأول أبا بكر الصديق يحذو حذو قائده العظيم في كل سنوات حكمه ... ولعل أبرز ما يمكن أن يقال هنا ما روي عن استشارته لأعوانه إبان حروب الردة . « فلقد كان المسلمون بعد موت الرسول ــ كما يقول الأستاذ محمد فرج ــ ينقسمون إلى مؤمن موقن ، ومؤمن مفزع ، وكافر عنيد ، ومنافق مفضوح

---

(1) المرجع السابق .

النفاق ، ومتعارج تتطارحه الأهواء ، ويصف الطبري الحالة في الجزيرة فيقول : ونجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم .

وروى صاحب الخميس أن العرب افترقت في ردتها فقالت فرقة : لو كان نبياً ما مات . وقال بعضهم : انقضت النبوة بموته فلا نطيع أحداً بعده . وقال بعضهم : نؤمن بالله . وقال بعضهم : نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله ونصلي ولكن لا نعطيكم أموالنا . فأبى أبو بكر إلا قتالهم »[1] .

« لم يكن العصيان في مكان محدد ، ولكنه كان في كل مكان حتى في مكة والمدينة ، ففي المدينة اختلف الناس ثم اتفقوا على بيعة أبي بكر ، وفي مكة همَّ أهلها بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتاب ابن أسيد عامل رسول الله على أم القرى فتوارى منهم ، وقام فيهم سهيل بن عمرو خطيباً مهدداً ، فبعد أن ذكر وفاة النبي قال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه . ثم أضاف : والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ »[2] .

« وهمت ثقيف أن ترتد فقام عثمان بن العاص عامل النبي فيهم وقال : يا أبناء ثقيف كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتد . وثبتت القبائل المقيمة بين مكة والمدينة والطائف على إسلامها ... أما سائر العرب فقد اضطرب أمرهم وارتد منهم من كان عهدهم بالإسلام قريبا . وألقت المقادير على عاتق أبي بكر حماية الدولة الإسلامية من الأخطار التي تتعرض لها بعد موت الرسول ، وكان أبو بكر لها ، فجمع كبار الصحابة يستشيرهم في قتال الذين منعوا الزكاة ، وكان هناك رأيان : الأول يرى عدم قتال قوم يؤمنون بالله ورسوله ، بل يرى الاستعانة بهم على عدوهم . والثاني أشار بقتالهم . وكان القائلون بهذا الرأي هم القلة ، وتدخل أبو بكر وأيد

(1) حروب الردة ــ محمد فرج ــ كتب إسلامية يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ مايو 1965 .
(2) المرجع السابق .

القائلين بالقتال قائلا : والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى الرسول ﷺ لقاتلتهم على منعه . وأثار قول أبي بكر عمر فقال : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله . فرد عليه أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال إلا بحقها »[1] .

ويعلل الكاتب الكبير عباس محمود العقاد غضب الخليفة أبي بكر الصديق على من ارتد عن الإسلام فيقول رحمه الله : « غضب الصديق رضي الله عنه في حروب الردة غضبته التي لابد أن يغضبها وإلا فما هو بغاضب أثارته ردة المرتدين لأنها مسته في كل ما يثيره ، وأصابته في كل ما يعزه ويغار عليه . فهناك الصديق المحب لصديقه ، والمعجب الغيور على ذكرى بطله ، يثيره أن يغدر الغادرون بعهد ذلك الصديق وذكرى ذلك البطل ، ولمّا تمض في قبره أيام أو أسابيع . قال أبو رجاء البصري : دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ، ورأيت رجلاً يقبل رأس رجل ويقول له : أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا . قلت : من المُقبِل ومن المقبَل ؟ قالوا : عمر يقبل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين »[2] .

أما عن الخليفة العظيم الثاني الذي حكم المسلمين بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه فهو الفاروق عمر . ولقد سبق وعرضنا بعضاً مما نشر عن عدالته ونزاهته . أما الحديث عن احترامه لآراء الغير وأخذه بالشورى فقد بدأ ذلك منذ بداية معرفته للرسول الكريم ﷺ ومعرفته لخليفته أبي بكر رضي الله عنه .

يقول عمر رضي الله عنه بعد بيعة المسلمين له للخلافة مخاطباً الناس : « لكم

---

(1) المرجع السابق .

(2) عبقرية الصديق ــ عباس محمود العقاد ــ الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية 1981 .

عليّ ألا أجتني شيئاً من خراجكم ، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم ، ولكم عليَّ ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم — أي أحبسكم — في ثغوركم ، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم ، فاتقوا الله عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم »(1) .

هذا كان ما قاله الفاروق رضي الله عنه في بداية عهده بالخلافة ، ويظهر مما قاله مدى إيمانه بحقوق المسلمين واحترامه لرأيهم . أما ما قاله رضي الله عنه في أخريات أيامه ما ذكر عنه : « إنني سأستخلف النفر الذين توفي رسول الله وهو راض عنهم . وهم علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . وكان طلحة غائباً ، فقال عمر للخمسة الآخرين : إني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولانفاقاً ، فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم . تشاوروا ثلاثة أيام ، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك وإلا فأعزم عليكم بالله ألا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم ... وليصل بكم صهيب هذه الأيام التي تتشاورون فيها فإنه رجل من الموالي لاينازعكم أمركم . ثم قال : واحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء واحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس ، فإن لهما قرابة وأرجو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من أمركم شيء ، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً وليس له من الأمر شيء . قالوا : يا أمير المؤمنين : إن فيه للخلافة موضعاً فاستخلفه فإنا راضون به . فقال : بحسب آل الخطاب رجل واحد . ثم أوصى بترجيح الجانب الذي يقضي له عبد الله إذا تساوى الجانبان »(2) هذا كان مدى إيمانه رضي الله

---

(1) الديمقراطية في الإسلام — عباس محمود العقاد — (مرجع سابق) .
(2) الديمقراطية في الإسلام — عباس محمود العقاد — (مرجع سابق) .

عنه بالشورى حتى أواخر أيامه . أما عن منهج الشورى خلال سنوات حكمه فيعلق الأستاذ العقاد على ذلك بالقول : « إن عمر جمع عنده نخبة من الصحابة للمشاورة والاستفتاء ، وضن بهم على العمالة في أطراف الدولة تنزيهاً لأقدارهم وانتفاعاً برأيهم واعتزازاً بتأييدهم له ومعاونتهم إياه فيما تولاه من ثواب أو عقاب . وجعل موسم الحج موسماً عاماً للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها : يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولاياتهم ، ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم ، ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم في أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال ... فهي (جمعية عمومية) كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية في عصر من العصور . وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم ، ويستمع لهم ويسمعهم ويتوخى في جميع ذلك تمحيص الرأي وإبراء الذمة والخلوص إلى التبعة السليمة من العقابيل ، وإن أضعف الناس رأياً لن يستضعف فضل الأمير في عمل تولاه ، لأنه عمله بمشاورة غيره . فإن باب المشاورة مفتوح لكل إنسان ، وليس كل إنسان مع ذلك بالذي يريد أن يستشير أو بالذي يعرف كيف يستشير إذا أراد ، أو بالذي يحسن الموازنة بين الآراء إن عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم في حالة ويرفضها في حالة أخرى . إن المشاورة لفن عسير . وإن الذي ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممن يشير عليه . وقد كان عمر عبقري هذا الفن الذي لايجارى . وكان من بدعه الملهمة في هذا الفن العسير أنه يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك في الشعور والتفكير ... فكان كما روى يوسف بن الماجشون : إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم . وإنه لإلهام في فن الاستشارة لايلهمه إلا صاحب رأي أصيل . فمن الرأي الأصيل أن يخبر الإنسان كيف يستعير آراء المشيرين . انظر إليه ـــ لازال الحديث للعقاد ـــ كيف يستشير في اختيار أمير ، تعلم أن الاستشارة كما قلنا فن ، وأنه فن عسير . قال لأصحابه : دلوني على رجل أستعمله فسألوه : ما شرطك فيه ؟ قال : إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجلٌ منهم ، إن الذي يسأل هكذا لهو أقدر من الذي يجيبه بالصواب ، لأنه قطع له ثلثي

الطريق السديد إلى الجواب . وكان ربما استشار العدو الذي لايأمنه ، كما فعل في سماع رأي الهرمزان في أمر الحرب الفارسية . لأنه بصير يطلب نوراً ، فإذا رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق . ومن اليسير إذا تعقبنا مشاورات عمر أن نعلم أنه هو واضع دستور الشورى في الدولة الإسلامية ، وأن الشورى التي وضع دستورها هي شورى الرأي الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء »[1] .

* * *

ننتقل الآن إلى جزء آخر من أجزاء هذا الفصل لنتحدث عن الرحمة في الإسلام ... أي رحمة ، وحب الإنسان لأخيه الإنسان . فالرحمة والحب صفتان نادرتان دائماً في تاريخ البشر ... وهما تقفان على النقيض من القسوة والكراهية اللتين تشكلان لب القمع العقائدي وتحطيم الإرادة وغسيل المخ في مختلف العصور .

ولهذا فلا عجب أن نجد آيات كثيرة تدعو إلى الرحمة والرأفة في القرآن الكريم . ولما لا والله نفسه هو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل الآفاق ... والآيات التي تصف هذه الرحمة الإلهية كثيرة للغاية وهي تهدف بلا شك إلى إشعار المسلمين ليس فقط إلى معرفة أن ربهم رءوف ورحيم ... بل كذلك إلى إشعارهم إلى ضرورة السعي النشط لكي يكونوا هم أنفسهم رحماء وأن تتسم سلوكياتهم بالرأفة بالآخرين يقول الله تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ [البقرة 163] . ويقول : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[آل عمران 31] ويقول : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم**

---

(1) عبقرية عمر ــ عباس محمود العقاد ــ دار الهلال ــ 1988 .

الرسول **لوجدوا الله تواباً رحيماً** ﴾ [النساء 64] . ويقول جل شأنه : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم** ﴾ [الأنعام 54] .

والقرآن كما هو واضح به من مثل هذه الآيات الكثير ... ولهذا فنرى أن الرسول العظيم محمدا ﷺ قد أخذ بهذه الآيات وغيرها حتى أصبحت الرحمة جزءاً لايتجزء من قلبه وسلوكه وتعامله مع جميع الناس ... حتى وصفه الله تعالى بالرأفة والرحمة : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ .

وقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله إذ جاء أعرابي فقال : يارسول الله هلكت وأهلكت . فسأله النبي : مالك ؟ فأجاب الأعرابي : وقعت على امرأتي وأنا صائم . فقال له رسول الله : هل تجد رقبة تعتقها ؟ فقال الأعرابي : والذي بعثك بالحق ما ملكت رقبة قط . فسأله النبي فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ فقال الأعرابي : وهل لقيت ما لقيت إلا من الصيام ؟ فقال له رسول الله : فهل تجد إطعام ستين مسكيناً ؟ فقال الأعرابي : والذي بعثك بالحق ما أشبع أهلي . فقال النبي ـــ بعد ذلك الحوار : اجلس ، فجلس . وبينما القوم على ذلك جيء إلى رسول الله بمكتل فيه تمر ، فقال عليه السلام : خذ هذا فتصدق به . فقال الأعرابي : أعلى أفقر مني أتصدق ؟ فوالله ما بيتة يبيتها أهل بيت أفقر من أهل بيتي ... فتبسم رسول الله حتى بدت نواجذه ، تعجباً من حال الرجل في كونه جاء أول ما جاء هالكاً محترقاً خائفاً على نفسه راغباً في فدائها من غضب الله مهما أمكنه ذلك ، فلما وجد الرخصة في رحاب رسول الله ، والبشر يشرق في وجهه الشريف ، أطمعه ذلك في أن يأكل هو ما أعطيه ليطعمه محتاجاً إليه تكفيراً عن ذنبه ، ثم قال له عليه السلام : خذ هذا المكتل فاطعمه أهلك »[1] .

---

(1) قطوف من أدب النبوة ـــ أحمد حسن الباقوري ـــ كتاب اليوم ـــ العدد 188 - 1981 .

ويعلق فضيلة العالم الكبير أحمد حسن الباقوري على هذا الحديث بالقول : « لست ترتاب ــ إذا أحسنت التدبر ــ في أن هذا السلوك الشريف الذي سلكه رسول الله مع هذا العربي ، من حقه على قادة المسلمين ورؤسائهم ومربيهم أن يكونوا رحماء بمن وضعهم الله في سلطانهم وتحت أيديهم من عباد الله مهما كانوا مخطئين أو خاطئين ولهم في ذلك برسول الله أسوة حسنة »[1] .

ولم تكن رحمة النبي ﷺ بالمسلمين وحدهم ولكنها تعدت ذلك إلى الرحمة بالناس كافة بما فيهم الأسرى الذين كانوا قبل أسرهم يقاتلون المسلمين . ولعل إلقاء بعض الضوء على معاملة النبي للأسرى تعطينا صورة عما ينبغي على الأمم أن تقوم به تجاه الأسرى في العصر الحديث ، وتظهر لنا كيف يعامل المسلمون أسراهم وكيف يعامل غير المسلمين أسراهم .

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة إن النبي ﷺ : « كان رفيقاً بالأسرى لايهدر آدميتهم ، ولايعرف تاريخ الإنسانية محارباً كان رفيقاً بأسراه كمحمد ﷺ ؛ فقد كان يوصي بالأسرى ، ولما أسر من أسر في غزوة بدر ، فقد نزلوا في بيوت الأنصار وكأنهم في ضيافة لا في أسر وذلك لقول النبي ﷺ : استوصوا بالأسرى خيراً . ولماذا كان النبي ﷺ يوصي بالأسرى ويبالغ في الإيصاء بهم ؟ والجواب عن ذلك أنهم يؤسرون ونيران الحرب مستعرة ، وربما كان بعضهم من قتل الكثير من جيش المسلمين فيكون الاعتداء عليهم متوقعاً وغليظاً لشدة الغيظ ، وانبعاث الرغبة في الانتقام كما فعل الأوروبيون والأمريكيون فيمن سموهم مجرمي الحرب . فالنبي ﷺ وهو يضرب الأمثال السامية في تلك الحرب النبوية التي دافع فيها عن المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق منع إيذاء الأسرى وأمر باحترامهم منعاً لتلك الروح الانتقامية الغليظة .

وقد أخذ المسلمون في أسرى بدر بتلك الوصية الكريمة حتى أن الذين قد نزلوا

---

(1) المرجع السابق .

في ديارهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم وأولادهم بالطعام . وإن أولئك الكرام كانوا في جهادين : أولهما جهاد السيف ونيران الحرب ملتهبة ، حتى إذا انطفأت كان الجهاد الثاني وهو ضبط النفس لتكظم الغيظ فيكون منها ما لايرضاه الله تعالى بالنسبة للمغلوبين ، وخصوصاً الأسرى . يقول الله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً** ﴾[1] .

« إن الإسلام يوجب على الأسير أمرين : أولهما : أنه ليس لجيش الإسلام أن يأسر حتى يثخن في الأرض بأن يثقل جيوش العدو بالجراح ولاتكون له قدرة على مواصلة القتال وقد قال الله تعالى : ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم** ﴾ . الأمر الثاني أن القرآن الكريم الذي كان ينفذه النبي ﷺ يذكر بالنسبة للأسرى أمرين لاثالث لهما وهما إما المن عليهم بإطلاق سراحهم ، وإما الفداء بالمال أو الرجال ، فقال تعالى ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتوهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ وكما سبق القول فإن الفداء قد يكون بالرءوس ، فيطلق من أسارى المسلمين في نظير أن يُطلق المسلمون من أسرى الأعداء . وقد يكون بالمال . وإذا كان الأسير فقيرا ولا مال له ، فإنه يتعين تسريحه ، ويكون ذلك من الصفح الجميل الذي أمر الله تعالى نبيه به يقول : ﴿ **فاصفح الصفح الجميل** ﴾ ، ومن أخذ الأمور بالعفو ، كما قال تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾[2] .

ويقول ابن قيم الجوزية ، استشار الرسول ﷺ الصحابة في أسارى بدر ، فأشار عليه الصديق أن يأخذ منهم فدية تكون لهم قوة على عدوهم ويطلقهم لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام ، وقال عمر : لا والله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى

---

(1) خاتم النبيين ﷺ ــ القسم الثاني (العهد المدني) تأليف الأستاذ محمد أبو زهرة ــ الدوحة 1400 هـ .
(2) المرجع السابق .

أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده ، فهوى الرسول ﷺ إلى ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قال عمر فلما كان من الغد ، أقبل عمر فإذا رسول الله ﷺ يبكي هو وأبو بكر ، فقال : يارسول الله : من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟ فقال رسول الله ﷺ : أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة ، وأنزل الله : ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض** ﴾(1) .

« وقد تكلم الناس في أي الرأيين كان أصوب ، فرجحت طائفة قول عمر لهذا الحديث ، ورجحت طائفة قول أبي بكر لاستقرار الأمر عليه ، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم ، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب ، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى ، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى ، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى ، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين ، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء ، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً ، ولموافقة الله له آخراً حيث استقر الأمر على رأيه ، ولكمال نظر الصديق فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخراً وغلَّب جانب الرحمة على جانب العقوبة »(2) .

« قالوا : وأما بكاء النبي ﷺ ، فإنما كان رحمة لنزول العذاب لمن أراد بذلك عرض الدنيا ، ولم يرد ذلك رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر ، وإن أراده الصحابة ، فالفتنة كانت تعم ولاتصيب من أراد ذلك خاصة كما هزم العسكر يوم حنين بقول

---

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد ــ لابن قيم الجوزية ــ مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الإسلامية ــ الجزء الثالث الطبعة العاشرة 1985 ــ طبع على نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر .

(2) المرجع السابق .

أحدهم : (لن نغلب بعد اليوم من قلة) ، وبإعجاب كثرتهم لمن أعجبته منهم ، فهزم الجيش بذلك فتنة ومحنة ، ثم استقر الأمر على النصر والظفر . واستأذنه الأنصار أن يتركوا للعباس عمه فداءه ، فقال : لاتدعوا منه درهماً . واستوهب من سلمة ابن الأكوع جارية نفله إياها أبو بكر في بعض مغازيه فوهبها له ، فبعث بها إلى مكة ففدى بها ناساً من المسلمين ، وفدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل ، ورد سبي هوازن عليهم بعد القسمة ، واستطاب قلوب الغانمين فطيبوا له ، وعوض من لم يطيب من ذلك بكل إنسان ست فرائض .

وذكر الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان ناس من الأسرى لم يكن لهم مال ، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ، وهذا يدل على جواز الفداء بالعمل كما يجوز بالمال »[1] .

« وقد حدث أن وقع ثمامة بن آثال أسيراً في أيدي المسلمين ، فجاءوا به إلى النبي ﷺ فقال : أحسنوا إساره وقال : اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه . فكانوا يقدمون إليه لبن لقحة ــ الناقة الحلوب ــ الرسول ﷺ ، غدواً ورواحاً . ودعاه النبي إلى الإسلام فأبى ، وقال : إن أردت الفداء ، فاسال ماشئت من المال . فمنَّ الرسول ﷺ وأطلق سراحه بدون فداء ، فكان ذلك من أسباب دخوله في الإسلام »[2] .

---

(1) المرجع السابق .

(2) فقه السنة ــ المجلد الثاني ــ إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر ــ تأليف السيد سابق ــ دار الثقافة ــ 1985 .

المراجع

- أولاً: المراجع الأجنبية
- ثانياً: المراجع العربية

المراجع

أولاً : المراجع الأجنبية

1 - Encyclopaedia Britanica - vol. 4 - 1972 - Printed In U.S.A (William Benton Publisher) .

2 - The American Peoples Encyclopaedia - Vol. 3 - 1966 - Printed In U.S.A (Grolier Incorporated) .

3 - Encyclopedia International - Vol. 15 - 1976 - By Grolier Incorporated - Printed In U.S.A.

4 - International Encyclopaedia of The Social Science Vol. 2 - 1968 - The Macmillan Company & The Free Press - Printed In U.S.A .

5 - The Encyclopaedia Americana - Internatiobal Edition - Vol. 4 - 1976 - Printed In U.S.A .

6 - Sadism and Masochism - The Psychology of Hatred and Cruelty . Wilhelm Stekel, M.D. Authorized English Version By : Louise Brink, Ph. D. Washington Square Press, Inc. New York . 1 st Printing 1948 - Printed In U.S.A .

7 - Sexual Behaviour . Dr . Eustace Chesser - Transworld Publishers - London - Corgi Edition 1964 - Printed In Great Britain .

8 - A History of Civilization - Crane Brinton John . B. Christopher - Robert Lee Wolef - Volume one - Second Editdon - Englewood Cliffs, New Jersy - 1960 - Printed In U.S.A .

9 - 1000 Great Events - Edited By : Lynne Sabel and Philip Steele - The Hamlyn Publishing Group Limited - 5 th Impression 1981 - Printed In Spaine .

10 - The Great Encyclopaedia of Universal Knowledge - Odhams Press - Limited . Long Acre, London, Copyright - TS 144 - Printed In Great Nritain .

11 - The World Almanac & Book of Facts - 1984 Newspaper Enterprise Association, Inc, New York - Printed In U.S.A .

12 - Sense And Nonsense In Psychology - By H.J. Eysenck - Penguin Books - 1962 - Printed In Great Britain .

13 - A Short Encyclopaedia of Psychology and Psychiatry . By Dr . William El - Kholy - First Edition - 1976 - Dar Al - Maaref - Egypt .

14 - The Family Medical Encyclopedia - Justus . J. Schifferes, Phd. Published By : Pocket Books - New York . 33 rd Printing . 1974 - Printed In U.S .A .

15 - A Critical Dictionary of Psychoanalysis - Charles Rycroft - Penguin Books 1979 - Made and Printed In Great Britain .

16 - Encyclopedia of American History - 1973 - Dushkin Publishing Group, Inc - Guilford - Connecticut - Printed In The U.S.A .

17 - Inquiring About American History - Studies In History and Political Science - Allan . O. Kownslar - William. R. Fielder - Holt - Rinehart and Wisnton, Publishers - 1976 - Printed In The U.S.A .

18 - Race Relations - Michael Banton - Basic Books. Inc, Publishers - New York 1967 - Printed In The U.S.A .

19 - In These United States And Canada . Heath Social Studies Series - D.C. Heath And Company - Boston . Copyright - 1965 - Printed In The U.S.A .

20 - Slavery To Civil War (1812 - 1865) - By - William Loren Katz - Minorities In American Histories - Volume 2 . Franklin Watts, Inc, New York 1974 .

21 - Facts And Feats of The wild West. By : Robin May - Copyright 1979 : The Hamlyn Publishing Group Limited . Printed In Great Britain .

22 - The American Civil War - Winston . S. Churchil. Corgi Books - Transworld Publishers Ltd . A National Generàl Company - Copyright 1958 By Cassel & Company Ltd . Printed In Great Britain .

23 - The Pocket History of The United States. By : Allan Nevins and Henry Steele Commager - Pocket Books Inc - New York - Copyright 1942 By Little, Brown & Company. Printed In U.S.A .

24 - Time (International) March 13 - 1989 - Printed In U.S.A .

25 - Newsweek (International) March 23 - 1987 - Printed In U.S.A .

26 - American Racism - Exploration of The Nature of Prejudice. By : Roger

Danies & Harry . H.L Kitano - Prentice Hall, Inc, Englewood Cliffs, New Jersey 1971 - Printed In The U.S.A .

27 - The New Encyclopaedia Britanica - Vol. 2 . Encyclopaedia Britanica, Inc, 1988 - Printed In U.S.A .

28 - The American Journal of Psychiatry - July 1981 . The Official / Journal of The American Psychiatric Association . Washington. D.C. Printed In The U.S.A .

29 - The Soviet Political Mind . Stalinism and Post Stalin Change . George Allen & Unwin, Ltd, 1971 - London - Printed In Great Britain .

30 - The American Peoples Encyclopedia - Vol - 17 . Copyright 1966 By : Grolier Incorporation - Printed In U.S.A .

31 - Encyclopaedia Britanica - Vol . 21 . William Benton Publisher 1972 - Printed In U.S.A .

32 - The New Encyclopaedia Britanica - Vol . 11 . Copyright 1988 By : Encyclopaedia Britanica Inc, Printed In U.S.A .

33 - The Calt of Optimism . By : Walter. N. Vickery Indiana University Press. Bloomington . Copyright 1963 - Printed In U.S.A .

34 - Thought Power - Its Control and Culture - Annie Besant - 12 Th Print . The Theosophical Publishing House . Printed In Great Britain .

35 - The Encyclopedia Americana . International Edition . Volume . 24 . Copyright 1976 By : Americana Corporation . Printed In The U.S.A .

36 - Brain Washing - The Story of Men Who Defied It . Edward Hunter . Farrar, Straus and Cudahy . New York 1956 , Printed In The U.S.A .

ثانياً : المراجع العربية

1 ـ طه حسين ـ الفتنة الكبرى ـ جـ 1 عثمان ـ الطبعة العاشرة ـ دار المعارف القاهرة ـ 1984 .

2 ـ يسألونك في الدين والحياة ـ الدكتور أحمد الشرباصي ـ المجلد الثاني ـ الطبعة الثالثة 1980 ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان .

3 ـ عبقرية عمر ـ عباس محمود العقاد ـ دار الهلال 1988 .

4 ـ محمد ﷺ ـ رفاعة رافع الطهطاوي ـ الجزء الثالث ـ دار مأمون للطباعة والنشر ـ القاهرة 1976 .

5 ـ فقه السيرة ـ محمد الغزالي ـ دار الكتب المصرية ـ الطبعة الخامسة 1965 .

6 ـ الدين العالمي ومنهج الدعوة ـ فضيلة الشيخ عطية صقر ـ مجمع البحوث الإسلامية ـ الكتاب الحادي عشر 1970 .

7 ـ ودخلت الخيل الأزهر ـ محمد جلال كشك ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ 1978 .

8 ـ الديمقراطية في الإسلام ـ عباس محمود العقاد ـ دار المعارف القاهرة ـ الطبعة السادسة 1981 .

9 ـ المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة القرآن والسنة ـ القاهرة 1968 ـ مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر .

10 ـ الإسلام والشورى ـ جلال محمد المنجي ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ كتب إسلامية ـ العدد 115 ـ القاهرة ـ 1970 .

11 ـ حروب الردة ـ محمد فرج ـ كتب إسلامية يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ مايو 1965 .

12 ـ عبقرية الصديق ـ عباس محمود العقاد ـ الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ـ 1981 .

13 ـ قطوف من أدب النبوة ـ أحمد حسن الباقوري ـ كتاب اليوم ـ العدد 188 - 1981 .

14 ـ خاتم النبيين ﷺ ـ القسم الثاني (العهد المدني) تأليف الأستاذ محمد أبو زهرة ـ الدوحة 1400 هـ .

15 ـ زاد المعاد في هدى خير العباد ـ لابن قيم الجوزية ـ مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ الجزء الثالث ـ الطبعة العاشرة 1985 ـ طبع على نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر .

16 ـ فقه السنة ـ المجلد الثاني ـ إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر ـ تأليف السيد سابق ـ دار الثقافة ـ 1985 .

17 ـ محاكم التفتيش (بأسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها) تأليف الدكتور علي مظهر ـ مطبعة أنصار السنة المحمدية 1947 .

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

رقم الإيداع : ٨٩١٢ / ١٩٩٢	
الترقيم الدولي : ٨ ـ ١١٨ ـ ٢٥ ـ ٩٧٧	

الزهراء للإعلام العربي
الإدارة : ١٤ شارع الطيران ـ رابعة العدوية
مدينة نصر ـ ت : ٦٠١٩٨٨ ـ ٢٦١١١٠٦
تلكس : ٩٤٠٢١ رائف يو إن فاكس ٢٦١٨٢٤٠

المطابع : ٩ ش عماد الدين كامل ـ متفرع من عباس
العقاد ـ مدينة نصر ت : ٢٦٣٧٢٨٣
القاهرة